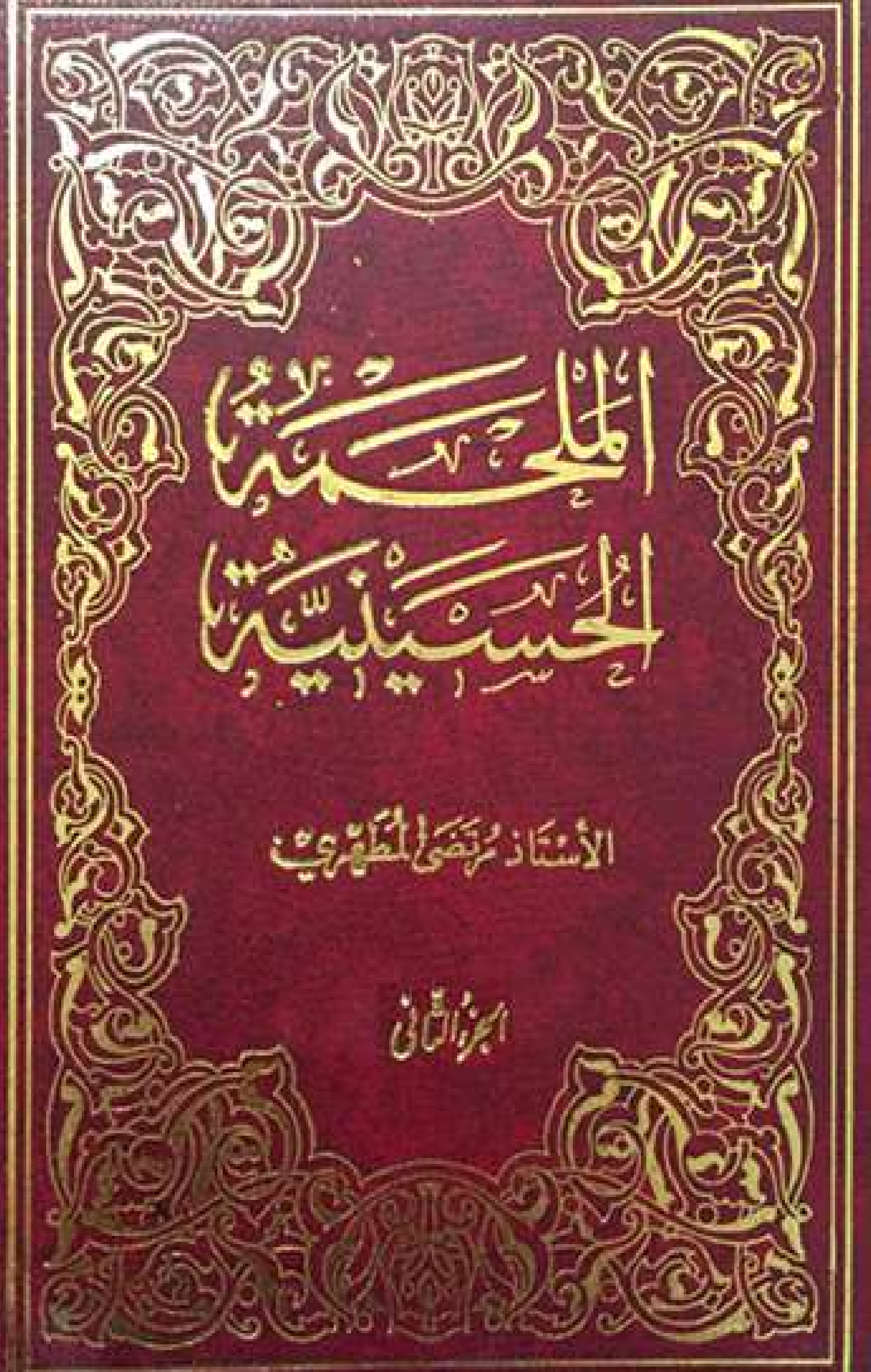
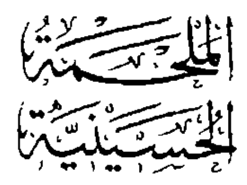
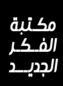
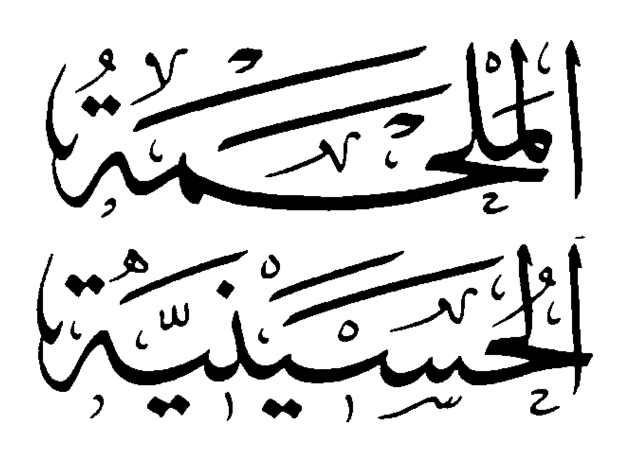


الملحمة
الحسينية
الأستاذ مرتضى المطهري
الجزء الثاني


من كتب
عبير الربيعي


الملحمة الحسينية


مكتبة
الفكر
الجديد



الأستاذ مرتضى المطهري

الجزء الثاني



القسم الرابع

عامل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في النهضة الحسينية

المحاضرة الأولى : العوامل المؤثرة في النهضة الحسينية
المحاضرة الثانية : قيمة كل عامل من العوامل
المحاضرة الثالثة : شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
المحاضرة الرابعة : مراحل وأقسام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
المحاضرة الخامسة : قيمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في نظر الاسلام
المحاضرة السادسة : نتائج القول في قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
المحاضرة السابعة : تأثيرات قيام أهل بيت الامام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بعد واقعة كربلاء

المحاضرة الأولى

العوامل المؤثرة في النهضة الحسينية

بسم الله الرحمن الرحيم(*)

الحمد لله رب العالمين ، باريء الخلائق أجمعين ، والصلاة والسلام على عبد الله ، ورسوله ، وحبيبه ، وصفيّه ، سيدنا ونبينا ومولانا ، أبي القاسم محمد ، وآله الطيبين الطاهرين المعصومين ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

﴿ إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفُسَهم وأموالَهم بأنَّ لَهُمُ الجنَّة ، يقاتلون في سبيل الله ، فيَقتلون ويُقتلون ، وعداً عليه حقّاً في التوراة ، والإنجيل ، والقرآن ، ومَنْ أوفى بعهدِهِ من الله ، فاسْتَبْشِروا بِبَيْعِكُم الذي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وذلِكَ هُوَ الفَوْزُ العظيم * التائبُونَ العَابِدونَ ، الحَامِدونَ ، السَّائحونَ ، الراكِعونَ ، السَّاجدون ، الآمرون بالمعروف ، والناهون عن المنكر ، والحَافِظُونَ لِحُدُودِ الله وَبَشِّرِ المُؤْمنين ﴾[1]

إنَّ بحثنا يتناول عامل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، في النهضة الحسينية . ولا بد منذ البداية من السؤال عمّا إذا كان هذا العامل مؤثراً في النهضة الحسينية أصلاً ، أم لا ؟

(*) ألقيت هذه المحاضرة بتاريخ ٦محرم من العام ١٣٩٠هـ .

(١) سورة التوبة : الآيتان ١١١ - ١١٢.

بعبارة أخرى ينبغي التساؤل فيما إذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من العوامل التي دفعت بالحسين بن علي (ع) للقيام والثورة أم لا ؟

ومن ثم ثانياً مدى تأثير مثل هذا العامل ؟

الكل يعرف أنّ فلسفة إقامة العزاء ، وإحياء ذكرى الإمام الحسين عليه السلام ، التي يوصينا الأئمة الأطهار بالمداومة عليها ، عاماً بعد عام ، إنما هي فلسفة تربوية ، يُقصد منها التعلّم ، وإدراك المعارف ، من ذلك الدرس التاريخي الكبير جداً .

وحتى يستطيع الإنسان الاستفادة من أي درس ، لا بد له أولاً من فهم ذلك الدرس جيداً واستيعابه تماماً .

في هذه الليلة سأتحدث إليكم عن مجموع العوامل المؤثرة في النهضة الحسينية بشكل مجمل ، ثم أُعرِّج بكم للحديث عن الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، باعتباره العامل الأساس لهذه النهضة . وسأتناول هذا الموضوع بالتفصيل ، والشرح المُسهب والموسع ، إن شاء الله .

هناك عوامل متعددة ، لعبت دوراً في وقوع النهضة الحسينية ، وهذا الأمر بحد ذاته ساعد في تشابك التفسيرات ، وتداخل التحليلات المتنوعة، لهذه الحادثة التاريخية ، التي أريد من خلالها الوصول إلى كُنه واقعيتها العميقة والبليغة ، بالرغم من عدم اتساع الرقعة التاريخية والزمانية لوقائع الحدث .

وإن أحد الأسباب في اختلاف التفسيرات التي وردت بشأن هذه الواقعة واستغلالها بشكل سيّىء أحياناً، هو تعقيدات هذه الواقعة العظيمة ، وذلك من زاوية العناصر المؤثرة في صناعة الحدث والرواية الحسينية .

ففي هذه الواقعة تواجهنا قضايا عديدة :

فمرةً هناك قضية أخذ البيعة ليزيد ، وامتناع الإمام (ع) عن هذه البيعة .

وهناك قضية دعوة أهل الكوفة للإمام وقبول الإمام لهذه الدعوة .

وفي مكان آخر من الحدث ، نرى أنّ حديث الإمام لا يتناول بأيّ شكل

من الأشكال قضية البيعة ، وامتناعه عليه السلام عن المبايعة ، كما أنه لا يتطرق بالمرة إلى موضوع دعوة أهل الكوفة له ، ومبايعتهم له ، بل إنّ حديثه يتطرق على العموم إلى الأوضاع الحكومية الفاسدة ، وبالتالي فإنه يوجه النقد اللازم لوضع حكومة العصر ، وكيف أنها تحاول تغيير ماهية الإسلام ، ويُبين مدى تحول الحرام إلى حلال ، والحلال إلى حرام ، وأخيراً تذكير الناس بواجبهم الإسلامي في مواجهة مثل تلك الأوضاع وضرورة عدم الرضوخ لها أو السكوت عليها .

وهنا نرى أنّ الإمام لا يتطرق إلى موضوع البيعة ، ولا إلى موضوع دعوة أهل الكوفة . وكأنه ليس هناك مسألة باسم البيعة ليزيد ، ولا قضية باسم دعوة أهل الكوفة له .

فأين يكمن السبب إذن في حصول النهضة ؟ هل المسألة مسألة البيعة ؟ أو إنّ القضية هي قضية الدعوة التي تلقاها من أهل الكوفة ؟ أو إنها ، لا هذه ولا تلك ، بل إنها مسألة المعارضة والنقد ، أم شيوع المنكرات وضرورة محاربتها ؟

فأية قضية من تلك القضايا كانت الباعث الحقيقي ؟ وكيف نُبرر هذه الحالة وما هو تفسيرنا لها ؟ ثم ما هو الفرق الواضح والبيّن الذي يمكن عرضه بين عصر الإمام ، أي عصر حكومة يزيد مع العصور التي ما قبلها ؟ لا سيما مع عصر معاوية الذي صالحه الإمام الحسن (ع) في حين إنّ الإمام الحسين (ع) لم تكن لديه أية نية للصلح مع يزيد ، كما أنه لم يكن يجيز لنفسه مثل هذا الصلح .

والحقيقة إن كل هذه العوامل مجتمعة كانت مؤثرة . أي إنّ هذه العوامل كانت موجودة بأجمعها ، وإنّ الإمام الحسين (ع) قد أبدى ردود فعله المناسبة تجاه كل عامل من هذه العوامل . فجزء من تحركه استند في الواقع إلى موقف الامتناع عن البيعة ليزيد ، في حين أنّ بعض قراراته قامت على أساس دعوة أهل الكوفة له ، بينما كان البعض الآخر يقوم على أساس محاربة الفساد والمنكر الذي كان شائعاً على كل حال في ذلك الزمان .

كل هذه العوامل كانت مؤثرة في واقعة كربلاء ، تلك الواقعة التي هي عبارة عن مجموع ردود الفعل والقرارات التي تم اتخاذها من قبل الوجود القدسي العظيم لأبي عبد الله الحسين (ع) .

في البداية سنبحث موضوع البيعة ، ومدى تأثيرها في الواقعة ، وردُ الفعل المعاكس الذي أظهره الإمام مقابل مطالبتهم إياه بمبايعة يزيد ، والتكليف الذي كان يحمله الإمام مقابل هذه البيعة ؟

كلنا يعرف كيف وصل معاوية بن أبي سفيان إلى رأس الهرم في السلطة ، وتربع على كرسي الخلافة . فبعد أن أظهر أصحاب الإمام الحسن (ع) ضعفاً شديداً ، اضطر الإمام إلى التوقيع على معاهدة مؤقتة مع معاوية ، لم يعترف فيها له بمشروعية الخلافة ، أو الحكم ، وإنما على أساس تخلّيه عليه السلام عن الحكم له مؤقتاً ، مقابل تعهد معاوية بإفساح المجال للمسلمين بانتخاب الحاكم الذي يرغبون بانتخابه خليفة على المسلمين .

وبعبارة أخرى إفساح المجال للمسلمين بانتخاب من يرونه صالحاً ، وكفؤاً للخلافة ، ممن عيّنهم النبي الأكرم (ص) للولاية من بعده .

وكلنا يعرف أيضاً بأنه حتىٰ عهد معاوية كانت مسالة الخلافة والحكم خارجة عن نطاق الوراثة تماماً ، ورأي المسلمين بشأنها ينقسم إلى قسمين .

قسم يرى بأنّ الخلافة من حق ذلك الشخص الذي عيّنه النبي بأمر من الله سبحانه وتعالى للخلافة .

وقسم يقول بحق الناس في انتخاب الخليفة المناسب .

ولكن على كل حال لم يكن مطروحاً بعدُ أن من حق الخليفة الحاكم تعيين الخليفة الذي يليه ، وبالتالي فرضه على الناس ولياً للعهد من بعده ، وأنّ هذا الأخير يُعينّ الذي يليه ، وهكذا دواليك . . . وبالتالي خروج مسالة الخلافة من دائرة البحث فيما إذا كان الأمر يعود لنص النبي الأكرم ، أو حق المسلمين في انتخاب الحاكم المناسب .

إنّ أحد بنود اتفاقية الصلح ، التي عقدها الإمام الحسن (ع) مع معاوية ، والتي لم يعمل بها معاوية ، بل ونقضها صراحةً (تماماً كما عمل مع بقية البنود) ، كان ينص على عدم وجود أي حق لمعاوية في تعيين مصير المسلمين من بعده ، ولذلك نراه يتآمر في قتل الحسن ، عن طريق تسميمه ، حتىٰ لا يبقى أثر أو شاهد

على هذه الاتفاقية ، أو بالأحرى يتم القضاء على المُدعي في هذا النزاع .

فالحسن كان يُريد القول من خلال اتفاقية الصلح : إنّ معاوية شر أصاب المسلمين ، وها نحن قد تجرّعناه ، ولكن الأمر بعده لا بد وأن يعود بيد المسلمين ، وفي كل الأحوال ليس بيد معاوية .

لكن معاوية ، وكما يؤكد المؤرخون ، كان يسعىٰ منذ اليوم الأول ، لجعل الخلافة تصبح نوعاً من أنواع السلطنة ، ومن ثم ضمان بقائها في عائلته ، وقومه ، فلا تخرج أبداً من عشيرته .

لكنه كان يعرف قبل غيره بأنّ هذا الأمر لم يكن بالأمر الهيّن ، ولا توجد له الأرضية المساعدة . ولذلك تراه كان يُفكر كثيراً حول هذا الموضوع ، ويتشاور مع أصحابه ، وأعوانه خاصة ، لكنه لم يكن يتجرأ بالإعلان عن نواياه الحقيقية تلك إذ إنه لم يكن يتصوّر أن يكون مشروعه مشروعاً عملياً .

المؤرخون يكتبون في هذا المجال ، بأنّ الذي شجّع معاوية ، وأدخل الاطمئنان إلى قلبه بإمكانية تحقيق مثل هذا الحلم ، هو (المُغيرة بن شعبة) الذي كان بدوره يبحث عن تأمين ولاية الكوفة لنفسه ، لا سيما وأنه كان والياً على الكوفة في الماضي ، غير أنّ معاوية كان قد أصدر لتوه أمراً بعزله عنها ، مما أزعج المغيرة كثيراً .

والمغيرة هذا معروف عنه بأنه من شياطين القوم ومُخططي العرب ودُهاتها .

فهو ومن أجل العودة مجدداً إلى كُرسي الولاية ، فقد ذهب إلى الشام ، والتقىٰ بيزيد بن معاوية ، وقال له :

لا أدري ماذا ينتظر معاوية ، ولماذا يتهاهل بشأن ولاية العهد ؟

فقال له يزيد : إنّ أبي يتصور بأنّ هذا الأمر ليس عملياً .

فقال : بلى ، إنه عملي ، فممّن تخافون ؟ وأين تتصورون أنّ الناس سوف لن تتجاوب معكم ؟

فالناس في الشام مطيعةٌ لأمر معاوية وتعليماته ، وأما المدينة فأنا أنصحكم

بإرسال فلان إليها ، وهو قادر على تنفيذ هذه المهمة لكم . يبقىٰ المكان الأخطر والأهم ، من كل مكان آخر ، وهو العراق (الكوفة) وهذه المهمة اتركوها لي فأنا كفيل بها .

ويذهب يزيد إلى معاوية ، ويُخبره بما يقوله المُغيرة بهذا الخصوص ، فيطلب معاوية المغيرة ليتحدث إليه .

ومن خلال المنطق القوي الذي يحمله المغيرة ، واللسان الحلو ، يستطيع إقناع معاوية بأنّ الأرضية مُهيأة لطرح فكرة ولاية العهد ، وأنّ المشكل الوحيد الذي سيواجه هذا الطرح هو موقف أهل الكوفة الذي هو بدوره على استعداد لحله ، ومواجهة صعابه .

وهنا يُقرر معاوية تولية المُغيرة على الكوفة مرة أخرى . (كل هذا يحدث بالطبع بعد شهادة الإمام الحسن المجتبىٰ عليه السلام ، والذي يُصادف في السنين الأخيرة من عهد معاوية) والحكاية متشعبة كثيراً .

ولكن يمكن تلخيص ما جرى كما يلي :

فأهل الكوفة والمدينة لم يقبلوا بالفكرة ، وأُجبر معاوية على الذهاب بنفسه إلى المدينة وهناك دعا وجهاء المدينة ، أي أولئك النفر الذين يحترمهم الناس فيها ، ويُجلون شخصياتهم ، وهم الحسين بن علي (ع) ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وطلب إليهم بلسان معسول ، الموافقة على فكرة حكومة يزيد ، من خلال طرح فكرة المصلحة الإسلامية العامة التي تتطلب مبايعة يزيد للحكم والخلافة ظاهرياً ، على أنْ يكون الحكم الحقيقي والفعلي بيد هؤلاء الوجهاء الثلاثة ، وذلك من أجل المحافظة على وحدة المجتمع ، ودفع الاختلاف بين الناس .

لكنه فشل في إقناعهم بفكرة مبايعة يزيد ، وبالتالي فإن الأمور لم تسر على الشكل الذي أراد له معاوية أن يتم ، حتىٰ بعد استخدامه أسلوب الخداع ، والمكر ، والاحتيال ، وذلك من خلال محاولة إعطاء الانطباع للناس ، في مسجد

المدينة ، بقبول هؤلاء الثلاثة ، بفكرة البيعة ليزيد ، الأمر الذي لم يتم تحقيقه ، والوصول إليه كذلك .

إنّ معاوية كان قلقاً جداً بشأن مستقبل ابنه يزيد ، وقد قدّم إليه بعض النصائح في أيام عمره الأخيرة عندما قال له :

تصرف هكذا مع عبد الله بن الزبير لأخذ البيعة منه وتصرف هكذا مع عبد الله بن عمر لنفس الغرض ، ولكن إيّاك أنْ تتصرف بخشونة وعنف مع الحسين بن علي (ع) !! بل ونصحه باستخدام الرفق واللين معه تماماً ، وأضاف :

إنه ابن النبي ، وإنّ له مكانة عظيمة عند المسلمين ، فإياك واستخدام الخشونة مع الحسين بن علي .

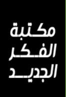
إنّ معاوية كان يعي جيداً ويعرف تماماً بأنّ معاملة يزيد للإمام الحسين بخشونة ، وتلطيخ يديه بدم الحسين ، كان يعني سلب الخلافة من يزيد ، وضياعها بسرعة ، وخروج الخلافة من عشيرة آل سفيان نهائياً .

لقد كان معاوية رجلاً داهية ، وكانت تنبؤاته مثل كل تنبؤات السياسيين الآخرين ، غالباً ما تصدُق على الواقع ، أي إنه كان رجلاً يستوعب حركة الأمور جيداً ، وقادراً على قراءة المستقبل بشكل جيد .

على العكس تماماً مما كان ابنه يزيد ، فهو شاب مغرور أولاً ، ورجل أمارة مُدلّل ، قضىْ أيام شبابه في حياة البذخ والقصور ، ولم يخرج من دائرة اللهو واللعب والأنس ، وهو لم تكن لديه حاسة الإدراك والشم السياسي ، وقد تسلطت عليه وغلبته آفات الغرور ؛ غرور الشباب ، والسلطة ، والثروة ، والشهوة .

فهو قد ارتكب عملاً أضر ، وأكثر ما أضرّ به ، آل أبي سفيان بالدرجة الأولى ، حيث كانت فيه عائلة أبي سفيان الخاسر الأكبر .

فهم لم تكن لديهم أهداف معنوية في الحياة ، وكل ما كانوا يهدفون إليه ،



هـو الوصول للسلطة ، والتربع على عرش السلطنة ، وهـذا ما خسروه بـالفعل نتيجة أعمال يزيد .

صحيح أنّ الحسين بن علي (ع) قد قُتـل ، لكنه حقق أهـدافه المعنـوية ، وأدرك غاياتـه العرفانية ، في المقابل فإنّ آل أبي سفيان لم يُحققوا أيّاً من أهدافهم ، بأيّ شكل من الأشكال .

بعـد أن توفّي معـاوية في (الخـامس عشر من شهر رجب من العـام الستّين للهجرة) ، أرسل ابنه يزيد رسالة إلى حاكم المدينة ، الـذي كان من بني أميـة ، يُخبره فيها بموت معاوية ، ويطلب منه أخذ البيعة له من الناس .

لقد كان يعرف بالضبط أنّ المـدينة مـركز الـدولة الإسـلامية ، وأنّ النـاس جميعاً يشخصون بأبصارهم إلى المركز ، ولذا تراه يبعث إليـه برسـالة أخـرى معها يـطلب إليه فيهـا استدعـاء الحسين بن عـلي ، وأخذ البيعـة منه ، وأن يبعث إليـه برأس الحسين في حالة رفضه للبيعة .

وبناء عليه ، فإنّ إحدى القضـايا التي كـانت تواجـه الإمام الحسـين ، هي طلب البيعة ليزيد بن معاوية بتلك الصورة التي مر ذكرهـا ، والتي علاوة عـلى كل المفاسد الأخرى ، فإنّ مفسـدتين خاصتين تبرزان هنا ، لم تكونا موجودتين حتىْ مع معاوية :

إحداهما هي أنّ البيعة مع يزيد كـانت تعني إضفاء المشروعيـة على الخـلافة الوراثية من قبل الإمام الحسين ، أيْ إنّ موضوع الخلافـة لم يَعُد مـوضوع المـوافقة على فرد معين ، بقدر ما كانت تعني الموافقة على مبدأ الخلافة الوراثية .

والمفسدة الثانيـة كانت تتعلق بشخص يـزيد بـالذات ، الـذي كان وضعـه يختلف عن وضع كل الأزمنة والعصور الأخرى ، فهو لم يكن رجلاً فاسقاً وفاجـراً فحسب ، بل إنه كان يتظاهر بالفسق ، ويجهر بفساده وفجوره ، ويفتقد مـع ذلك إلى الكفاءة ، واللياقة السياسية تماماً .

إنّ معـاوية وكثيراً من خلفاء بني العبـاس كانـوا من الفسقـة ، والفجـار ،



لكنهم كانوا يُدركون تماما بأنهم إذا ما أرادوا لسُلطتهم وملكهم الدوام ، فإن عليهم مراعاة المصالح الإسلامية العامة إلى حد كبير ، إلى جانب الحفاظ على الشؤون الإسلامية .

لقد كانوا يُدركون جيداً بأنّ علم وجود الإسلام يعني عدم وجودهم أيضاً .

لقد كانوا يعرفون بأنّ مئات ملايين البشر من أبناء القوميات المختلفة في آسيا ، وافريقيا ، وأوروبا ، وهم الذين انضووا تحت علم وحكومة واحدة ، مركزها الشام ، أو بغداد ، إنما يخضعون لسلطة هذه الحكومة المركزية ، لأنها حكومة الإسلام ، ولأنها تحكم باسم القرآن ، وإنّ خليفتها هو الخليفة الإسلامي ، وفي غير ذلك فإنهم لو اكتشفوا بأنّ الخليفة مناهض للإسلام ، فإن أول عمل سيقومون به هو إعلان استقلالهم عن المركز .

فما الذي كان يُجبر مثلاً أهل خراسان ، أو الشام وسورية ،وصاً من أبناء إفريقية ، أن يُقدموا الطاعة لحاكم بغداد ، أو حاكم الشام ؟

ولذلك فإن الخلفاء العقلاء ، ومن يملكون الحس والإدراك السياسي ، كانوا يُدركون بأن المفروض بهم مراعاة مصالح الإسلام إلى حد كبير .

لكن يزيد بن معاوية لم يكن لديه هذا الشعور ، لأنه كان رجلاً متهتكاً .

لقد كان يُسر من حالة عدم احترامه للناس ، والإسلام ، وكسره للحدود الإسلامية .

ربما كان معاوية بدوره يشرب الخمر أيضاً ، (وعندما أقول هنا ربما ، فإنني أقولها من الناحية التاريخية ، لأنني شخصياً لا أتذكر شيئاً من هذا ، لكن الذين يقرأون التاريخ بدقة أكثر ، ربما عثروا على موارد من هذا القبيل)[1] والتاريخ أشار تلميحاً إلى أنّ معاوية قد شرب الخمر في مجلس علني ، أو أنّه دخل إلى

---

(١) راجع كتاب الغدير ـ القيّم ـ ج ١٠ ص ١٧٩ حيث ستجد ان هذا الموضوع مُسلّم من الناحية التاريخية .

للمجلس وهو في حالة السكر ، وإنّ هذا الرجل ـ أي يزيد ـ يشرب الخمرة علناً في المجالس الرسمية ، ويسكر حتى الثمالة ، ثم يبدأ بالهذيان الكامل . كتب المؤرخون جميعاً عنه : أنّه كان يُمارس هواية ملاعبة القردة و . . . . لقد كان يملك قرداً سمّاه أبا قيس ، وكان يحبه كثيراً .

ولمّا كانت أمّه من أهل البادية ، وقد نشأ هو أيضاً في البادية ، ولذلك نراه يحمل عادات وأخلاق أهل البادية حيث كان يحب كثيراً القردة والكلاب و . . . ويأنس لمعاشرتهم .

وفي هذا الخصوص ينقل المسعودي في (مروج الذهب) أنه ـ أي يزيد ـ كان يُلبس القرد الألبسة الحريرية الفاخرة والجميلة ، ويُجلسه كثيراً إلى جانبه أكثر مما يُجلس رجال الدولة والجيش ! حتى قال الإمام الحسين (ع) عنه :

« وعلى الإسلام السلام إذْ قد بُليت الأمة براعٍ مثل يزيد »[1] .

فهنالك فرق بينه وبين الحكام الآخرين : فهذا الشخص وجوده بحد ذاته كان يُمثّل حرباً على الإسلام .

ومثل هذا الشخص يُراد من الإمام الحسين (ع) أن يُبايعه ! وطبيعي أنْ يمتنع الإمام عن البيعة ويقول : « مثلي لا يبايع مثله أبداً » . وأهل الحكم من طرفهم أصروا على طلب البيعة .

وهذه الحالة كانت تُمثّل عاملاً من عوامل النهضة الحسينية ، ولهذا فإن الحكم كان مُصرّاً على ضرورة حصول المبايعة من قبل الحُسين (ع) بالذات . (وعندما يرفض رجل مثل الحسين أن يبايع يعني أنه قد قرر الوقوف بوجه الحكم والسلطان ، وصار بالتالي من رجال المعارضة) .

وعليه فإنهم لم يكونوا على استعداد أن يروا الحسين يسيرُ حُراً بين الناس ، وهو لم يُبايع الحاكم الجديد ، لأن عدم البيعة هذه كانت تُشكّل خطراً على نظام الحكم العتيد .

---

(١) مقتل المقرم ص ١٤٦

وقد شخصوا الموقف تشخيصاً سلبياً لأن الأمر كان يعني هذا بل وأكثر من هذا : فعدم مبايعة الإمام كانت لا تعني المخالفة والاعتراض على الحكم فحسب ، بل تعني أنّ طاعة يزيد ليست واجبة على الناس ، وإنما الواجب يستدعي الاعتراض على الحكم الجديد .

لقد كانوا يُصرّون على البيعة ، وهو كان يُصرّ على عدم البيعة .

والآن ماذا كان مطلوباً حقاً من الإمام (ع) في مقابل هذا الإصرار والإلحاح على البيعة ؟

الحقيقة أنه لم يكن أمامه أيّ تكليف آخر ، غير تكليف رفض البيعة .

إذاً هل تبايع ؟ كلاّ .

إنْ لم تبايع ستُقتل !

مستعدٌ للموت ولن أرضخ للبيعة مهما كلّف الأمر .

كان هذا هو رد الفعل الطبيعي الوحيد المتوقع من الإمام الحسين (ع) .

حاكم المدينة وهو أحد أفراد بني أمية طلب أن يأتوا إليه بالإمام . (طبعاً لا بد من القول إنّ أغلب أفراد بني أمية من العناصر الفاسدة ، لكن هذا الرجل كان يختلف بعض الشيء عن الآخرين) وفي تلك الأثناء كان الإمام في مسجد النبي في المدينة ، وكان إلى جانبه عبد الله بن الزبير .

رسول الحاكم الذي جاء إلى المسجد ، وأبلغ الاثنين استدعاء الحاكم لهما ، عاد من حيث أتى ليُبلّغ سيده أنهما في الطريق إليه .

وفيما هما جالسان يُفكران بسبب الاستدعاء ، سأل عبد الله بن الزبير الإمام قائلاً :

وماذا تظن يكون سبب استدعاء الحاكم لنا في هذا الظرف ؟

فيجيبه الإمام : « أظنُّ أن طاغيَتهم قد هلك . . . » وأنه يطلب منا مبايعة الحاكم الجديد .

فرد عبد الله بن الزبير إن حدسك بمحله ، وأنا أظن كذلك ، فماذا أنت فاعل ؟

فقال الإمام سأذهب إليه ، وماذا تفعل أنت ؟

سأرى . . .

عبد الله بن الزبير ، خرج مع ظلام تلك الليلة ، وفر إلى مكة ، هرباً من لقاء حاكم المدينة ، وتحصّن هناك بالحرم المكي .

أما الإمام عليه السلام فقد ذهب إلى الحاكم ، مصطحباً معه عدداً من شباب بني هاشم ، وقال لهم : انتظروني هنا في الخارج ، فإذا سمعتم صوتي قد علا ، ادخلوا علينا ، وفي غير ذلك لا تدخلوا علينا .

مروان بن الحكم ، حاكم المدينة السابق ، وهو من الأمويين المشهورين بالفساد ، كان حاضراً في المجلس أيضاً[1] . حاكم المدينة استقبل الإمام بقراءة الرسالة العلنية التي وصلته من يزيد ، بشأن خبر موت معاوية .

ولّما أنهى الرسالة قال له الإمام : وماذا تريد مني ؟

فرد عليه الحاكم بلغة لطيفة ، في محاولة منه لكسب ود الإمام ، بأنَّ الناس قد بايعت يزيد الحاكم الجديد ، وأن رأي معاوية كان كذلك أيضاً ، والمصلحة الإسلامية تستدعي مبايعة الجميع . . . ولذا أرجو أن تبايع أنت بدورك فتكون المصلحة الإسلامية قد تحققت بعملك هذا .

ثم أضاف بأنّ أوامر الإمام ستكون مطاعة إن شاء الله ، وأن كل النقائص سيتم رفعها ، وأنّ الأمور ستسير على ما يرام إن شاء الله .

فقال له الإمام : ولماذا أنتم تريدون البيعة مني ؟ هل تريدونها من أجل الناس ؟ فأنتم لا تريدونها من أجل الله قطعاً ! كما أن الموقف الشرعي لا يهمكم

---

(١) لقد حكم هذا الرجل المدينة مدة طويلة وقد عمّر فيها كثيراً . فهناك عين ماء لا زالت تجري مياهها حتى اليوم وهي من أعمال مروان بن الحكم في المدينة .

أيضاً ، فأنتم لستم بفكر شرعية الخلافة ، أو عدم شرعيتها ، حتى لو يدوا مبايعتي مثلاً كي تصبح شرعية ، إنكم تريدون البيعة مني حتى تواجهوا الناس بهذه الحقيقة وتجبروهم على المبايعة ، أليس كذلك ؟

فقال له حاكم المدينة نعم . إنه كذلك .

فقال الإمام : إذاً لا فائدة من بيعتي لكم في هذه الحجرة المغلقة حيث لا أحد يشهد المبايعة سوى نحن الثلاثة .

فرد الحاكم عندها مقتنعاً بقول الإمام ، وموافقا على تأجيلها إلى وقت آخر .

وهنا نهض الإمام مستئذناً بالخروج فوافق الحاكم ، لكن مروان بن الحكم انتبه هنا لحركة الإمام ، فخاطب حاكم المدينة على الفور ، محذراً إياه من عاقبة خروج الحسين دون مبايعة ، وقال له : إن خروجه من هنا دون مبايعة يعني أنه سوف لن يبايع ، ولذا ينبغي عليك تنفيذ تعليمات الخليفة .

فأخذ الإمام مروان بن الحكم من رقبته ، ورفعه إلى الأعلى ، ثم شدّه بقوة نحو الأرض ، وقال له :

إنك أصغر من هذا !!

وخرج الإمام من عند الحاكم دون أن يبايع للخليفة الجديد ، وبقي ثلاثة أيام في المدينة ، كان يذهب خلالها كل ليلة لزيارة قبر النبي (ص) ، ويجلس عند رأس مدفن النبي ، ويدعو ربه قائلاً : ربي افتح لي طريقاً يكون فيه رضاك .

في الليلة الثالثة ، وبينما كان الإمام عند مدفن رأس الرسول (ص) ، وأثناء انشغاله بالدعاء ، والتهجد ، والبكاء ، فإذا به يستسلم إلى النوم ، فيرى النبي الأكرم في عالم الرؤيا ، ويكون هذا الحُلم بالنسبة له بمثابة الوحي ، والإلهام الربّاني القادم إليه ، عبر جده .

ولمّا طلع فجر اليوم التالي غادر عليه السلام المدينة متوجهاً نحو مكة سالكاً الطريق الرئيسية ، وليس الطريق الثانوية .

فجاء بعض أصحابه يعاتبونه على سلوكه لهذه الطريق قائلين له :

يا بن رسول الله ! لو تنكبت الطريق الأعظم ، لكان أفضل لك ، مثلاً ، فقد يواجهك الحاكم بجنده ، أو رجال أمنه في الطريق ، فيُجبروك على الرجوع ، ويسَبّبوا لك المصاعب ، وقد تحصل بعض المواجهات ؟ (ولكن الروح الشجاعة ، والقوية ، والمقتدرة ، لا تقبل بالرضوخ لمثل تلك التعليلات أبداً)

فيقول لهم عليه السلام : إنني لا أُريد أن أظهر بمظهر المتمرد والفار ، ولذلك فإنني أسلك الطريق العام ، وليكن ما يريده الله ويشاؤه ، فرضانا من رضا الله .

على كل حال ، يمكن القول بأنّ القضية الأولى والعامل الأول في الواقعة الحسينية ، وهو العامل الذي لا تردد في صحة سنده التاريخي ، هو عامل البيعة تلك البيعة التي طلبت من الإمام الحسين (ع) ، من قبل يزيد ، وهو ما جاء في النص التاريخي المؤكد ، حيث جاء في رسالة يزيد الخاصة إلى حاكم المدينة :

خُذ الحسين بالبيعة أخذاً شديداً[1] .

لكن الإمام الحسين (ع) قد وقف بشدة أيضاً بوجه هذه المطالب ، فهو لم يكن على استعداد للمبايعة بأي شكل مع يزيد ، وجوابه كان سلبياً ، منذ اللحظة الأولى وحتى الأيام الأخيرة من عمره الشريف ، حيث جاء إليه عمر بن سعد محاولاً مفاوضته بشأن الصلح مع يزيد ، ذلك الصلح الذي كان يعني البيعة دون أية مواربة .

لكن الإمام لم يكن على استعداد أبداً كما أسلفنا ، وكما جاء في خطبته يوم العاشر من محرم ، يبدو واضحاً تماماً ، بأنه ظل مستقيماً وثابتاً في موقفه الذي أعلنه في اليوم الأول عند حاكم المدينة .

---

(١) مقتل الحسين للمقرم ص ١٤٠ .

فكلامه في هذا المجال صريح للغاية حيث يقول في عاشوراء :

« والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ، ولا أقرُّ إقرار العبيد »[1] . أي إنني لن أبايع ، أو أمد يدي لمبايعة يزيد ، تحت كل الظروف ، مهما ساءت ، حتى وإن كانت الظروف المرافقة لقتلي وقتل أحبتي ، وأصحابي ، وأعواني ، وأسر أهلي وعشيرتي .

ومتى برز مثل هذا العامل إلى الوجود ؟ منذ القسم الأخير من عهد معاوية ، إلاّ أنَّ اشتداده ، وفوريته ، لم تبرزا إلا بعد موت معاوية ، وصعود يزيد إلى سدة الخلافة .

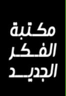
أمّا العامل الثاني : فهو عامل الدعوة ، وربما تكونون قد قرأتم في بعض الكتب عن هذا الموضوع لا سيما في كتب التاريخ المدرسية التي توزع على تلاميذ المدارس في بلادنا هنا ! فهم يكتبون هكذا بأنه ، ومع دخول العام الستين للهجرة فقد مات معاوية ، ثم كتب أهل الكوفة إلى الإمام الحسين يدعونه لقبول منصب الخلافة الذي اختاروه له ، وأن الإمام الحسين توجّه بالفعل إلى الكوفة ، إلاّ أنّ عدم الوفاء والغدر الذي أبداه أهلها تجاه إمامهم ، وعدم معاونتهم له في المهمة ، أدى إلى مقتله !

فعندما يقرأ الإنسان مثل هذا التاريخ ، يُخيّل إليه أنّ الإمام الحسين ليس سوى رجل هادىء كان جالساً في بيته بدعَةٍ واطمئنان ، ولا دخل له بشأن أحدٍ من الناس ، ولا يُفكّر بأي موضوع كان ، وأن الشيء الوحيد الذي حرّكه عن تلك الدعة ، وذلك الاسترخاء ، هو دعوة أهل الكوفة له !

في حين أنّ الإمام الحسين (ع) كان قد بدأ حركته منذ أواخر شهر رجب ، وذلك في أوائل حكومة يزيد ، عندما خرج من المدينة قاصداً مكة ، حيث الحرم الإلهي الأمن الذي يوفر الأمن والفضل ، وبالإضافة إلى الاحترام الكبير الذي يُبديه المسلمون تجاه ذلك المكان المقدس ، الأمر الذي يُجبر أجهزة السلطة على

---

(١) إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٣٥ .



احترام ذلك المكان (وهي الأيام الأولى التي أعقبت موت معاوية ، الخبر الذي ربما لم يكن قد وصلت أصداؤه بعد إلى الكوفة) .

واختيار الإمام لمكة إذاً لم يكن بسبب موقعيتها الأمنية فحسب ، بل بسبب مركزها الاجتماعي - السياسي المهم أيضاً - حيث صادف كل ذلك مع اقتراب مواسم العمرة والحج .

في شهري رجب وشعبان ، حيث أيام العمرة ، يتقاطر الناس من الأطراف والأكناف ، إلى مكة ، فيصبح بالإمكان إرشاد الناس ، ووعظهم ، بنحو أفضل من سائر فصول العام .

ثم بعد ذلك يأتي موسم الحج ، الفرصة مؤاتية أكثر من ذي قبل للتبليغ والدعاية .

بعد مرور حوالي شهرين على مغادرته للمدينة ، وصلت رسائل أهل الكوفة إليه . فرسائل أهل الكوفة وكتبهم لم تصل إلى المدينة ، والحسين (ع) في مقابل ذلك انطلق في حركته الجهادية العامة من المدينة .

إذاً رسائل أهل الكوفة وصلت إلى الإمام وهو في مكة ، أي بعد أن كان قد اتخذ من قبل قراره بالامتناع عن مبايعة يزيد ، وهو القرار الذي كان قد وضع الإمام في المواجهة والخطر .

والإمام نفسه، كان يعرف كما يعرف الجميع بأن السلطة لم تكن على استعداد للتسامح معه بشأن البيعة ، وفي المقابل ، فإنه هو كذلك ، لم يكن على استعداد للتراجع عن موقفه الرافض للبيعة ، ومعنىٰ ذلك أن دعوة أهل الكوفة للإمام ليست العامل الأساس في نهضة الإمام، بل كانت عاملاً ثانوياً، وأكثر ما يمكن القول فيها إن مثل هذه الدعوة قد أعطت للإمام ، وهيأت له ، من ناحية حكم التاريخ والشعب في المستقبل ، ظروفاً مناسبة للاستمرار في النهضة .

لقد كانت الكوفة آنذاك ولاية كبيرة من ولايات الدولة الإسلامية ، ومركز



الجيش الإسلامي[1] . وهذه المدينة التي أسسها عمر بن الخطاب ما هي في الواقع إلاّ مدينة عسكرية ، كان لها تأثير كبير للغاية في مصير البلاد الإسلامية آنذاك ، ولو ظل أهل الكوفة على عهدهم مع الإمام لكان احتمال نجاح نهضته الفوري عليه السلام، كبيراً جداً .

إنّ الكوفة آنذاك لم تكن تُقارن بالمدينة أو مكة ، لا بل وحتىٰ بخراسان ، وإن منافستها الوحيدة هي الشام، وإن الحد الأكثر لتأثير عامل دعوة أهل الكوفة في النهضة الحسينية، تمثّل في شكل النهضة وهيئتها العامة، أي أن ينتقل مركز النهضة إليها بدلاً من أن يبقىٰ في مكة ولكن لا بد من القول إنّ مكة كانت موقعا خطرا ، ولم يكن بالإمكان تحويلها إلى مركز التحرك الحسيني . نعم فقد رفض عليه السلام اقتراح ابن عباس بالذهاب إلى اليمن، والاحتماء بجبالها ، كما ترك مدينة جده وراءه ، وتوجه إلى الكوفة ، كل هذا يعني أن دعوة أهل الكوفة لعبت دور العامل الفرعي في التحرك الحسيني بحيث ينتقل التحرك إلى العراق ، ولم تكن الدعوة عاملاً أساسياً في حصول التحرك والنهضة .

عندما يصل الإمام إلى حدود الكوفة ، يصطدم بجيش الحر بن يزيد الرياحي ، فيقول لأهل الكوفة : بأنكم دعوتموني فإنْ تراجعتم عن دعوتكم عدتُ من حيث أتيت .

ولم يكن معنىٰ هذا أن الإمام كان يقصد بذلك تخلّيه عن التحرك ، والقبول بمبايعة يزيد ، والتخلّي عن كل ما قاله في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وشيوع الفساد ، والواجب المُلقى على عاتق المسلمين في مثل تلك الظروف ، وبالتالي الجلوس في البيت ، والسكوت عن كل تلك المنكرات .

أبداً ، فالإمام كان رأيه واضحاً ، فالحكومة غير صالحة ، والواجب يتطلب مناهضتها ، ولمّا كان أهل الكوفة قد دعوه لينتقل في التحرك إلى الكوفة ، فلا بد له من الذهاب إليها . فأهل الكوفة قالوا : بنصرة الحسين ! وإنهم

---

(١) كان هناك مركزان للقوة في الدولة الإسلامية آنذاك هما : الكوفة والشام .

مستعدون لدعمه ومساعدته ، في تحركه المناهض للبيعة ليزيد ، والمطالب بالعمل بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أي دعوة لنصرة معارضته ، ونهضته ، وثورته .

ولذا فإن الإمام جاء إلى من أعلنوا النصرة ، ووعدوه بها ، فإن هم تراجعوا عنها ، فإنه سيعود إلى مركزه الأصلي ، أي إلى المدينة ، والحجاز ، أو مكة ، وليفعل الله ما يشاء بمستقبل النهضة .

فعلى أي حال ليس هناك أي مجال للبيعة مع يزيد ، حتى وإن أدى ذلك إلى القتل .

وعليه يمكن القول بأنّ الحد الأكثر لتأثير هذا العامل ، أي دعوة أهل الكوفة ، هو سحبهم للإمام من مكة نحو الكوفة .

بالطبع لا أريد القول هنا إنه : لو حصل فعلاً ، بأن أهل الكوفة لم يدعوا الإمام إليهم ، لكان الإمام قد بقي حتماً في المدينة ، أو مكة ، أبداً ، فالتاريخ يبين لنا أنّ كلا هاتين المنطقتين ، كانتا موضع إشكال وخطر على الإمام ؛ فمكة مثلاً ، لم يكن وضعها في الظاهر يساعد على بقاء الإمام فيها ، وبالتالي لم يكن وضعها بأفضل من وضع الكوفة ، والشواهد التاريخية تثبت أنه فيما لو بقي الإمام فيها فإن خطة أهل الحكم كانت تقضي بالقضاء على الإمام في حالة إصراره على عدم البيعة .

والمسألة لا تقتصر على نقل « الطُريحي » وحده ، بل إنّ الآخرين ينقلون مثل هذا النقل أيضاً ، ويقولون بأنّ الإمام نفسه ، قد انتبه إلى أن بقاءه في مكة ، في أيام الحج ، كان يعني وقوعه فريسة المخطط الأموي الذي كان يُخطط لقتله ، وهو في حالة الإحرام ، أثناء أدائه لمناسك الحج ، وإنّ هذا كان يعني أنّ زبانية بني أمية كانوا سيهدرون دمه ، ويهتكون بذلك حرمة بيت الله الحرام في الكعبة .

وبذلك يكون هتك الحج والإسلام ، وسيكون الهتك مزدوجاً حيث :

أولاً : كان سيُقتل ابن النبي ، وهو في حالة العبادة في حرم بيت الله الآمن .

ثانياً : سيذهب دمه عليه السلام هدراً .

ثم يشيعون بعد ذلك بأنّ خلافاً ما قد وقع بين الإمام وأحد أفراد المجتمع !! وهذا الرجل بدوره قد قتل الإمام ، واختفى نفسه عن وجه العدالة ، وبالتالي يكون دم الإمام قد ذهب هدراً .

ويشير الإمام الحسين (ع) نفسه في أقواله ، إلى مثل هذه الظروف ، وذلك عندما يسأله أحدهم ، وهو في الطريق إلى العراق ، خارجاً من مكة ، عن السبب في مثل هذا الخروج ؟ ذلك السؤال الذي كان يتضمن التعجب لترك الإمام المدينة حيث قبر جده النبي (ص) ، ومكة البيت الحرام الامن ، وتعريض نفسه للخطر بالتوجه إلى العراق .

لكن الإمام يوضح للسائل جيداً قائلاً له : بأنهم ـ أي جلاوزة السلطة ـ يبحثون عني ، حتى وإن اختفيت في ثقب حيوان ، ولن يهدأ لهم بال قبل أن يروا دمي ينزف أمامهم ، ويضيف : بأن خلافه مع هؤلاء خلاف لا يقبل المهادنة والحلول الوسط ، وأنهم يريدون منه ما لا يستطيع الرضوخ لمثله ، وهو يُريد ما لن يقبلوه منه أبداً .

العامل الثالث للنهضة الحسينية هو عامل الأمر بالمعروف ، وهذا بدوره يبرز في نص كلام الإمام ، وفي هذا الشأن يذكر لنا التاريخ بأن محمد بن الحنفية ، وهو شقيق الإمام الحسين (ع) ، كان في تلك الأيام قد أصيب بشلل في يديه ، وأنه أصبح غير قادر على الجهاد ، ولذا فإنّ الحسين (ع) يتركه وراءه ، ويكتب له كتاباً يوصيه قائلاً : « هذا ما أوصى به الحسين بن علي أخاهُ محمداً المعروف بابن الحنفية » .

وهنا نرى الإمام يقسم بوحدانية الله ، ورسالة النبي (ذلك أن الإمام يعرف بأنّ البعض سيُشيع حوله بأنه قد خرج من دين جده) ، ويمضي في حديثه حتى يصل إلى الحديث عن السبب الكامن وراء نهضته فيقول :

« إني ما خرجتُ أشراً ، ولا بطراً ، ولا مُفسداً ، ولا ظالماً ، إنما خرجتُ لِطَلب الإصلاح في أمةِ جدي ، أُريد أن آمر بالمعروف ، وأنهى عن المنكر ،

واسير بسيرة جدي . وأبي علي بن أبي طالب »[1]

حيث ترون أنّ المسألة ليست مسألة دعوة أهل الكوفة ، بل وليست كذلك الامتناع عن البيعة ، يعني أنّ الأمر كان يتعدىٰ طلب البيعة منه وامتناعه عليه السلام عن المبايعة ، ومعنىٰ ذلك أنهم حتى لو لم يطلبوا منه البيعة لم يكن ليهدأ أو يسكت على ما كان يجري . وليعرف العالم : ... « ما خرجت أشراً ولا بطراً » ...

فالحسين بن علي لم يكن يطلب الجاه ، ولا السلطان ، أو الثروة ، ولم يكن كذلك رجلاً مُفسداً ، أو مُخلاً بالأمن والنظام ، أو ظالماً ، بل إنّه ذلك الإنسان المُصلح الذي يُريد الإصلاح في أمة جده ..

« الا وإنّ الدعيَّ بن الدعيِّ ، قد رَكَّز بين اثنتين ؛ بين السِّلة والذِّلة ، وهيهاتَ منّا الذلة ! يأبىٰ الله ذلك لنا ، ورسوله ، والمؤمنون ، وحجورٌ طابت وطَهُرتْ »[2] .

إنّ هذه الروح ظلّت تتجلىٰ في وجود الحسين بن علي ، وشخصيته المقدسة ، منذ اليوم الأول حتىٰ اللحظات الأخيرة من عمره ، ولم يكن بالإمكان أن تُفارق الإمام أو تنفصل عنه .

ففي اللحظات الأخيرة من حياته الشريفة، كان أبو عبد الله الحسين (ع)، وهو في تلك الحفرة القاتلة،حيث قد فقد القدرة على الحركة،والقدرة على محاربة العدو ، والقدرة على الوقوف على رجليه ، يتجلّى عزةً ، ويمتلىء حديثه غيرةً ، ويتعاظم وجوده ويتألق كبرياءً وجلالاً ، لقد كان الجُند يُريدون قطع رأسه عن بدنه ، لكن الشجاعة والهيبة اللتين خبروهما تماماً تمنعانهم من ذلك .

كان البعض يقول : عسىٰ أن لا يكون الحسين قد ابتدع حيلةً حربية جديدة ، حتى يستطيع الإغارة على كل من يحمل عليه ، ويُنهي مقاومته أمامه ،

---

(١) مقتل الحسين للخوارزمي ج ١ ص ١٨٨ .

(٢) تحف العقول ص ٢٤١ .

فيبدأون بالتخطيط لعمل دنيء وجبان يتلخص : بالهجوم على خيامه ، زاعمين أنه سوف لن يتمكن من الدفاع عن الحرم ، وفعلاً يُهاجم الجند خيام حرم الإمام ، فيرتفع صوت أحدهم في هذه الأثناء صارخاً :

وهل أنت حيٌ يا حسين ؟! إنهم هاجموا خيم الحرم !

وهنا ينهض الإمام بقوة ، ولكن بصعوبة على ركبتيه ، ثم يسند قسمه العلوي على حربته ويُنادي عالياً :

« ويلكم يا شيعة آل أبي سفيان ! إن لم يكن لكم دين ، ولا تخافون المعاد ، فكونوا أحراراً في دنياكم »[1] .

فيردّ عليه أحدهم : ما تقول يا بن فاطمة ؟

فيرُدُّ عليه الإمام قائلاً : « أنا أقاتلكم ، وأنتم تقاتلونني ، والنساء ليس عليهِنَّ جُناح » .

نعم فهذا بدن الحسين أمامكم ، مزّقوه ما استطعتم بالسيوف والحراب ، لكن روح الحُسين الحية لا تقبل أن يقترب أحدكم من خيام حرمه . . .

ولا حولا ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم،
وصلى الله على محمدٍ وآله الطاهرين .

* * *

---

(١) اللهوف ص ٥٠ .

المحاضرة الثانية

قيمة كل عامل من العوامل

بسم الله الرحمن الرحيم(*)

الحمد لله رب العالمين ، بارىء الخلائق أجمعين ، والصلاة والسلام على عبد الله ، ورسوله ، وحبيبه ، وصفيه ، سيّدنا ونبينا ومولانا ، أبي القاسم محمد ، وآله الطيبين ، الطاهرين ، المعصومين . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

﴿ إن الله اشترى مِنَ المؤمِنِينَ أَنْفُسَهُم ، وأموالَهُم ، بأنّ لهم الجَنّة يُقاتلونَ في سبيلِ الله ، فيَقتلونَ وَيُقتَلُونَ ، وَعداً عَلَيه حَقّاً في التوراة ، والإنجيل ، والقرآنَ ، ومَنْ أوْفى بِعَهدِهِ مِنَ الله ، فَاسْتَبْشِروا بِبَيْعِكم الذي بايَعْتُم به ، وذلك هُوَ الفَوْزُ العظيم * التّائبونَ ، العابِدُونَ ، الحامِدُونَ ، السّائحونَ ، الراكِعُونَ ، السّاجدونَ ، الآمرون بالمعروفِ ، والنّاهونَ عَنِ المُنكرِ ، والحَافِظُونَ لِحدودِ الله وَبَشّر المؤمنينَ ﴾[1] .

هناك ثلاثة عناصر أساسية ، تُشكّل الهيئة العامة لبناء النهضة الحسينية المقدسة ، أي إنه يمكن القول إنّ عوامل ثلاثة بشكل عام هي التي أثرت وطبعت الهيكل العام لتلك الواقعة الكبرى .

(*) ألقيت هذه المحاضرة بتاريخ ٧ محرم ١٣٩٠ هـ .

(١) سورة التوبة : الآيتان ١١١، ١١٢ .

أوّلها طلب يزيد بن معاوية ، بعد موت أبيه فوراً ، من عُمّاله فرض البيعة الإلزامية على الحسين بن علي (ع) ، وامتناع الإمام في المقابل عن تلبية مثل هذا تطلب .

فقد كانت السلطة مُصرّة على طرح مطلبها القاضي بأخذ البيعة مهما كلّف الثمن ، وغير مستعدة للتراجع عن مطلبها تحت كل الظروف ، بينما في المقابل فان الإمام يُعارض بشدة الرضوخ لمثل هذه البيعة ، وغير مستعد للاستسلام تحت كل الظروف ، ومن هنا كان ابتداء التضاد والنضال الشديدين بين الطرفين .

العامل الثاني المؤثر في هذه النهضة ، والذي ينبغي وضعه في الدرجة الثانية ، بل وحتى في الدرجة الثالثة من الأهمية ، هو : دعوة أهل الكوفة للإمام للقدوم إليهم ولكن متىْ ؟ بعد أنْ يصبح في موقع المُطالَب بتقديم البيعة ليزيد ، وامتناعه عن الرضوخ ، الأمر الذي يؤدي به كما هو معروف إلى الهجرة إلى مكة ، والإقامة فيها حوالي الشهرين ، ومن ثم وصول أخبار تحركاته هذه إلى أهل الكوفة .

وهنا يتداعى أهل الكوفة إلى الاجتماع ، ويتخذون قرارهم المعروف بدعوة الإمام للتوجه نحوهم

وهذا عكس ما نسمع به في الغالب أو نقرأه في كتبنا المدرسية بشكل خاص .

دعوة أهل الكوفة ليست هي السبب في تكوّن النهضة ، بل إنّ نهضة الإمام هي التي أوجدت أو سببت أن يقدم أهل الكوفة دعوتهم للإمام ، فلم تأتِ حركة الإمام من بعد وصول دعوة أهل الكوفة إليه ، بل إنّ الواقع يقول بأنّه ، وبعد ما شرع الامام في تحركه ، وأظهر معارضته ، سمع أهل الكوفة بقيام الإمام وتحركه . ولما كانت الظروف عندهم مُهيأة نسبياً ، تداعى أهل البلد للاجتماع ، وقرروا الكتابة للإمام ودعوته .

العامل الثالث هو عامل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وهذا العامل يذكره الإمام بنفسه مُكرراً ، وبصراحة تامة ، دون أن يأتي على ذكر مسألة

البيعة ، ولا على دعوة أهل الكوفة وذلك بمثابة مبدأ مستقل وعامل أساسي يمكن الاستناد إليه .

إنّ هذه العوامل الثلاثة ليست متساوية من ناحية قيمتها ، ودرجة أهميتها ، وإنّ كل واحد منها يُعطي أهمية لنهضة الإمام بدرجة معينة .

فعامل دعوة أهل الكوفة مثلاً لا يُشكّل إلاّ عاملاً ثانوياً ، ذا قيمة بسيطة جداً ، وعادية للغاية ، (بالطبع المقصود بالتأثير العادي والبسيط هنا إنما يأتي بالمقارنة مع أعمال الإمام وليس بمستوى أعمالنا) ، ذلك أنه بموجب هذا العامل ، فإنّ من أعلن استعداده لنصرة الإمام ، من أمة الإسلام آنذاك ، لم يكونوا يشكّلون سوى ولاية واحدة .

وحسب القاعدة المنطقية فإن احتمال تحقق الانتصار لم يكن يتجاوز في حده الأعلى أكثر من ٥٠٪ ، ولم يكن أحدٌ يحتمل نسبةً أكثر من تلك النسبة .

فبعد دعوة أهل الكوفة الإمام للقدوم إليهم ، ولنفرض أنهم كانوا على أتمّ الاتفاق فيما بينهم ، وأنهم كانوا سيظلون على عهدهم له بالنصرة ، ولم يخونوا ، ولم ينكثوا عهودهم معه ، فهل كان بإمكان أحدٍ القول بأن انتصار الإمام أمر محقق ومؤكد مائة بالمائة ؟ طبعاً ، لا ، فالأمة كل الأمة لم تكن محصورة بأهل الكوفة ، يكفي أن نأخذ أهل الشام بعين الاعتبار ، وهم الذين يقفون مع آل أبي سفيان بالتأكيد حتى تتدنى نسبة نجاح النهضة إلى النصف .

ولذلك نرى أنّ أهل الشام هؤلاء قد وقفوا في عهد خلافة أمير المؤمنين موقف المحارب والمعادي لأهل الكوفة ، وواجهوهم في صفين ، واستطاعوا مقاتلتهم ثمانية عشر شهراً استبسلوا خلالها ، وقدموا من القتلى الكثير دون ذلك الموقف .

ولكن في كل الأحوال فإن احتمال النجاح كان يُشكّل ٤٠٪أو٣٠٪ أنْ يُعبّر الناس عن استعدادهم لتقديم العون والنصرة،ويستجيب الإمام لتلك الدعوة أمرٌ يمكن اعتباره حداً معيّناً من حدود القيمة ، وهو الحد العادي . أي إنّ كثيراً من الناس العاديين يقفون مثل هذا الموقف عندما تواجههم مثل تلك الظروف .

لكن عاملاً مثل عامل البيعة من الإمام ، وامتناع الإمام في المقابل ، وهو العامل الذي برز إلى الوجود منذ الأيام الأولى ، يمنح النهضة الحسينية قيمةً أكبر من عامل دعوة أهل الكوفة ، وذلك من حيث إنها الأيام الأولى ، وفي الوقت الذي لم يكن قد أُعلن عن موقف النصرة والمساعدة ، ولم يكن هناك دعوة ، ولاالتزام بالعهود والمواثيق .

فالوقت كان وقت تسلُّط حكومة متجبرة ، وقمعية ظالمة . حكومة تمادت في ظلمها ، وقسوتها ، ووصل قمعها حده الأعلى في عهد معاوية ، لا سيما العقد الأخير من حكومته وسلطانه . . .

نعم فمعاوية كان قد أوصل الأمور إلى الحد الذي صارت فيه المدينة الطيبة ، ومكة المكرمة ، تلعن علي بن أبي طالب من على منابرها ، في يوم الجمعة ، وتعتبر ذلك عملاً عبادياً ، وتفتخر به على رؤوس الأشهاد ، وكل من كان يعترض كان يُعرِّض حياته للخطر ، بل إن رأسه كان يَطير قبل أن يتحسس رد الفعل على معارضته . . .

فعندما كانوا يُريدون الحديث عن علي بن أبي طالب ، كانوا يأتون على ذكره بالإشارة والواسطة ، بل إن الأمر كان قد وصل إلى حدّ أنّ من كان يُريد نقل رواية ، أو حديث ما ، أوله صلة ما بعلي ، أو أنْ يكون قد تخلله ذكر فضيلة لعلي ، وإن كانت أقل ما يكون ، فإن المحدِّثين والرواة كانوا يقبعون في صناديق خاصة ، عبارة عن خلوات منعزلة تماماً ، وبعد ذلك يبدأون بتحليف بعضهم البعض ، والقسم جميعاً على عدم نقل هذه الرواية في اي مكان آخر ، قبل أن يتأكدوا من أنّ الطرف المقابل من الأفراد القابلين للاعتماد ، والثقة ، وغير المُفشين لأسرارهم ، وأن يكون من صنف الرواة .

في مثل تلك الظروف الصعبة يصبح ولي عهد هذا الرجل هو الخليفة رايّ خليفة ا شابٌ متهوّر ، أكثر غروراً من أبيه ، وأكثر منه سفكاً للدماء ، وجاهل بألف باء السياسة ، ولا يملك حتىٰ الشم السياسي العادي ، أو أصول الدبلوماسية المعهودة .

وفي مواجهة مثل هذه الحالة يصبح قول «لا» عملاً استثنائياً (فالمطلوب المبايعة بأية صورة كانت ! ولكن في المقابل يأتي الرد : « لن أبايع حتى ولو قطعتم وجودي إربا إربا فنحن هنا نرى الإمام وقد وقف وحده ، أي بشخصه وذاته فقط ، أمام المطالب غير المشروعة لتلك القوة الجبارة القمعية جداً قبل أن يَرد إليه حتى ذكر الأنصار ، أو الأعوان ، واحتمال نجاحه لم يكن يتجاوز العشرة بالمائة ، ومع كل ذلك تراه ليس مستعداً للتنازل عن رأيه وعقيدته ، والتظاهر بعكس ما يؤمن به ، ذلك أن التاريخ سوف لن يسجل بأن الحسين قد بايع تحت الضغط والإجبار .

نعم فهؤلاء الذين يأخذون البيعة بالإجبار يصنعون التاريخ أيضاً بقوة المال ، وهو ما قاموا به بالفعل .

فمعاوية وحاشيته كانوا قد استمروا في الواقع قسماً من بيت مال المسلمين في شراء ذمم الوعّاظ ورجال الدين ، فكانوا يشترون الرواة الفاسدين الذين لا إيمان ، ولا عقيدة لهم ، بقوة المال ، ليزوّروا أحاديث النبي ، ويُغيّروا الأسماء الواردة فيها أحياناً ، أو يضعوا أحاديث في مدح أعداء علي .

فالتاريخ يؤكد مثلاً أن سمرة بن جندب قد أخذ ثمانية آلاف مثقال من الذهب ، مقابل وضع حديث ضد علي بن أبي طالب .

وعليه فإن تغيير التاريخ ، ومسخه ، لم يكن عملاً شاقاً ، وصعباً ، بالنسبة لأمثال هؤلاء ، وإن كان قسم من التاريخ قد بقي نقياً دون شوائب فإن هذا يعود للأعمال والحركات المشابهة للنهضة الحسينية ، وإلاّ فإنّ سكوت الحسين عليه السلام ، كان يعني تغيير التاريخ أيضاً ، وقلب صورته تماماً .

ولذلك يمكن القول بأنّ هذا العامل يُعطي قيمة أرفع ودرجة أعلى لنهضة أبي عبد الله عليه السلام من درجة عامل دعوة أهل الكوفة للإمام .

أما العامل الثالث : فهو عامل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وهو العامل الذي يستند إليه أبو عبد الله الحسين بصراحة ، قولاً وعملاً ، فتراه عليه السلام يبني أساس نهضته وقيامه على أحاديث النبي (ص) ، والأهداف المعلنة لنهضته ، والتي يذكر فيها مراراً بالنص مسألة الأمر بالمعروف ، والنهي عن

المنكر ، ودون أن يأتي على ذكر البيعة ، أو دعوة أهل الكوفة وكتابتهم الكتب إليه .

إنّ هذا العامل في الواقع يمنح النهضة الحسينية قيمةً أعلى بكثير مما يمنحه إياها العاملان الآخران ، فاستناداً إلى هذا العامل استطاعت هذه النهضة أن تكون جديرة بالخلود ، والحياة ، وأن تكون الثورة المُعلّمة .

بالطبع فإن العوامل كلها كانت تحمل في طياتها الدروس والعبر ، لكن هذا العامل كان له الأثر التعليمي الأكبر ، لأنه لم يكن يستند إلى الدعوة ، أو الكتب والرسائل ، ولا إلى طلب البيعة ، أي إنّه حتى وإن لم يُكتب إلى الإمام فإنّ الحسين بن علي (ع) كان سيقوّم استناداً إلى قانون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأنّه لو لم تُطلب منه البيعة ، فلم يكن بقادرٍ على السكوت ، فالأمر مختلف ، ولا يمكن تحمل السكوت عنه .

فعلى أساس العامل الأول ، فإنه نظراً لدعوة أهل الكوفة ، وأرضية الانتصار التي تكونت نتيجة ذلك بنسبة ٥٠٪ أو أقل ، فإنّ الإمام يبدأ بالتحرك ، أي إنه فيما لو افترضنا ، أن هذا العامل هو العامل الوحيد الذي كان سبباً في انطلاقة النهضة الحسينية وتبلورها ، فإنّ ذلك يعني أنه في خيال عدم حصول مثل هذه الدعوة فإن الحسين (ع) لم يكن في وارد التحرك .

وأما على أساس العامل الثاني ، فإنه نظراً لأن السلطة طالبت الإمام بالبيعة فواجهها الإمام برفض البيعة والتحرك ، أي إنّه لو كان سبب التحرك هذا وحده ، فإنه يمكن القول بأنّ عدم مطالبة حكومة ذلك العصر بالبيعة من الحسين (ع) ، فإن ذلك كان يعني بأنّ الإمام لم يكن في وارد الاصطدام بتلك الحكومة ، وبالتالي فإن النظر إلى حركة الإمام من زاوية هذا العامل وحده ، كان يكفي عدم مطالبة الإمام بالبيعة ، حتى ينتفي التحرك الحسيني ، ويهدأ بال الحسين (ع) ، ولا يحصل كل ما حصل في التاريخ بتاتاً .

في مقابل ذلك فإنّ الحسين (ع) ، من زاوية العامل الثالث ، رجل متمرد ، وناقد ، رجل معارضة ، بل رجل ثورة ، وقيام ، وهو رجل إيجابي فاعل في الأحداث .

وهل هناك حاجة إلى سبب آخر ، بعد هذا السبب ! فالفساد قد عمّ في البلاد ، وحلال الله صار حراماً ، وحرامه حلالاً ، وبيت مال المسلمين صار بأيدٍ غير امينة ، والثروات والأموال تُصرفُ في غير رضا الله وسبيله .

وها هو الرسول الأكرم محمد (ص) يقول :

« من رأى سلطاناً جائراً ، مستحلاً لحرم الله ، ناكثاً لعهد الله ، مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان ، فلم يُغير عليه بفعل ، ولا قول كان حقاً على الله أن يُدخله مدخله . . . »[1] .

وعليه فالحُسين هنا يستند إلى جده النبي في تحركه المناهض ليزيد ، وقول جده واضح لا لبس فيه ، فكل من يعلم ،ويفهم ويشعر ، ويُدرك ، عليه أن يقوم وينهض ضد حكم الطاغية آنذاك ، وإلاّ فإنّ مصيره سيكون مشتركا مع مصير مجتمع المذنبين .

وهذا الحديث النبوي ليس الوحيد في هذا المجال فهناك أحاديث كثيرة يمكن الاستناد إليها في هذا المجال .

فقد جاء في الحديث الشريف ، عن الإمام الرضا عليه السلام ، عن جده النبي الأكرم (ص) أنه قال : « إذا تواكلت الناس الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فليأذنوا بوقاع من الله »[2] .

وأي عذاب ينتظر مثل هؤلاء الناس الذين يتركون هذا الواجب الإلهي ؟هل سيأتيهم حجرٌ من السماء ؟ لا إنّه العذاب الإلهي الذي يشرحه الحق تعالى في الآية الكريمة التالية : ﴿ قُلْ هُوَ القادر على أن يبعث عليكُم عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أو مِنْ تَحت أرجُلِكُمْ ، أو يَلْبِسَكُم شِيعاً ، ويُذيقَ بعضكم بأس بعضٍ ﴾[3] .

وكما جاء في تفسير أهل البيت لهذه الآية الكريمة فإنّ عذاب « من

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٠٤ .

(٢) فروع الكافي ج ٥ ص ٥٩ .

(٣) سورة الانعام الايه ٦٥

فوقكم » يقصد فيه الحق تعالى العذاب المتأتي من الحكام والمتسلطين ، أو الطبقات الفوقية للمجتمع .

وأمّا عذاب « تحت أرجلكم » فالمقصود يصبح ذلك العذاب المتأتي من الطبقات الدونية في المجتمع . والنبي الأكرم (ص) يقول هنا بأنّه إذا ما ترك الناس الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فليتنظروا إذاً العذاب الإلهي .

وهناك حديث آخر للرسول الأكرم (ص) ، ينقله علماء الشيعة في كتبهم المعتبرة ، مثل « أصول الكافي » ، كما يذكره أهل السنة في كتب حديثهم حيث يمكن قراءته في سند الغزالي في « إحياء العلوم » ، يقول رسول الله (ص) :

« لَتَأمُرُنَّ بالمعروف ، ولَتَنْهُنَّ عن المنكر ، أو يُسلِّطَنَّ الله عليكم شِرارَكم ، فيدعو خيارُكم فلا يستجاب لَهُم »[1] .

التفسير المعروف والمتداول للحديث السالف الذكر يُفيد : بأنّه وبعد تسلُّط أشراركم على مقاليد الأمور في المجتمع ، فإنّ خياركم ، ومهما تضرعوا إلى الله ، ودعوه لإنزال الرحمة على العباد ، فإنّ دعاءهم ذلك لن يُستجاب له ، أي إنّ المجتمع الذي يترك وظيفة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فإنّ الله سبحانه وتعالى سيسلب عنه رحمته ، ومعنى ذلك أنهم مهما دعوا الله ليستجيب لهم دعاءهم ، فإنه لن يفعل ذلك بسبب ذلك الذنب الذي اقترفوه ، بترك شرارهم يتسلطون عليهم .

لكن الغزالي يرى غير ما يراه أغلب المُفسرين إذ يقول في تفسيره اللطيف لهذه الرواية (رغم أن الغزالي رجل درويش (صوفي) لا يبرز اسمه في بحوث المسائل الاجتماعية) ما مضمونه :

إنّ معنى الحديث المذكور : ﴿ فَيَدعُوا خيارُكم فَلاَ يُستجاب لهم ﴾ ليس أنهم كلما يدعون الله ، فإنّ لا يستجيب لهم ، بل إنّ معنى الرواية الشريفة هنا يُفيد : إنه عندما يترك الناس الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فإنهم

---

(١) فروع الكافي ج ٤ ص ٥٦ .

سيصبحون مُنحطين ، ومرعوبين ، وأذلّاء ، وخنوعين ، إلى درجة أنهم عندما يذهبون ليستجدوا الرحمة ، أو المطالب من الظلمة ، بالوقوف على أعتابهم ، فإن هؤلاء الظلمة سوف لن يُعيروهم أي اهتمام ، أي إنّ الرسول الأكرم (ص) يقول : بأنكم إذا ما أردتم العزة ، واحترام الغير لكم ، فعليكم عدم ترك وظيفة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر !

فغياب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، من بين صفوفكم ، أمرٌ ملازمٌ لضعفكم وانحطاطكم وذلّكم ، ومن ثم فإن العدو سوف لن يحسب لكم أي حساب ، وسعياملكم معاملة الرقيق والعبيد ، ولن يُلبي لكم أي مطلب مهما التمستموه .

وهذا تفسير لطيف للغاية ، وهو ينسجم ويتناسق مع المبادىء المؤكلة في الإسلام ، وأبو عبد الله الحسين (ع) إنما يستند إلى مثل هذه الأصول والمبادىء ، عندما يُبينّ للأمة مبادىء تحركه ويشرحها .

ولذا نرى أن مضمون خطاباته تُصرّح بأنه عليه السلام كان سيتحرك ضد السلطان الغاشم ، حتى ولو لم يدعُه أهل الكوفة إليهم ، أو لو لم تُطالبه السلطات بمبايعة يزيد ، لأنّ مبدأ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، هو الذي يمنع سكوته ، وقبوله ، بالظلم والفساد .

المطلوب أن نتوسع في البحث حول هذا المبدأ ، ونحن بحاجة في الأساس إلى معرفة هذا المبدأ جيداً ، وهو المبدأ الذي يؤكد عليه نبي الإسلام كل هذا التأكيد .

وهذا الأصل والمبدأ الإسلامي يرد ذكره في القرآن الكريم كثيراً حتى إننا نستطيع إدراك اهمية هذا المبدأ من دون العودة إلى موارد ذكره في الأحاديث النبوية ، أو أحاديث الأئمة الأطهار ، بالإضافة إلى كتب الفقه الإسلامي ، على امتداد تاريخ الإسلام ،حيث خُصّص البحث حوله بباب فقهي مستقل ، أطلق عليه باب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .[1]

---

(١) أي إنه كما يوجد لدينا كتاب الزكاة ، وكتاب الصيام ، وكتاب الحج ، وكتاب الجهاد ، في باب



نعم فالاستناد إلى القرآن الكريم وحده يكفينا لفهم مدى تأكيد الإسلام على هذا المبدأ الإلهي العظيم ، وكيف أن الله سبحانه وتعالى يورد في كتابه الكريم ، في أماكن عديدة ، حديث الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ويعتبر أن سبب تعاسة وفشل الأمم السابقة يعود في الواقع إلى تركهم لهذه الفريضة ، كما ورد في ذكره تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ القُرُونِ مِنْ قَبْلِكُم أُولُو بَقِيَّةٍ ، ينهون عن الفساد ﴾[1] .

أو في قوله تعالى : ﴿ كانوا لا يتناهون عن مُنكرٍ فعلوه ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[2] أو كما ورد في ذكره تعالى ، وهو يخاطب المسلمين ، ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخير وَيَأمرونَ بالمعرُوفِ ، وينهونَ عن المُنكر ، وأولَئِكَ هُم المُفْلِحُونَ ﴾[3] ، أي إن المطلوب من المسلمين قيام « أمّة » منهم ، أي جماعة منهم ، تكون مهمتها الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر [هذا في حال تفسير (مِن) بـ (مِن) التبعيضية] .

وأمّا في غير ذلك ، فيصبح من واجب الجميع القيام بهذه المهمة .

وفي كلا التفسيرين فإنّ المعنى الأساسي واحد ولا تناقض بينهما إذ إنّ واجب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، واجب ووظيفة عمومية للمسلمين ، كما أنه واجب فئة خاصة من الناس ، تتميز عن العامة ، في سرعة إدراكها ، أو التزامها بمبادئه وتعاليم الإسلام ، أكثر من غيرها مثلاً .

إنّه لينبغي أنْ تخرج من بينكم مثل هذه الجماعة ، أو ان تكونوا أنتم جميعاً أمةً واجبها الدعوة إلى الخير ـ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ـ وأولئك هم المفلحون . ومثل هذه الأمة الداعية إلى الخير ، والآمرة بالمعروف ، والناهية عن

= العبادات ، وكتاب البيع ، وكتاب الإجارة ، في المعاملات . أو كتاب الطلاق ، وكتاب الإرث ، وكتاب الديّات ، وكتاب الحدود والقصاص . . . فإن لدينا أيضاً كتاباً في الفقه يسمى بكتاب (أي باب) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

(١) سورة هود : الآية ١١٦ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٧٩ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٠٤ .

المنكر ، يمكن لها فقط أن تكون نهايتها وعاقبتها ، الحياة السعيدة ، وصلاح دنياها وآخرتها ، وفلاح أعمالها .

في سورة (آل عمران) تتكرر الآيات الخاصة بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، كثيراً ، والآية التي أوردناها سالفاً تأتي بعد هذه الآية الكريمة التالية : ﴿ واعْتَصِموا بِحَبْلِ الله جَميعاً وَلاَ تَفَرَّقوا ﴾[1] ، والآية هنا واضحة في دعوتها الناس إلى الوحدة والاتحاد ، والابتعاد عن الفرقة والتفرق ، فهي تدعو المسلمين إلى حل الاختلافات الحاصلة فيما بينهم ، ومنع توسيع الشقة فيما بين صفوفهم .

نعم فمن هو المستفيد حقاً من اتساع شقة الخلاف الحاصلة يوماً بعد يوم بين المسلمين ؟ وهل هناك أحد يستفيد من هذا الخلاف غير عدو الإسلام ؟ وماذا يريد منّا العدو ؟

ألا يريدنا أنْ نتصارع ، ونحارب بعضنا ، ويسب بعضنا البعض الآخر تحت يافطات وأسماء مذهبية وفئوية مختلفة ؟!

وها هو القرآن الكريم يدعونا بالمقابل إلى الابتعاد عن التفرقة ، ثم يقول : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعونَ إلى الخير . . . ﴾ وكأنه يُريد تعالى بـ «الخير» هنا معنى الاتحاد ، أيْ أن تكون بينكم أمة تدعو المسلمين دائماً إلى الوحدة والاتحاد ، وأن تحارب الفرقة والتفرّق المنتشر بين المسلمين .

ثم يقول سبحانه وتعالى عقب هذه الآية في آية أخرى : ﴿ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقوا واختلفوا ﴾[2] .

وأقول هنا أليس عجيباً أن تتوسط آية : ﴿ ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف . . . ﴾ آيتين من آيات الدعوة إلى الوحدة ، والابتعاد عن الفرقة والخلاف ؟!

نعم فهذا التناغم والتناسق في الآيات الكريمة يأتي وكأنه يُراد من ورائه

---

(1) سورة آل عمران : الآية١٠٣ .

(2) سورة آل عمران : الآية ١٠٥ .

القول بأن الخير كل الخير ، بل وأم الخير ، في أعمال المسلمين ، إنما يكمن في حسن التفاهم ، والوحدة ، والاتفاق ، وهو مبدأ كل الخير . بينما يبدو أن المنكر كل المنكر ، بل وأبو المنكرات والمساوىء جميعاً ، هو الاختلاف والتفرقة تحت أي عنوان ، أو أي اسم حصل ذلك الاختلاف ، أو وقعت تلك التفرقة .

هناك آية قرآنية أخرى ، يقول فيها تعالى : ﴿ كُنتُم خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجت للناس . . ﴾ ، أي يا أيها المسلمون ! ليس هناك أمة ، ولا ملة ظهرت على سطح هذه البسيطة ، أفضل منكم . فلماذا ؟ وما هي خصوصية تلك الأمة ؟ ﴿ . . تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ﴾[1] .

ومن هنا لا بد لنا أن نستنتج المفهوم النقيض لهذا المفهوم المطروح ، كما يقول المنطقيون أي : نحن لسنا بأمة الإسلام ، ولسنا بأفضل الأمم للبشرية ، لأننا لسنا نأمر بالمعروف ، ولا ننهي عن المنكر ، وبالتالي فإننا لا نستطيع ادعاء الرفعة ، والعزة ، والشرف ، ولا يمكننا أن نتباهى بما عندنا ، فإسلامنا ليس ذلك الإسلام الواقعي .

الحقيقة أننا إذا ما أردنا البحث حول موضوع أهمية ، وعظمة هذا المبدأ الإسلامي ، من وجهة نظر القرآن ، والسنة ، والحديث ، وما ورد عن هذا الموضوع ، فإن لدينا كثيراً من الروايات الواردة بهذا الخصوص ، التي تبرز مدى اهتمام الإسلام بهذا الموضوع .

وطبيعي أن يُطرح التساؤل التاريخي ، ويتم التحقيق حول سبب تراجع مثل هذا الموضوع العظيم والمهم ، عن واجهة التاريخ الإسلامي ، وكيف أنه لم ينل أهميته اللازمة من قبل المسلمين ، ولم يُعر له أي اهتمام حتى صار موضوعاً مهملاً في مجتمعاتنا الراهنة .

وينبغي هنا أن نكون منصفين، ونعترف بأن أهل السنة بحثوا وحققوا من وجهة النظر العلمية حول هذا الموضوع أكثر مما بذل الشيعة في هذا المجال . فإذا

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١١٠ .

ما وضعنا كتب الشيعة الفقهية ابتداءً من الكتب الواردة في أبواب « كتاب الصلاة » إلى الكتب التي تتحدث عن « الديات » وغيرها مقابل كتب فقه أهل السنة في هذا المجال ، فإننا نستطيع القول ، دون أدنى ريب ، إنَّ فقه الشيعة أكثر تفصيلاً ، وأكثر دقةً ، وامتنُ ، وأعمقُ ، وأقوى استدلالاً ، من فقه أهل السنة في كل الأبواب .

وهذا ما أستطيع إثباته بالأدلة الراسخة ، لكن باب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ظل في كتبنا الفقهية ، وللأسف الشديد ، باباً صغيراً أمام سائر الأبواب الأخرى .

بالطبع لا بد من القول إنّ هذا الباب من الزاوية العملية قد أصبح أيضاً باباً صغيراً بين أهل السنة المعتزلة ، وهم فرقة من فرق المتكلمين السُّنة ، يعتبرون الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، أصلاً من أصول الدين ، وليس فرعاً من فروعه .

فالشيعة تقول بأن أصول الدين خمسة وفروع الدين عشرة ، حيث يأتي الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، في باب فروع الدين العشرة .

بينما المعتزلة ، كما ذكرنا ، يوردون أصل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ضمن المبادىء الخمسة للأصول الدينية ، لكنهم ومع مر الأيام ، بدأوا يحيدون عن هذا المنحىٰ التاريخي في كتاباتهم وبحوثهم ، حتىٰ صار هذا الباب عندهم باباً ثانوياً من الزاوية العملية .

والمؤرخون الاجتماعيون يذكرون ، في هذا الصدد ، سبباً سياسياً لهذا الانكفاء ، حيث كان البحث في هذا المجال يعني مواجهة السلطات السياسية الحاكمة في كل عهد ، ولمّا كان الأمر بالمعروف يُقابل بالمضايقة لهذه الفرقة ، من قبل حُكّام كل زمان ، فقد مال أصحاب البحث من شيوخ المعتزلة وبقوة ، إلى الابتعاد عن ذكره في كتبهم ، أو المرور عليه مرور الكرام ، بالرغم من كونه يمثل أصلاً من أصول دينهم الخمسة .

والحقُّ يُقال هنا أيضاً : بأنّ هذا الباب قد أُهمل إهمالاً كبيراً في كتبنا ،



وبحوثنا الدينية ، نحن الشيعة . كذلك ، حتى أنك يندر أن ترى بحثاً مكتوباً في القرون الأخيرة في رسائل المجتهدين العملية ، يتناول هذا الباب الديني الكبير .

وإلى الحد الذي أعرفه أنا فإنّ آخر كتاب من كتب الرسائل العملية ، التي كتبت في هذا الموضوع ، هو كتاب « الجامع العباسي » للشيخ البهائي ، والذي يعودُ تاريخه إلى ثلاثة قرون ونصف القرن تقريباً[1] ، بل إنه صار يُحذف من كتب الرسائل العملية بعد ذلك تماماً .

في حين أن الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، مثل الصلاة والصيام ، وليس مسألة تشبه مسألة الإماء ، والعبيد ، والرق ، حتىٰ نقول إنها مسألة تاريخية قديمة ، تنتفي ضرورة البحث حولها ، بانتفاء وجود الأمر في هذا الزمان وهو أمر صحيح .

ففي الزمن الذي يوجد فيه الرق والعبيد ، يكون البحث حول الأحكام الواردة في الإسلام ، لصالح العبيد ، أمراً مفيداً ، بينما في ظل عدم وجود الرق ، فإن البحث في مسائله يصبح عبثاً ، وغير مفيد بالمرة .

لكن موضوعاً كالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ليس موضوعاً يمكن للمرء أن ينفيه ، أو يغيّبه عن ساحة المجتمعات ، إنه موضوع حاضر وحي على الدوام ، وعلى رأس الموضوعات الاجتماعية ، في كل عصر وزمان ، ولا بد من طرحه على الدوام ، حتىٰ نتذكر أهميته ، ولا ننساه أبداً .

بعض المستشرقين الأوروبيين ينسبون إلى الإسلام (بالأحرى يتهمون الإسلام) وهو الأمر الذي يكررونه ويؤكدونه ، في الكثير من كتاباتهم ، وذلك بأن دين الإسلام هو دين القضاء والقدر ، أي إنه دين لا يُعطي للإنسان أي دور مسؤول ، أو دور فعّال ونشط ، وأنه يُعلّم البشر على توكيل الله تعالى للقيام

---

(١) طبعاً لا بد من الإشارة هنا بأن التمهيد إنما قد ألقي هذه المحاضرات كما هو معلوم قبل بروز أبحاث وكتابات الإمام الخميني (قدس سره) . في هذا المجال « المترجم » .



بواجباتهم الإنسانية بدلاً عنهم ، وما على الإنسان إلّا أن يبقى منتظراً نتائج وثمرة ممارسة الرب لتلك الوظائف .

كما أنهم يدّعون بأن الإسلام لا يمنح البشر حرية الاختيار مطلقاً ، بل إنّ الأمر محصور كلياً بإرادة الله ومشيئته وحده ، ولا دخل للإنسان بأيّ أمر من أمور الحياة الدنيوية ، وبالتالي فليس للإنسان أية مسؤولية مُلقاة على عاتقه .

وهذا افتراء محض ! فالقرآن الكريم يُدين اليهود ، ويحاكمهم نتيجة لحملهم أفكاراً من هذا القبيل ، وعدم تحملهم المسؤولية إلى جانب النبي موسى عليه السلام ، حيث يقول تعالى : ﴿ يا قوم ادخُلوا الأرْضَ المُقَدَّسة التي كتب الله لَكُم . . . ﴾[1] لكنهم كانوا يردون على موسى : ﴿ فاذهبْ أنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إنّا هُهنا قاعدون ﴾[2] ، نعم ، اذهب أولاً ، وأخرج العدو من أرضنا ، ثم ندخل معك إلى ميدان المعركة !

المعروف أنّه في معركة بدر ، عندما جاء النبي ، واستشار أصحابه في المطلوب عمله ، في تلك الظروف ، وذلك بعد أن فرت القافلة ، قافلة العدو ، فهل يُريد المسلمون ملاحقتهم أم العودة إلى المدينة ؟ ردّ عليه أصحابه وكلٌ أشار عليه برأي من الآراء ، حيث قيل يومها إنّ أبا ذر الغفاري ، أو المقداد الكندي ، وهما من صحابته الأجلّاء ، قال :

يا رسول الله ! إننا لسنا مثل بني إسرائيل حتىٰ نقول : « اذهب أنت وَرَبُّكَ فقاتلا إنّا هُهنا قاعدون » . بل إننا نقول لك : الأمر أمرك ، ونحن على استعداد لتطبيق أوامرك ، والعمل بها في كل الظروف ، ولو طلبت منّا رمي أنفسنا في البحر ، لفعلنا ، ولو طلبت منا رمي أنفسنا في النار ، فنحن حتماً فاعلون أيضاً .

ثم إضافة إلى ذلك ، فها هو القرآن الكريم نفسه يقول بوضوح حول موضوع حرية الإنسان ، والمسؤولية ، والالتزام الشخصي المطلوبين منه ، وذلك

---

(١) سورة المائدة : الآية ٢١ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٢٤ .

كما ورد في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾[1] أو ﴿ وهديناهُ النجدين ﴾[2] أو في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أراد الآخرة ، وسَعى لها سَعْيَها ، وهُوَ مُؤمِنٌ ، فأولَئِكَ كانَ سَعْيهم مَشْكوراً ﴾[3] .

ثم إنَّ هناك عبارات كثيرة ، يتكرر ذكرها في القرآن الكريم ، كقوله تعالى : ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أيديكم ﴾[4] ، ثم إن القرآن الكريم يؤكد مراراً على حقيقة تنزيه الله سبحانه وتعالى عن المفاسد والشرور ، ولا يقبل إلاّ بتحميلها للإنسان ذاته : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُم ، ولكِنْ كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[5] .

ثم إنَّ هناك جانباً آخر للرؤية الإسلامية للفرد تضع ديننا في الواقع في مقابل ادّعاء هؤلاء المفترين والكاذبين ، ألا وهو ذلك الجانب الذي أصبح في صُلب القانون الديني لأمتنا الإسلامية ، بينما لم يدخل إلى هيكلية القانون الديني لأية أمة من الأمم الأخرى (ولا أريد القول هنا بالطبع بأن السلف من الأنبياء لم يكن لديهم هذا التصور عن الإنسان الفرد) .

ولكن على كل حال لم يتبلور هذا الأمر إلاّ في ديننا الإسلامي ، حيث نرى أنَّ الفرد في الشريعة المحمدية ، ليس مسؤولاً أمام الله فقط بل أنه مسؤول أيضاً أمام المجتمع ، ويحمل بذاته وشخصه تعهداً والتزاماً خاصاً تجاه شعبه وأمته ، وهذا هو مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أي إنك أيها الإنسان لست مسؤولاً من الناحية الشخصية والفردية ، تجاه الله فقط ، بل إنك مسؤول أيضاً بنفس الدرجة أمام المجتمع ، فهل يمكن اعتبار مثل هذا الدين بعد هذا دين قضاء وقدر ؟! وبالطبع ، القضاء والقدر بالمفهوم الذي يطرحه هؤلاء المستشرقون والذي يعني عندهم إرجاع الحركات والسكنات كافة إلى الله تعالى فقط ، وإخراج البشر نهائياً من دائرة الالتزام والمسؤولية الاجتماعية ؛ وهو قضاء وقدر

---

(1) سورة الدهر : الآية ٣ .

(2) سورة البلد : الآية ١٠ .

(3) سورة الإسراء : الآية ١٩ .

(4) سورة الشورى : الآية ٣٠ .

(5) سورة النحل : الآية ١١٨ .

لابد وأن يُفيد بسلب حرية الرأي والاختيار والمسؤولية من الإنسان .

نعم فالقرآن الكريم لا يقبل بمثل هذا النوع من القضاء والقدر ، وهل هناك جملة أوضح من هذه الجملة التي تكرر ذكرها في القرآن الكريم مرتين بسياق لفظي ، ومفهوم معنوي متقارب وذلك في قوله تعالى : ﴿ إنّ الله لا يُغيّر ما بقوم حتى يُغيّروا ما بأنفسهم ﴾[1] .

إنّ هذه الآية الكريمة في الواقع تصبُّ ماءً صافياً ونقياً على رؤوس كل أولئك المنتظرين من الله عز وجل ، أن يُغيّر لهم الأمور والأحوال من طريق ما ، فهي تقول لهم بوضوح : إنّ انتظاركم هذا سقيم ، فإنّ هنا جزماً وتأكيداً على ان الأوضاع لن تتغير أبداً لقوم ما ، حتىٰ يقوموا هم بتغيير ما بأنفسهم من مواصفات ، أخلاقهم ، روحيتهم ، وملكاتهم ، وتوجهاتهم ، ووجهة سيرهم ، ونياتهم ، وبالتالي أنفسهم .

فهل هناك تعبير عن المسؤولية والالتزام ، أكثر صراحة ، من هذا التعبير القرآني ؟ وأية مسؤولية ؟ إنّها مسؤولية تجاه المجتمع ، فالمخاطب هنا هو المجتمع .

وفي آية شريفة أخرى ، يخاطب ليها عز وجل الناس عامة ، ويُذكّرهم بسيرة إحدى الأمم الفاسدة من السلف ، بقوله تعالى : ﴿ ذلك بأنّ الله لَمْ يكُ مُغيّراً نعمةً ، أنعمها على قومٍ ، حتىٰ يُغيّروا ما بأنفسهم ﴾[2] وما كان الله ، أو لم يكُ » هنا ، إنما تُفيد : بأن ربوبية ، وألوهية الله سبحانه وتعالى ، تأبىٰ أن تكون الأمور ، أو تسير الأمور بغير هذا القانون ، أي إنها السُنّة الإلهية القاضية بأنْ لا يكون الأمر الربّاني إلاّ كذلك (فالإنسان عندما يقول مثلاً أنا لم أكن ، أو أنا لست كذلك ، فإنما يقصد بأنّه ذلك الشخص الذي لا بد وأن يُلازم شخصيته في الماضي كما في الحاضر والمستقبل ، مثل تلك المواصفات)

هناك آية أخرى ، ورد ذكرها في القرآن الكريم ، أذكرها هنا في سياق

---

(١) سورة الرعد : الآية ١١ .

(٢) سورة الأنفال : الآية ٥٣ .

التوسع في شرح : ﴿ لم يَكُ مُغيّراً . . . ﴾ يقول تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[1] أي إنّ الله لا يُعذّب أبداً أمةً من الأمم ما لم يُلقِ بحجتهِ عليها أولاً، أي إنّ ربوبيته تأبى غير ذلك التعامل، أي إنما نُعذّب تلك الأمة التي تفهم وتُدرك ما عُرض عليها ، ثم تُحجِمُ في نفس الوقت عن العمل بتعاليم تلك الرسالة .

﴿ ما كُنّا معذِّبين ﴾ أي إنّ ربوبيتنا لا تقبل بمثل هذا العمل ، بل تأمرنا بغير ذلك . فهل هناك وثيقةٌ وسندٌ أكثر وضوحاً وصراحة ، بعد هذه الآيات الكريمة ، نستدلُ من خلالها على أنّ « توقعنا » و« انتظارنا » بل قل « تواكلنا » في مسألة التغيير ليس بمحله ؟ إنّه النص القرآني الذي لا يمكن ردُه أو دحضهُ .

محمد إقبال اللاهوري يستنبط من هذه الآية الكريمة استنباطاً لغوياً يؤكد ما ذهبنا إليه في تفسير هذه الآية الكريمة فيقول[2] :

إنّ الله سبحانه لم يستخدم تعبير حتى « يُغيّر ما بأنفسهم » بل قال : « حتى يغيروا ما بأنفُسِهِم » . فالضمير هنا في « يُغيروا » عائدٌ للناس أنفسهم أي إنه لم يَقُل حتىٰ يُغيّر الله سبحانه وتعالى ما بأنفس الناس من أخلاق ، وروحيةٍ ، وخصوصيات ، بل تراهُ يقول : حتىٰ يُغيّروا هُم ، أي يُبادروا هم ، مستقلين استقلالاً فكرياً قائماً بذاته .

وهنا نستنتج أنه لا يمكن لأية أمة أن تُغيّر أحوال وأوضاع أمة أخرى بالجبر والإكراه ، مهما بذلت من محاولات ، ما دامت الأمة الأخرى لم تُقرّر بنفسها التغيير ، ولم تأخذ زمام المبادرة في الاتجاه المطلوب ، ولم تستند على قاعدة الاستقلال الفكري الذي هو وحده القادر على تحسين أحوالها وتقدمها نحو الأفضل .

أيها الناس ! لا تنتظروا أن يأتيكم الآخرون من الخارج ، حتىٰ يُصلحوا ما فسد من أحوالكم ! فالأمة التي ترغب أن يكون قرارها بيد المستشارين

---

(١) سورة الإسراء : الآية ١٥ .

(٢) راجع كتاب ـ...ـ اقبال ـ تأليف سيد غلام رضا سعيدي .

الأجانب ، لن تصلح أحوالها يوماً ، ولن تصبح أمة آدمية إلى الأبد ، ذلك قرارها هذا لا ينطبق مع مضمون الآية السالفة الذكر .

وعندما تقرر هي بالذات الاعتماد على نفسها ، وعلى قدراتها الخاصة . وتبدأ بالتخطيط ، والتدبير لمستقبلها ، وتصبح أمةً تُمسك قرارها بيدها ، عند ذلك فقط يمكن لها أن تتوقع تدفق الرحمة الإلهية عليها ، وتنتظر التأييد الرباني لها ، وبذلك يتحقق الوعد الربّاني لها ، والذي يُطلق عليه القرآن الفيض الإلهي ، والعون الرباني ، والنصرة الربانيّة .

فلو كان الانتظار الفارغ والتوكل على الله ، واعتماد نزول الرحمة الإلهية لوحدها ، أمراً صحيحاً ، لكان الحسين بن علي (ع) أكثر الناس استحقاقاً لمثل هذه الرحمة له ولأمته .

لكنه لم يعمل ، لماذا ؟ لأنه أراد أن يكون مثالاً لتطبيق الآية الكريمة ﴿ إنَّ الله لا يُغيِّر ما بقومٍ حتى يغيِّروا ما بأنفسهم ﴾ ، أي إنه أراد أن يأخذ زمام المبادرة بيده ، ويبدأ بتغيير أوضاع المجتمع ، وهو ما عبّر عنه عليه السلام عندما استعان بحديث جده النبي الأكرم (ص) إذا قال :

« . . . فلم يُغير عليه بفعل ، ولا قول ، كان حقاً على الله أن يُدخله مدخله » .

ولكن ما هو نوع التغيير ؟ وما هي القرارات المطلوب اعتمادها ؟ فالأعمال العادية البسيطة نعرفها جميعاً ونستطيع تنفيذها ، وإصلاح أمورنا ، في المستوى البسيط ، عملٌ سهل يقدر عليه الجميع ، فالإسلام أوصىٰ مثلاً بزيارة الحاج لدى عودته من مكة الحرام ، وهو ما يقوم به أغلبنا ، حيث نزور الحجاج العائدين من موسم الحج ، ونُجالسهم قليلاً ، ونأكل الحلويات معهم ، ثم نتركهم عائدين إلى بيوتنا ، أو إنّ لإسلام قد أوصانا بالمشاركة بتشييع جنازة الميت ، والمشاركة في مأتم الوفاة ، وهذه كلها من الأعمال السهلة في الإسلام ، وهي أعمال بسيطة يقدر عليها كل إنسان ، والمسلم لا يقوم بهذه الأعمال فقط ، إذ يأتي يوم على الإنسان المسلم لا بد له من أن يقف موقف الحسين بن علي عليه السلام ، وينهض ،

وتحرك ، ويثور ، ويهز ، ليس فقط أوضاع المجتمع الإسلامي في ذلك العصر ، بل إنّ شعاع تأثيره يصل إلى خمس سنوات بعد وقوع الحادثة ، وبعد عشر سنوات نراه يظهر بشكل آخر ، ثم بعد ثلاثين سنة بشكل مختلف ، ثم بعد ستين عاماً ، وهكذا بعد مئة عام وخمسمئة عام ، بأشكال اخرى ، بل وبعد مُضي ألف عام نرى ذلك التحرك يصبح المُلهم ، والمُعلّم ، لسائر الحركات والثورات الإنسانية .

وهذا النوع من التحرك يُقال له تحرّك من نوع التحرك الذي تقول به الآية الكريمة : ﴿ حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم ﴾ .

نحن جميعاً نحبّ اولادنا ! فهل كان الحسين بن علي عليه السلام لا يُحب اولاده ؟! بالتأكيد كان يُحبهم أكثر منّا .

إبراهيم الخليل أيضاً لم يكن أقل حُباً لابنه إسماعيل من حُبنا لأولادنا ، فهو كان يُحبه أكثر من حُبنا نحن لأولادنا لأنه أكثر إنسانية منّا ، وهذه العواطف عواطف إنسانية ، ولمّا كان عليه السلام أكثر إنسانيةً منّا ، فإنّه بالتأكيد كان يحملُ من العواطف الإنسانية بكمية وبدرجة أكثر وأرفع منّا .

وهكذا الحسين بن علي عليه السلام ، فإنه كان يُحب أولاده أكثر من حُبّنا نحن لأولادنا ، ولكنه في نفس الوقت كان يُحب الله أكثر من أي أحدٍ آخر ، وأكثر من أي شيء في الدنيا ، وبالتالي فإنّه لم يكن ليحسب حساب أيّ أحد ، أو شيء ، مقابل الحق تعالى .

يذكر الرواة أنّ أبا عبد الله الحسين (ع) ، عندما كان متوجهاً بقافلةٍ نحو كربلاء ، كان أفراد عائلته جميعهم معه ! إنه لأمر يصعب على التصور بالنسبة لنا بالفعل ، فالواحد منّا إذا ما كان في رحلةٍ عادية ، وكان يرافقه فيها طفل من أطفاله ، فإنه يحس بشكل طبيعي بوجود مسؤولية معينة تجاه ذلك الطفل ، وبالتالي فإنه سيكون قلقاً ، ومشغول البال ، باستمرار ، على ذلك الطفل .

إلّا أن الحسين (ع) ، وكما يذكر الرواة ، فإنه سلّم أمره لله مطمئناً ، هادئاً ، وغطّ في نوم عميق ، وهو فوق الفرس ، حتىٰ أنه وضع رأسه فوق سرج الفرس ، لكنه لم يستمر طويلاً ، وما كان منه إلّا أن افاق ورفع رأسه قائلاً :

« إنّا لله وإنّا إليه راجعون »[1] .

وما أن قال كلمته هذه ، أي استرجع كما يقول أهل اللغة ، وإذا بجماعته ينظر بعضهم لبعضٍ ، وهم يتساءلون : وماذا يقصد عليه السلام بهذه الجملة ؟ وهل هناك من نبأ جديد ؟

ويتقدم إليه ولده الغالي ، ذلك الابن الذي يحبه كثيراً ، والذي يحمل إضافة إلى ما يحمله كل ولدٍ من مواصفات تُحبِّب الولد لأبيه ، يحمل خصوصية كانت تزيد في محبة أبي عبد الله عليه السلام له ، ألا وهي خصوصية كونه أشبه ما يكون بجده النبي الأكرم محمد (ص) (تصوروا حجم المعاناة ، والابتلاء ، الذي يتعرض له الإنسان ، عندما يصبح مثل هذا الولد في موقع الخطر !) .

نعم يتقدم إليه علي الأكبر ويقول له : « يا أبتا ! لِمَ استرجعتَ ؟ » أي لماذا قلت إنا لله وإنا إليه راجعون ؟

قال : سمعت نداءً من السماء يهتف بيّ قائلاً : « القوم يسيرون والموتُ يسير بركابهم » .

والذي فهمته من الهاتف الربّاني ، أنّ مصيرنا الموت ، فنحن نسيرُ باتجاه الموت الحتمي .

[في هذه الأثناء يردُّ علي الأكبر بقول] تماماً كما قال إسماعيل (ع) لأبيه إبراهيم (ع)[1] .

---

(١) فعندما يقول إبراهيم لابنه إسماعيل (ع) يا بُني ! إنني أرى في عالم الرؤيا ما يشبه الوحي ، بأنّ الله يأمرني أن أذبحك قُرباناً في سبيل الحق (وإبراهيم (ع) في هذه المرحلة لا يعرف فلسفة هذا الأمر ، لكنه متيقّن من أنه أمر الله تعالى إليه) ماذا تتصور رد الابن ؟ فهل قال له مثلاً : يا أبت ، إنه حلم ورؤية الشخص ميتاً في المنام يُفيد بطول العمر . وإن شاء الله يكون عمري طويلاً ؟ لا . إنه قال له . ﴿ يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ . [سورة الصافات الآية ١٠٢] لكن الله سبحانه وتعالى يتدخل عندما يُقرر إبراهيم ذبح ابنه بالفعل فيوحي إليه : ﴿ فلمّا أسلما وتلّه للجبين * وناديناه أن يا إبراهيم * قد صدّقت الرؤيا ﴾ [سورة الصافات : الآية ١٠٤] نعم فالهدف من الوحي والخطاب الرباني هو: امتحان قوة إيمان الأب

نعم هكذا أجاب علي الأكبر أباه أبا عبد الله الحسين (ع) قائلاً : أولسنا على الحقّ ؟

قال : بلى .

قال : فعندما يكون الأمر كذلك فإننا ماضون إلى المصير الذي كتبه الله لنا، لا فرق إن كان مصيرنا الموت أم الحياة ، فالمهم أن نكون ماضين على الصراط ، وفي جادة الحق .

فما كان من أبي عبد الله الحسين (ع) إلاّ أن سُرّ كثيراً ، وأقبل عليه بوجد ، ولذلك تراه يردُّ على ابنه بعد ذلك ، رد الشاكر لله الذي لا يملك لابنه دُعاءً أفضل من ذلك الدعاء ، إذ قال له : « جزاك الله عني خير الجزاء »

فكم يتمنّى الأب أن تأتي الفرصة المناسبة حتى يخدم مثل هذا الابن ؟ ولكن لاحظوا دقّة الموقف ، وحساسيته الشديدة ، ومدى عظمة المصاب ، عندما يأتي بعد ظهر يوم العاشر من محرّم ، ويقف هذا الشاب نفسه أمام هذا الأب بالذات ، ثم يتقدم إلى الميدان ويُبارز الأعداء ويُبدي من الشهامة والشجاعة المنقطعة النظير ، ويضرب من يضرب ، ويقتل من يقتل ، وهو على هذه الحال ، ناشف الشفتين ، ولسانه أشبه ما يكون بالخشب من شدة العطش ، وفي لحظة استراحة واستعادة أنفاس ، يعود إلى أبيه ليلتقط بعض أنفاسه ، ويطلب منه رشفة ماءٍ ، (ولا أدري هنا هل تذكر جملة أبيه التي قالها له ، وهم في الطريق إلى كربلاء مع سائر الأصحاب) .

على كل حال الولد يتمنى رشفة ماءٍ من أبيه في تلك الظروف الشديدة القساوة ، قائلاً له : « يا أبة ! العطشُ قد قتلني ، وثقل الحديد أجهدني ، فهل إلى شربة من الماء سبيل » ؟

ولكن الحسين بن علي (ع) لم يكن أمامه أن يُجيب ولده الطاهر الرشيد علياً

والابن، ولمّا كانا قد أثبتا أنهما من المطيعين لربهما فالأب أبدى استعداده للتضحية بابنه ، والابن وافق على أن يكون الضحية ، لذلك أمر الله تعالى إبراهيم بأن لا يذبح ابنه وهكذا كان .

الأكبر (ع) ، وهو في تلك الظروف الصعبة ، والمعاناة العميقة سوى بضع كلمات : « . . . بُني ارجع إلى قتال عدوك فإني أرجو أنك لا تُمسي حتى يسقيك جدك بكاسه الأوفى شربةً لا تظمأ بعدها أبداً ! »

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .



المحاضرة الثالثة

شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

بسم الله الرحمن الرحيم(*)

الحمد لله رب العالمين ، باريء الخلائق أجمعين ، والصلاة والسلام على عبد الله ، ورسوله ، وحبيبه ، وصفيه ، سيّدنا ونبيّنا ومولانا أبي القاسم محمد ، وعلى آله الطيبين ، الطاهرين ، المعصومين ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

﴿ التَّائِبُونَ ، العَابِدُونَ ، الحَامِدُونَ ، السَّائِحُونَ ، الرَّاكِعُونَ ، السَّاجِدُونَ ، الآمِرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ المُنْكَرِ وَالحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ ، وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ ﴾(١) .

من خلال الموضوعات التي تم عرضها في الليلتين الماضيتين ، يتضح لنا أنّ شكل النهضة الحسينية مرهون في الواقع لثلاثة عوامل ، وهي :

امتناع الإمام (ع) عن المبايعة ، وقبوله لدعوة أهل الكوفة ، والعامل الثالث الذي يظهر تأثيره بشكل مستقل ، هو الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

كما وقد اتضح لنا أيضاً أنّ كلاً من هذه العوامل الثلاثة كان بحد ذاته قد

(*) ألقيت هذه المحاضرة بتاريخ ٨ محرم ١٣٩٠ هـ . قمري

(١) سورة التوبة . الآية ١١٢ .

حل معه وظائف ومسؤوليات خاصة للإمام (ع) ، فضلاً عن إيجاده لردود الفعل المناسبة مع كل عامل .

ثم إننا بيّنا أيضاً أنّ تأثير كل عامل من العوامل على النهضة الحسينية ، يختلف من واحدٍ لآخر ، وبالتالي فهي ليست متساوية في تأثيرها على النهضة .

فلو أخذنا بعين الاعتبار عامل دعوة الكوفيين فقط ، لرأينا أن قيمة تأثيره محدودة بحدود معينة ، بينما لو نظرنا لعامل امتناع الإمام عن المبايعة ، لرأينا أن قيمته أكبر وأعظم على النهضة من العامل الأول .

وإذا ما أخذنا عامل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، بنظر الاعتبار ، لوجدنا أنّ تأثيره هو بعشرات المرات أكبر وأهم من العاملين الأوّلين ، ذلك أن عامل دعوة أهل الكوفة ، كان يحمل معه احتمال تحقيق نصر حسيني بنسبة ٥٠٪ أو أقل بقليل ، في حين أن عامل الامتناع عن المبايعة ، لم يكن يحمل معه أي احتمال من هذا النوع .

فهنا كانت المواجهة من نوع المقاومة الخطرة مئة بالمئة ، وعلى الجانب الآخر فإن عامل العمل بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، يحمل في طياته أيضاً تفاوتاً عظيماً ، وفرقاً كبيراً ، مع عامل المبايعة .

ففي عامل المبايعة يكون الطلب وتكون المطالبة من قبل العدو ، أي أن يتقدم العدو بطلب غير مشروع ، وغير مقبول ، فيواجهه الإمام مقابل ذلك بالرد ، وبالتالي برفض الطلب والامتناع عن النزول عند رغبة المطالب .

وإذا ما أردنا أن نأخذ هذا العامل وحده بعين الاعتبار ، لكان يمكن لنا القول :

لو أنهم لم يطالبوا الإمام بمثل تلك البيعة لما كان الإمام قد وقف بوجههم ، ولأنهم طلبوا منه مثل ذلك الموقف ، فإن الإمام كان مضطراً لأن يرفض شخصياً ذلك الطلب ، وبالتالي وقف في مواجهتهم . (وفي العامل الأول كانت الدعوة (دعوة أهل الكوفة) هي التي دفعت بالإمام إلى المواجهة) .

وأمّا إذا ما أخذنا بالعامل الثالث ، وهو عامل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، واعتبرناه هو العامل الأساسي ، فإنّه عند ذلك لن تكون الدعوة هي التي تدفع بالإمام إلى المواجهة ، ولا المبايعة ، بل إنّ الإمام هو الذي يُقرر المواجهة ، وفي الحقيقة فساد الأوضاع ، وشيوع الشرور ، والمنكرات ، وبتعبير الإمام نفسه ، تحول الحلال إلى حرام ، والحرام إلى حلال ، وبالتالي رؤية الوضع الفاسد ، والمنكر ، للمجتمع ، الأمر الذي يضع الإمام أمام منعطف المواجهة ، ويوجب عليه القيام والنهضة .

وعلى هذا الأساس فإنّ قيمة قيام الإمام ، استناداً إلى هذا العامل ، تضاعف كثيراً ويأخذ الدرس الحسيني انطلاقاً من هذا الحساب ، شكلاً آخر ، ووضعية مختلفة .

والسبب الأساسي ، والعامل الرئيسي ، الذي يُعطي لهذه النهضة جدارتها وأهليتها ، لتبقى دائماً مُشعةً ، ومشرقة على جبهة التاريخ ، وخالدة أبداً ، ودرساً أزلياً ، وثورةً لا نظير لها في العالم ، هو هذا السبب ، وهذا العامل ، أي الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، بالطبع إضافة إلى بعض الخصوصيات التي سأتعرض إليها أيضاً في السياق .

إنّ هذا العامل يرفع كثيراً من أهمية وقيمة النهضة الحسينية ، ولهذا السبب ، فإنّ الواجب يتطلب منا أن نتعرف أكثر فأكثر على مبدأ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، في الإسلام .

وما هو هذا المبدأ الذي يحمل كل هذه الأصالة ، والقدرة الكامنة ، والذي يحمل كل تلك الأهمية في الإسلام ، حتى يدفع بشخص مثل الحسين بن علي عليه السلام ، للتضحية بنفسه على طريق ذلك المبدأ ، وتسيل دماؤه ، ودماء أحبائه ، ودماء أصحابه ، من أجل انتصار ذلك المبدأ ، بل حتى إنه يذهب إلى حد تقبل حدوث مثل تلك الواقعة الحسينية التي لا مثيل لها في التاريخ .

ولهذا فإننا ، وبعد مُضي ما يقارب الألف ومئتي عام ، ترانا نقف بين يدي الإمام ، ونقرأ الدعاء الخاص :

« أشهد أنك قد أقمت الصلاة، وآتيت الزكاة ، وأمرت بالمعروف ، ونهيت عن المنكر ، وجاهدت في الله حق جهاده حتىٰ أتاك اليقين »[1] .

ودعونا الآن نفكر جيداً في مفهوم هذه الشهادة ، وفي هذا الدُعاء :

فنحن نقول في هذا الدعاء : إنّك ـ أي الإمام الحسين ـ قد أقمت الصلاة وآتيت الزكاة ، وأديت واجب الإنفاق ، بكل مراتبه ودرجاته[2] ، وأمرت بالمعروف ، ونهيت عن المنكر ، أي إنك هنا إنما قمت وجاهدت بهدف الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وثم فقد جاهدت في الله حق جهاده ، أي إنّك سعيت كل سعيك الممكن في قدرة الإنسان ، والفرد ، وبذلت ما في وسع الإنسان أن يبذله في طريق الحق .

والجدير بالملاحظة هنا ، هو أننا في (زيارة وارث) نقول : « إننا نشهد » فلمصلحة من يا ترى نشهد نحن هنا ؟ فالمفروض أن الشاهد إنما يذهب إلى المحكمة ، ليشهد أمام القاضي ، على صحة ادعاء ما ، أو البرهنة على أحقيته مثلاً كأن نقول : سيدي القاضي ! إنني أشهد بأنّ فلاناً من الناس يوجد في رقبته دين لفلان ، وهذا هو الحاصل في (زيارة وارث) .

وهل تعلمون عند من نشهد ؟ ترى هل هي الشهادة بين يدي الله ، وأمام

---

(١) عن زيارة وارث [الزيارة المشهورة بهذا الاسم ـ زيارة الإمام الحسين (ع) ـ]

(٢) إذ إن أمر الزكاة لا ينحصر بدفع المال فقط ، فالثروة لها زكاتها ، كما أن الكلام له زكاته ، والفكر والدماغ لهما زكاتها ، وجسم الإنسان بشكل عام له زكاته ، فالأطراف لها زكاتها ، والأذن لها زكاتها ، أي إن أية نعمة يمنحها الله لعباده ، ويقوم العبد باستعمالها لخدمة سائر المخلوقات ، فإنه يكون بذلك قد زكى تلك النعمة . فنحن نقرأ في القرآن الكريم : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [سورة البقرة . الآية ٣] وتفسير ذلك كما جاء على لسان الأئمة (ع) عندما سُئلوا عن معنى « مما رزقناهم »؟ هنا قال (ع) : أي مما علّمناهم يُعلّمون . وواضح هنا بأن الأمر لا يخص للمال والثروة فقط . إذ إن أحد مصاديق الإنفاق هو أنه عندما ينطبق على الفرد مصداق العالِم ، وبالتالي فإنه يَعْلَم ما لا يعلمه الآخرون ، وإنه يحمل من العلم المفيد للبشر بين أنسجة دماغه ، فإنه يصبح من الواجب على ذلك الفرد أن يقوم بالإنفاق ، والزكاة من ذلك العلم ، في سبيل الله ، وعلى طريق خدمة المحتاجين من هذا العلم . وهذا بدوره زكاة وإنفاق مُعتبران .

المحكمة الإلهية ؟ ولمصلحة من ؟ هل هي لمصلحة الإمام الحسين ؟

إنَّ علماء المعاني والبيان يوردون في هذا الصدد ملاحظة جميلة وحكيمة للغاية وهي :

إنَّ الإنسان يقوم أحياناً بأداء شهادة ما أمام مقام معين ، ليس بهدف إفهام الطرف المقابل بمضمون تلك الشهادة ، وإنما بهدف إفهام الطرف المعني بأنه ـ أي الشاهد ـ إنما يُدرك ذلك المضمون ويفهمه ، وهذا أمر منتشر أيضاً . فأنت أحياناً تؤدي الشهادة لصالح قضية ما ، أمام شخص معين من الناس ، ليس بهدف إفهام ذلك الشخص بذلك الموضوع ، فأنت تعرف بأنّه يعرف لكنك إنما تُريد من وراء شهادتك تلك إفهامه والإقرار أمامَهُ بأنّك تعرف وتفهم وتعلم .

وهنا يأخذ معنىٰ الشهادة ، معنىٰ الإقرار والاعتراف ، فتقول : (أشهد) أي إنني ، مثلي مثل كل إنسان عاقل ، أعترف وأُقرُّ يا أبا عبد الله الحسين (ع) بأن نهضتك هي نهضة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

أي إنّني أُدرك جيداً بأنك لم تقُم فقط بسبب دعوة أهل الكوفة ، بل إنك قمت قبل أن يدعوك أهل الكوفة إليهم ، فأنت نهضت ، وقمت أولاً ، ثم قام أهل الكوفة بتوجيه الدعوة إليك .

كما أنني أشهد أيضاً بأنك لم تقم فقط بسبب رفضك مبايعة يزيد ، فنهضتك تشمل بنداً آخر أيضاً وبقيامك إنما أردت تنفيذ مبدأ آخر من مبادىء الإسلام ألا وهو مبدأ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

فيما سبق بينتُ لكم أنّ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، يرفعُ من مقام وقيمة النهضة الحسينية ، درجات عالية جداً ، إضافة إلى ميزةٍ معينة ، بل ومميزات أخرى .

والميزة التي أُحب التعرض إليها هي أنّ ثورات الأنبياء ، وأولياء الله ، والمؤمنين ، بشكل عام ، تمتاز عن سائر الثورات الأخرى التي تحصل على يد القادة ، أو غير القادة من الناس العاديين بمواصفات معينة ، فما هي هذه المواصفات ؟

نقول : إن فعل البشر له وجهان أو جانبان ، جانب جسمي ، وجانب روحي ، فقد نقوم ، أنا وأنت ، بتنفيذ نفس العمل ، وبشكل واحد ولكن من اية جهةٍ بشكل واحد ؟ من جهة هيكل أو صورة العمل الظاهري ، كأن يقوم كلانا بتأدية فريضة الصلاة ، أو ان يُساهم كلانا في دفع الأموال ، من أجل عمل خير معين ، فيدفع كل واحد منّا نفس المبلغ الذي يدفعه الآخر .

واصلّي انا اربع ركعات ، وأنت كذلك أربع ركعات ، وبالتالي فإن هذه الأعمال التي مارستها أنا لا تختلف عن أعمالك أنت ، لكن الفرق يكمن في كونك مثلاً تمتلك من خلوص النية ، ومن الخضوع والخشوع ، ما لا أملكه أنا بدوري ، وتكون أنت بالتالي حاملاً لعشق ، ومحبةٍ ، وإخلاصٍ ، وهيجان روحي عالٍ بنفعك ، بينما افتقد أنا بدوري لمثل هذه المواصفات ، وعليه تكون قيمة أعمالك ، ألف مرةٍ ، أرفع ، وأفضل من أعمالي .

هناك العديد ممن جاهدوا في سبيل الله ، ولكن لماذا تصبح : « ضربة علي يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين »[1] فهل ضربة عليٍّ لها هذه القيمة الرفيعة حقاً ولماذا ؟ ذلك انّ علياً (ع) وكما جاء في تعبير العُرفاء قد ذهب إلى درجة الفاني في الله ـ أي إنه لم يبقَ في وجوده من الأنانية ، أو الذاتية ، شيء بتاتاً .

ففي الوقت الذي يبصق العدو بوجهه ، في حين بأبي هو رغم ذلك ، قطع رأس العدو في تلك اللحظة ، حتىٰ لا يختلط في عمله الانفعال الذاتي الذي قد ينبع من غضبه على فعلة العدو ، مع عمله الجهادي الأساس ، وهو بهذا يُريد أن يفني نفسه ولا يبقى في روحه سوى الله . وهذا الأمر لا تجدونه إلّا بمنهج وعقيدة الأولياء والأنبياء ، إذ لا وجود لمثل هذه التصرفات في غير مدرسة الأنبياء بتاتاً .

في الآية الكريمة التي تلوناها عليكم في بداية الجلسة جاء في قوله تعالى : ﴿ التَّائبون ، العَابدونَ ، الحامِدُونَ ، السَّائحونَ ، الراكعون ، السَّاجدون ، الآمرون بالمعروف ، والناهون عن المنكر ﴾[2] ، إنّ التائبين تأتي في مقدمة

---

(١) بحار الأنوار ج ٢ ص ٢٠٦ ـ مناقب ابن شهر آشوب ج ٣ ص ١٣٨ وردت فيه عبارة مشابهة أيضاً .

(٢) سورة التوبة : الآية ١١٢ .

المواصفات ، التي يذكرها القرآن الكريم .

وكما يقول العرفاء فإنّ أول منزلة من منازل السلوك ، أو أول مرتبة هي التوبة .

فالتوبة تعني العودة ، والذي ينحرف عن الطريق ، ويميل عن الصراط ، تراه يعود فجأةً إلى طريق الحق ، أي إنه يعود ويتجه مجدداً نحو الله .

نعم ، التائبون العابدون أي إنّ الابتداء بالتوبة ، والانطلاق منها ، هو الذي يجعلهم يصبحون من العابدين ، وبالتالي يعبدون الله ، ولا يعبدون سواه ، ويصبح الله سبحانه وتعالى هو الحاكم فوق وجودهم ، ولا حاكم سواه .

وهكذا فإنهم لا يقبلون بغير أمر الله ، ويرفضون أوامر غيره ، ويُطيعونه وحده لا شريك له ، ولا يُطيعون غيره .

الحامدون : أي المُمجدون اسم الحق تعالى ، ولا يُمجِّدون غيره .

إنّهم لا يعرفون أحداً يستحق التمجيد ، والمدح ، والابتهال ، غير الله .

إنهم لا يمجدون ، ولا يبتهلون لغير الله سبحانه وتعالى .

السّائحون : أي السوّاح ، وقد ورد بهذا الخصوص ، عدة تفاسير مختلفة ، منها من قال بمفهوم السياحة المعنوية ، وهي تلك السياحة التي تظهر في عمل الصوم ، لكن كثيراً من المحققين لا يقبلون بهذا التفسير مثل العلامة الطباطبائي في - ميزانه - .

والتفسير المحتمل هنا هو : أن يكون المقصود : السائحون في الأرض ، حيث إنّ القرآن يدعو العباد إلى السير في الأرض .

ولكن ما معنى السير في الأرض ؟

إنه يعني قراءة سير الزمان ، والبحث والدراسة في العبر ، والقصص ، التي تحصل في بقاع الأرض المختلفة ، وليس سياحة اللاهدف ، وقتل الوقت .

فالإسلام يُقدّر عمر الإنسان كثيراً ، ولا يقبل أن تمضي السنون على

العباد ، وهم منشغلون فقط في السفر والاستطلاع فقط .

نعم إنَّ الإسلام لَيُشَجِّع تلك السياحة التي تترافق مع التدبّر ، والتفكر ، واستخلاص العبر ، وأخذ الدروس ، والله سبحانه يوصينا بمثل هذه السياحة فيقول : ﴿ قُل سيروا في الأرض ﴾[1] وهذا درس وفكر لنا .

وعليه فالسّائحون : هم أولئك النوع من البشر ، الذين يُمعنون في مطالعة التاريخ ، هم أولئك الممعنون في مطالعة أوضاع المجتمع البشري ، هم أولئك الممعنون في مطالعة قوانين الخلق والإنشاء ، هم أولئك الأفراد الذين تزخر أذهانهم وأدمغتهم بالأفكار والنظرات الفكرية المُشرقة .

ثم يذكر القرآن الكريم مظهرين آخرين من مظاهر العبادة في قوله : الراكعون الساجدون ، أي المُسبّحون بحمده ، والذين يقولون : « سُبحان ربي العظيم وبحمده » ، في ركوعهم ، و« سبحان ربي الأعلى وبحمده » ، في سجودهم ، إنهم الآمرون بالمعروف ، والناهون عن المنكر .

وعندما يحمل أولئك البشر مثل هذه المواصفات ، والامتيازات ، ومثل هذا الرأسمال المعنوي ، ومثل هذه الروح ، والأفكار ، عندها يمكن القول بأنهم يملكون صلاحية حمل راية الإصلاح الاجتماعي ، أي راية الآمرين بالمعروف ، والناهين عن المنكر أو المصلحين .

وإلا كيف يمكن للفاسد وغير الصالح ، أن يكون مُصلحاً ؟!

نعم فأولئك الذين أصلحوا أنفسهم أولاً ، وأدّبوها ، وربّوها ، تربية صالحة يمكنهم فقط أن يكونوا مصلحين .

وفي هذا الصدد يقول علي بن أبي طالب (ع) :

« من نَصَبَ نَفسَه للناس إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل غيره ، ومُعلِّم نفسه ومُؤدِّبها ، أحقُّ بالإجلال من مُعلِّم الناس ومُؤدبهم »[2] .

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١١ .

(٢) نهج البلاغة ـ من كلمات الإمام علي (ع) القصار رقم ٧٠ .

أيِ إنّ على الإنسان أن يبدأ بنفسه أولاً ، ويتغلّب على تلك النفس الأمّارة بالسوء .

فالإنسان يحمل موجوداً غير مُروّض في داخله عليه أن يُربيه ويؤدبه أولاً ، فيعظ نفسه ويلومها ، ويحاسبها ، وبعد أن ينتهي من عمل إصلاح نفسه ، وتهذيبها ، وعندما يصبح في عداد الصالحين ، يمكنه عندئذ الادعاء بإمكانية حمله لمهمة الدليل ، والهادي للناس ، والواعظ ، والمُعلّم ، والمُربي ، والمؤدّب ، والمُصلح الاجتماعي .

نعم فالإمام يقول بوضوح بأنّ المُعلّم لنفسه أحقّ بالإجلال من مُعلّم الناس ، ومؤدبها ، لأنها المهمة الأصعب والأهم .

وفي خطبة أخرى للإمام علي (ع) نقرأ : « الحقّ أوسعُ الأشياء في التواصف، وأضيقها في التناصف »[1] .

فما أروعهُ من قول ! إنه لينبغي خطهُ في لوح القلب .

نعم ، فما أوسع ميدان الحديث عن الحق ، والخطابة حول مبادىء الحق ، ولكن ما أن تأتي ساعة العمل والتطبيق ، حتى يضيق الميدان ويصعب الموقف حتى النهاية ، وتضيق المسافة المتوفرة للمناورة عند العمل بالحقّ ، حتى ليصعب على الإنسان المُفتي ، ولو بخطوة عملية واحدة ، في هذا المجال .

ومن هنا فإنّ القرآن الكريم تراه بعد أن يؤكد على مواصفاتهم ، وأنّهم : التائبون ، العابدون ، الحامدون ، السائحون ، الراكعون ، الساجدون ، ومن ثم الآمرون بالمعروف ، والناهون عن المنكر ، وندرك أنّهم هم الطليعة في عمل الخير ، وإشاعته ، والسبّاقون في طريق الكفاح ، ضد مظاهر الشر والفساد . وهم فقط من يملكون صلاحية حمل مثل هذا الشرف ، تراه يقول أخيراً : ﴿ وبَشّر المؤمنين ﴾ .

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ٢١٤ .

ومن هم أولئك المؤمنون الذين يستأهلون تلك البشارة ، إنهم أولئك التائبون العابدون . . . الخ

ولكن إذا كانوا يمتلكون كل تلك المواصفات ، ولم يكونوا من الآمرين بالمعروف ، والناهين عن المنكر ، فإنهم لن يُفلحوا في أعمالهم ، وكذلك إذا كانوا من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، ولكنهم كانوا أنفسهم من الملوثين وغير التائبين . . . . فإنهم أيضاً سوف لن يوفّقوا في أعمالهم .

قال أمير المؤمنين علي (ع) : « لعن الله الآمرين بالمعروف ، التاركين له ، والناهين عن المنكر ، العاملين به . »[1]

وهذا يعني بالضبط أن أولئك الآمرين بالمعروف ، والناهين عن المنكر ، لكنهم ليسوا من التائبين ، ومن العابدين ، والحامدين ، والسائحين ، والراكعين ، والساجدين ، فإنّ لعنة الله عليهم ، لا بد نازلة ، لا محالة ، فهم لم يطووا المرحلة التمهيدية المذكورة في الآية الشريفة السالفة الذكر .

يقول العرفاء في هذا المجال إنّ « السالكين » يمرون في الواقع بأربع مراحل في سيرهم العرفاني :

١ ـ سير من الخلق إلى الحق .

٢ ـ سير بالحق في الحق .

٣ ـ سير من الحق إلى الخلق .

٤ ـ سير بالحق في الخلق .

إنّهم في الحقيقة يُريدون القول : إنّ الفرد الجدير بهداية الآخرين والكفوء ، لأن يكون دليلهم ، هو ذلك الفرد الآمر بالمعروف ، والناهي عن المنكر ،

---

(١) نهج البلاغة الخطبة رقم ١٢٩ .

والذي سما إلى تلك المرتبة الراقية من مراتب الحق ، ثم أصبح مُكلّفاً برفع الناس إلى حيث استقرّ به المطاف .

من خلال ما تقدم ، يتضح لنا أنّ النهضة الحسينية قد استقت قيمتها ، وأهميتها الأساسية من بُعد الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

وعليه فإننا يجب أن نتعمق في فهم وإدراك هذا المبدأ الذي هو من الأهمية بمكان ، ويستأهل أن يستشهد في سبيله مثل الحسين بن علي (ع) ، وخليقٌ بنا أن نسير على هذا المثل الحسيني العظيم .

إنّ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، هو المبدأ الوحيد الذي يضمن بقاء الإسلام ، وبعبارة أخرى هو « العلة المُبقية » كما يصطلح عليه الفقهاء .

بل يمكن القول بأنّه لا وجود للإسلام دون هذا المبدأ .

إنه المبدأ الذي على أساسه تتمّ مراقبة وضع المسلمين وحالتهم بشكل دائم ، وهل يمكن لأي معمل ، أو مصنع ، البقاء سالماً ، دون مراقبة ، وصيانة دائمة ، من قبل المهندسين الاختصاصيين ؟

بل هل يمكن لأية مؤسسة أن تستمر في عملها دون ممارسة الرقابة عليها ، ومتابعة شؤونها العامة من قبل الأطراف المعنية ؟ أبداً . وكذلك هو شأن المجتمعات البشرية .

والمجتمع الإسلامي أيضاً ، لا بد وأن يكون كذلك ، بل إنّ درجة الاهتمام لا بد وأن تكون أكثر دقة من غيرها من المجتمعات ، وهل رأيتم إنساناً ليس بحاجة إلى طبيب !

فإمّا أن يكون الإنسان هو طبيب نفسه ، أو أن يكون أحد آخر قد تفرّغ لمعالجته ، وناهيك عن أنّ المعالجة لها حقولها الاختصاصية .

فهذا طبيب للعيون ، وآخر للحلق ، والأذن ، وذلك متخصص في الأمراض النفسية ، والأعصاب إلى غير ذلك من فروع الطب البشري .

فها هو الإنسان إذن يضع بدنه تحت المراقبة الدائمة حتى يصون الوضع العام لجهاز البدن ، ويطمئن عليه .

فهل يمكن القول بعد ذلك إنّ المجتمع البشري لا يحتاج إلى رقابة ومتابعة ؟!

وهل يمكن تصور مثل هذا الأمر ؟! أبداً بالتأكيد وكلاّ .

لقد قُتل الحسين بن علي (ع) على طريق الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، أي على طريق المبدأ الأكثر أساسية ، لضمان بقاء المجتمع الإسلامي ؛ ذلك المبدأ الذي لو لم يكن ، لتلاشى المجتمع الإسلامي ، وتفكك ، وتفرّقت الأمة ، وتقطعت أوصالها ، وانهار بنيانها ، وتناثرت قطعاً قطعاً .

نعم فهذا المبدأ يحمل كل هذه القيمة والأهمية ، والآيات القرآنية الواردة بهذا الصدد كثيرة للغاية .

ففي موارد عديدة نرى أنّ القرآن الكريم يُذكرنا بمصائر عدد من المجتمعات التي انقرضت ، وتلاشت ، وهلكت ، بسبب عدم توفر قوة الإصلاح فيها ، وافتقارها إلى قوة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

نعم فتلك الروح الآمرة بالمعروف ، والنهي عن المنكر وذلك الحس كان قد مات عندهم ، فماتت مجتمعاتهم واندثرت .

والآن دعونا نرّ ما هي شروط الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وكيف نستطيع أنّ نأمر بالمعروف ، وننهى عن المنكر ؟ بل دعونا قبل ذلك نسأل ما هو المعروف ؟ وما هو المنكر ؟ وما هو الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ؟

لما كان الإسلام لم يُرد لموضوع مثل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، أنّ ينحصر ويتحدد بموضوعات مثل العبادات ، والمعاملات ، والأخلاقيات ، والعلاقات العائلية . . . وغير ذلك ، فإنه استخدم مصطلحاً عاماً شاملاً ـ هو المعروف ـ أي كل عملٍ تُشتمّ منه رائحة الخير والإحسان .

فالأمر بالمعروف ضروري ، وفي مقابل ذلك : النهي عن المنكر ؛ فلم يقل

الشرك ، أو الفسوق ، أو الغيبة ، أو النميمة ، أو الكذب ، أو التفرقة ، أو الربا ، أو الرياء ، بل لخص ذلك في كلمة : المنكر أي كل ما هو قبيح ودنيء وحقير .

إنّ « الأمر » هو التكليف ، والواجب ، وأما « النهي » فهو المنع ، والردع ، ولكن ما هو هذا الأمر والتكليف ؟ فهل المقصود منه هو التكليف اللفظي ؟ أي أنْ لا يتجاوز الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر حدود اللفظ ؟ ولا يتعدى عمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دور اللسان ؟

كلّا ، فهناك مراحل للأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، تبدأ بالضمير ، والقلب ، ومن ثم باللسان ، وأخيراً باليد ، أي بالتطبيق العملي .

وهذا يعني أنك يجب أن تعيش بكل وجودك وأنت آمر بالمعروف وناهٍ عن المنكر . فعندما يُسأل الإمام علي عليه السلام عن معنىً نعت القرآن الكريم بعض الأحياء بالأحياء الميّتة ـ مَيْتُ الأحياء ـ ! فإنه يقول (ع) ما مضمونه بأنّ الناس تنقسم إلى فئات ، وطبقات مختلفة ، منهم من إذا رأى المنكر تراه قد تحرك ضميره فوراً ، واشتعلت جوارحه تأثّراً بما رأى ، وبدأ بالنطق بلسانه ناهياً ، ومنتقداً للذي رآه ، ومُنطلقاً في أداء وظيفة الإرشاد ، بل ولا يقنع بذلك أو يكتفي به وإنما يستمر في المحاولة حتى يدخل مرحلة العمل أي شكل من أشكال العمل باللطف ، أو بالخشونة ، بالضرب أو بالتعرض للضرب ، ليس مهما إلى أين تصل نهايات الأمور فالمهم أنْ يستخدم الوسيلة العملية الممكنة للنضال والكفاح ضد المنكر .

وهذا الإنسان كما يقول الإمام علي (ع) هو الحي بكل معاني الحياة .

أما البعض الآخر فإنه عندما يرى المنكر ، فإن قلبه يتحرق تأثيراً مما يرى ، ولذلك تراه يصيح ، ويُنادي ، ويستغيث ، وينصح ، ويعظ من يراه ضرورياً ، وأهلاً للموعظة ، ولكنه لا يتجاوز هذه المرحلة إلى العمل فهذه حدوده وكفى .

والإمام (ع) يقول عن هذا النوع بأنهم أحياء أيضاً وعندهم عدد من خصال الحياة لكنهم يفتقدون إحدى خصالها .

أما الصنف الثالث : فإنك تراه يتحرق ، ويشتعل غضباً ، وتنفراً ، من رؤيته للمنكر ، لكنه لا يُحرِّك ساكناً مقابل ذلك ، بل يكتم تأثيره في داخله فهو يقرأ الجريدة مثلاً وهي تكتبَ عن أيام عاشوراء ، وتصفها بأنها من أيام الأعياد أو أنه ينبغي على الناس أنْ تستثمر هذه الأعياد ، وتستغل أيام العُطلة هذه ، وتنطلق في السفر والترفيه ! إلى ما هنالك من وسائل الدعاية والترويج المضادة لفكر الإمام الحسين (ع) ، ومنهجه ، وذكراه الخالدة .

فالراديو والتلفاز ، وكل أجهزة إعلام البلاد مُعبأة لتحريض الناس بالاتجاه المُعاكس للأعراف ، والتقاليد الإسلامية الخاصة بهذه الذكرىٰ .

ومع ذلك ترى تلك الفئة من الناس لا تُحرِّك ساكناً ، ولا تعترض على ما يجري بأي شكل من الأشكال ، ولا تتساءل حتىٰ لماذا ينشط هؤلاء ضد الإمام الحسين (ع) ؟ ومن هم هؤلاء المُحرِّضون ضد الإسلام ؟! ولماذا لا يكتب أحد ، ويرد عليهم بأنّ للعيد مناسباته ، وأيامه المعروفة[1] .

ومن ثم فإننا نُنادي على الدوام بأنّ قضية الحسين بن علي (ع) قد عُجنت ، واختلطت بأرواحنا ، ونحن جميعاً مدينون لهذا الدين ، وهذه المدرسة ، فهذا البلد بلد الحسين بن علي (ع) ، والبلاد هي بلاد التشيع والإسلام ، والحسين بن علي شعار هذا الشعب وشعار هذه البلاد، فكيف نسمح لأنفسنا أن نرى ونسمع كل هذه الإهانات الموجهة ضد الحسين بن علي (ع) ، والدعوة إلى تحويلها إلى أيام فرح ونُزهةٍ ، واغتنامها فرصة من فرص السفر والترفيه ، ثم نسكت على كل ذلك ؟! وهذه الفئة الثالثة التي نتحدث بصددها الآن ليست حاضرة حتىٰ تُنَبِّه رفاقها وأهلها الأقربين إلى ضرورة احترام شعائر الإمام الحسين بن علي (ع) ، والتحمل ثلاثة أيام فقط من دون الإساءة لهذه الشعائر .

حتىٰ هذا القدر القليل من المحافظة على التراث ، والتقاليد ، والعُرف الحُسيني ، لا يصدر من هذه الفئة ـ وأقولها صراحةً ـ :

نحن لم نصُن الحسين ، ولم نحافظ عليه !

---

(١) لا بد من التذكير هنا بأن هذه المحاضرة إنما ألقيت في زمن العهد البائد .

إنّ الحسين صاننا ، وحافظ علينا حتى الآن ، وكما يقول الفيلسوف الكبير محمد إقبال اللاهوري : « لم يحصل أبداً أنّ المسلمين قد صانوا الإسلام بل إنه الإسلام دوماً هو الذي كان يصون المسلمين » .

فكلما هدد البلاد خطر عظيم تراهم يتمسكون بأذيال علي بن أبي طالب(ع) و(نهج البلاغة) ، ويروحون يبحثون عن خيمة الحسين بن علي (ع) ويبحثون عن ذكراه . ـ والله ـ إنه لينطبق علينا قوله تعالى : ﴿ فإذا ركبوا في الفُلك دَعوا الله مُخلصين لهُ الدين ، فلمّا نجّاهم إلى البَرّ إذا هُم يُشركون ﴾[1] .

وهذا هو الحال في بلادنا اليوم ! لقد رأيناهم كيف كانوا يرددون اسم الحسين بن علي (ع) ، واسم الإمام علي بن أبي طالب (ع) ! لقد كان ذلك قبل خمسة وعشرين عاماً عندما كانوا لا يعرفون اسم الحسين ولا الإمام علي .

وما أن استنفدوا أغراضهم من هذه القضية حتى استفاق العالم على ذكر بابك خُرّم والمقفع ومازيار ـ وبقية الأسماء الفارسية المعروفة ـ . فعندما يُهدد هذه الأمة الأخطار الجدية ، فإنّ بابك خرم يذهب إلى الجحيم ، ولا نراه في الواجهة !

إنهم لا يعرفون الخجل حقاً ! كيف يتجرأون هكذا على محاربة الحسين بن علي ، ويصنعون الأبطال مقابله !؟ تراه للأسف بدلاً من افتخاره بتسمية ابنه بأسماء إسلامية كالحسين وغيرها يُسميهم بابك ، ومازيار ، وجمشيد ، وخورشيد ، خجلاً من الأسماء الإسلامية !

والله إنّ كل هذه التحركات والتصرفات ما هي إلاّ حرب ضد الإسلام ، وإماتة للإسلام ، ولهذا فإن علينا جميعاً أن نحيي شعائر الدين ، وإحدى الشعائر هي الأسماء . فما معنى أنْ يُقال إنّ الاسم الفلاني أصبح قديماً ، ولم يَعُد عصرياً ، أو لا يُناسب الموضة ؟ فهل هناك اسم جديد واسم قديم ؟! ولأن اسم الخادمة الفلانية فاطمة يصبح اسم فاطمة يوحي بانتماء الشخص إلى صنف الخدم ! إنه لأمر عجيب حقاً ! إذن ينبغي أن لا نُسمي بناتنا بعد الآن باسم فاطمة !

هنا بالذات أحد موارد الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

---

(١) سورة العنكبوت : الآية ٦٥ .

نعم فـاحد درجـات الأمر بـالمعروف ، والنهي عن المنكـر . أيها النـاس ! أنْ تُـسموا أبناءكم بالأسماء الإسلامية . (فهذا أمر بالمعروف) . ومن جهة أخرى عليكم ان تحاربوا الأسماء غير الإسلامية (وهـذا نهي عن المنكر) وانتخبوا أسماء إسلامية لمؤسساتكم وبذلك تُحيـوا الأسماء الإسلامية ، وتُحيـوا لسان الإسلام ولغته .

إنَّ اللغة العربية ليست لغة قوم وشعب مُعين ، إنها لغـة الإسلام ، نعم ، فاللغة العربية ليست لغة العرب ، إنها لغـة الإسلام ، فلو لم يكن القرآن لما كـان هذا اللسان موجوداً اليوم !

وإنَّ من أهم واجباتنا اليوم الدفاع عن هذه اللغة وصيانتها .

إنَّ كل ثقافـة وحضارة ، يُـراد لها أن تبقىٰ حيـة ، لا بد من إحيـاء لغتها ، فإذا ماتت لغتها ماتت تلك الحضارة .

إنَّ هذه الحرب العلنية التي تشهدونها اليوم ضـد اللغـة العربيـة ، ينبغي أن تكـون ناقـوساً لإعـلان الخطر عليكم ، ولا بـد أن تفهموا ذلـك جيداً وتُـدركـوه وتتيقظوا لما يُحاك من مؤامرة خفية من وراء ذلك .

فوالله إنها الحرب ضد الإسلام . فلا أحد يحارب الحروف الأبجدية للغـة ! قسماً بالله إنَّ علينا واجب أمام اللغة العربية ، وما ينبغي أن نقوم به هو حفظ هذه اللغة وصيانتهـا ، ومَنْ يستطيـع الوقـوف ضدكم ؟ شكّلوا معـاهد تـدريس اللغة العربية في كل مكان واشرعوا في تعليم أبنائكم ، وأنفسكم ، وأزواجكم .

وصدّقوني إذا ما تعلمتم هذه اللغـة فإنكم ليس فقط لن تخسروا شيئـاً ، بل إنكم ستستفيدون أيضـاً لأنكم كـسبتم تعلُّم لغة حية من لغات الدنيا .

فهـا هي اللغة الإنكليـزية قـد غزت بـلادنا ، ونفـذت في داخل بيـوتنـا في الأعماق ، والدعاية تفرضها علينا فرضاً ، لماذا ؟ هل كل هـذه الدعـاية من أجـل سواد عيوننا ؟ أبداً .

إنهم يروجون لهذه اللغة الإنكليزية حتى يفـرضـوا عـاداتهم ، وتقاليـدهـم ، علينا ، ويوجهـوا ثقافتنـا وتربيتنـا ، نحو أفكـارهـم ومدنيتهم ، إنهم يـريدون من

وراء ذلك فرض روحهم ، وروحيتهم ، علينا حتى يذيبوا شخصيتنا وروحنا وإرادتنا .

كم كُنا نحن المسلمين غافلين ولا نزال ، ليس الإيرانيون وحدهم مصابين بهذا المرض ، بل أينما يضع الإنسان قدمه في عالم الإسلام سيرى كيف أن المسلمين قد ظلوا نياماً ولمدة قرون ، لكن والحمد لله فقد بدأت تظهر بوادر اليقظة بين صفوف المسلمين . . .

إنه لأمر يدعو إلى الأسف الشديد أن يرى الإنسان المسلمين القادمين من بلدان مختلفة يجتمعون في مكة أو المدينة ،وتكون لغة التفاهم فيما بينهم اللغة الإنكليزية !

إنه مخطط عملوا من أجله ، ولا زالوا منذ أكثر من أربعمئة عام ، ولكن أما آن الأوان لنا أن نستيقظ ونواجه هذه المخططات ؟! قال تعالى : ﴿ كُنتُم خير أمةٍ أُخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ﴾[1] .

إنّ هذا الواجب الكبير ـ والذي هو الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ـ له ركنان ، أو شرطان أساسيان :

أولهما النمو المعرفي ، وامتلاك البصيرة بالأشياء . فأنا عندما أقول لكم الآن بضرورة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فإنكم حتماً ستخرجون من هنا وأنتم تقولون دعونا ننطلق حالاً ونبدأ ممارسة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

ولكنني قبل ذلك أسألكم :

وهل نحن نعرف حقاً ما هو الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ؟ وكيف يجب أن نُمارس هذه الوظيفة ؟ لا سيما وأن الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، بالنسبة لنا كان حتىٰ الآن ، لا يتعدى الأمور الحياتية البسيطة ، التي تتلخص بمتابعة المظاهر السلوكية للناس ، من لباس ، وهندام ، وهيئة عامة !

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١١٠ .

فنحن لم نتعرف على كُنه المعروف الحقيقي بعد ولا كنه المنكر الحقيقي !

وربما كنا في بعض الأحيان نأخذ المعروف مكان المنكر أو العكس من ذلك ، والأفضل لنا نحن الجهلاء أن لا نقوم بمهمة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر إذ ربما زُرع المنكر وانتشر بسبب هذا النوع من ممارسة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

نعم فالمرء على العموم بحاجة إلى المعرفة ، والبصيرة ، والخبرة ، والاطلاع ، والعلم بالشيء ، وشيء من علم النفس ، وعلم الاجتماع ، قبل أن يُمارس مهمة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

أي إنّ عليه أن يُشخص المعروف أولاً ، ويُحدد موقعه ، ثم يُشخص المنكر ، ويكشف عن جذوره ومنابع نموه .

ولذلك ترى أنّ أئمة الذين قالوا في هذا الشأن :

الأفضل أن لا يقوم الجاهل بمهمة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر لماذا ؟ « لأنه ما يُفسده أكثر مما يُصلحه »[1] .

ذلك أنّ الجاهل ربما جاءت نتيجة عمله مُغايرةٌ لما أراده من إصلاح كأن يُسيء لشخصٍ أراد من خلال ممارسة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، الإحسان له ، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً .

وهنا ربما تقولون : إذاً فقد سقط عنّا نحن الجُهّال واجب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ! لكن القرآن يرد على هذه المقولة بقوله تعالى : ﴿ لِيَهْلِكَ من هلك عَن بَيِّنَةٍ ، ويحيى من حَيّ عن بينةٍ ﴾[2] ، أو ﴿ لِئَلا يكون للناس على الله حُجّة بعد الرُّسل ﴾[3] .

وفي سؤال أحدهم لأحد الأئمة المعصومين عليهم السلام ، عن كيفية

---

(١) الكافي الجزء الأول ص ٤٤ (باب العمل بدون العلم) .

(٢) سورة الأنفال : الآية ٤٢ .

(٣) سورة النساء : الآية ١٦٥ .

محاسبة البعض الجاهل من الناس ، يوم القيامة ؟ يقول عليه السلام ما مضمونه :

يأتون في ذلك اليوم المشهود بعالِمٍ ويسألونه عن سبب تخلّفه عن ممارسة الواجب ؟ ولا يكون عنده جواب فينال جزاءه المعلوم ، ويكون مصيرهُ العار والذل .

ومن ثم يأتون بآخر ويسألونه عن سبب تخلفه ؟ فيقول لم أكن أعلم ! فيقولون له : « هلاّ تَعَلّمت »[1] . إذ إنّ عدم المعرفة والفهم ليس عُذراً مشروعاً ، وإلاّ فما هو الهدف من وراء خلق الله سبحانه وتعالى للعقل ؟

نعم فالله تعالى إنما خلق العقل ، ووهب لنا هذه النعمة ، حتىٰ نُفكّر ، ونتفحّص ، ونُحقّق ، ونُدقّق بالأمور ، صغيرها وكبيرها .

نعم ليس علينا أن نكتفي بفهم أوضاع زماننا فقط ، بل إنّ علينا أن نفهم وندرك ما يُخبّئهُ لنا المستقبل .

فأمير المؤمنين علي (ع) يقول : « ولا تتخوف قارعةً حتى تُحُلّ بنا »[2] .

ولكن للأسف فإنّ شعبنا أصبح جاهلاً بشؤون حياته ، ولا يدري ما يُخبىء له الدهر من بلاء ، فهو لا يدرك حجم المأساة إلاّ بعد وقوعها ، وغير قادر على التنبؤ بها .

علينا أن نتعلّم التنبؤ بوقوع الأحداث قبل حدوثها ، نعم لا يجوز لنا الاكتفاء بفهم أحوالنا الراهنة ، بل علينا أن نستنبط ونستقرىء من الآن ما ينتظرنا من مصائب بعد خمسين سنة من الآن ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتينا إبراهيم رُشْدَهُ ﴾[3] .

إنّ إحدى الخصائص المميزة لنهضة الحسين بن علي (ع) هي النظرة الفاحصة والثاقبة التي امتاز بها الإمام (ع) ، فهو كان يرىٰ في الأفق أموراً

---

(١) أمالي المفيد ص ٢٢٨ .

(٢) نهج البلاغة الخطبة رقم ٣٢ .

(٣) سورة الأنبياء : الآية ٥١ .

ويستقرىء في أحشاء حركة الزمان أحداثاً ، لم يكن لأحد غيره القدرة على رؤيتها .

صحيح أننا نجاس اليوم هُنا ، ونُحلّل بكل سهولة أحداث ذلك الزمان ، لكن رجال ذلك العصر لم يكونوا يُدركون ما كان يُدركه الحسين بن علي (ع) .

إنها ليلة التاسع من مُحرّم ، وحري بنا أن نذكر بالخير ذلك المُجاهد في سبيل الله ، الآمر بالمعروف ، والناهي عن المنكر ، ذلك الرجل الذي نال رضا الحسين بن علي (ع) بالتمام والكمال ، إنّه حضرة العباس عليه السلام .

ولكن قبل ذلك أقول : إنّ العلاقات في ذلك الزمان ليست كما هي حالها اليوم . فالأحداث التي كانت تحصل في الشام ، لم يكن يسمع عنها أهل الكوفة ، أو أهل المدينة إلاّ بعد مُضي فترة طويلة ، وأحياناً لم يكونوا ليسمعوا بها على الإطلاق .

وأفضل دليل على ذلك قصة أهل المدينة مع يزيد ، فالحسين بن علي (ع) يقوم في المدينة ويناهض تنصيب يزيد للخلافة ، ويرفض مبايعته ، ويتجه نحو مكة ، ومن ثم يتتابع مسلسل الأحداث المعروفة ، ويستشهد الحسين (ع) ، وإذا بأهل المدينة يستفيقون فجأة من غفلتهم ، ويفركون عيونهم ، ويتساءلون عن سبب استشهاد الحسين ؟ ويُقررون التوجه نحو الشام لمعرفة حقائق الأمور ؟

وهكذا يُقررون إرسال وفد من سبعة أو ثمانية أشخاص إلى الشام ، ويتوجه الوفد بالفعل إلى الشام ، ويُقيم مدةً فيها ، ويُحقق في أوضاعها ، ويلتقي الخليفة الجديد ، وبعد أنّ يطلّع تماماً على أحوال البلاد هناك ، يعود إلى المدينة ، فيسأله أهلها عن سر الأحداث الحاصلة ، فيجيبونهم قائلين : لا تسالوا كثيراً فنحن كنا نخاف أن تمطر علينا السماء حجارةً ، ونحن مُقيمون في الشام ، فيُقضى علينا - لشدة سوء الأحوال المحيطة بالخليفة وأعوانه ، والغضب الإلهي المتوقع - [أي إنهم قد أدركوا لتوّهم ماكان قد نبّه إليه وحذّر منه الحسين (ع) في بداية نهضته عندما قال : « وعلى الإسلام السلامُ إذ قد بُلِيَتْ الأمّة براعٍ مثل يزيد »[1] .

---

(١) مقتل المقرم ص ١٤٦ .

نعم في حينها فقط أدركوا ما كان يُحذّر منه الحسين بن علي ، وعندما يسألهم أهل المدينة : وكيف ذلك ؟ يقولون :

يكفي أن نقول لكم إننا عائدون من عند شارب للخمر علناً ، ومِنْ لاعب بالكلاب والقرود ، وفاسق لا يعرف الحلال والحرام - وبتعبيرهم - وزانٍ بأهله ومحارمه .

وهذا اكتشاف متأخر للحقيقة التي قال بها أبو عبد الله الحسين منذ اليوم الأول لتنصيب يزيد .

أمر آخر تنبّأ به عليه السلام ، يوم العاشر من محرّم ، عندما قال : إنهم سيقتلونني ، ولكنهم بعد مقتلي سوف لن يتمكنوا من الاستمرار بالحكم .

وفعلاً لم يتمكن آل أبي سفيان من الحكم بعد مقتل أبي عبد الله ، وليس فقط آل أبي سفيان بل إن آل أمية أيضاً لم يتمكنوا من المحافظة على السلطة طويلاً إذ أخذها منهم بنو العباس ، وحكموا هم الآخرون على نفس القاعدة خمسة سنة .

وهكذا يمكن القول : إنّ حكومة بني أمية قد ظلّت تعاني من التزلزل ، والاهتزاز ، طوال فترة تسلطها بعد حادثة كربلاء . وهل هناك أثر أعمق ، وأوضح لهذه الحادثة التاريخية ، من بروز المعارضة في داخل بني أمية نفسها ، الأمر الذي يُبيّن لنا القوة المعنوية العالية لحادثة كربلاء .

فهذا شقيق ابن زياد الشقي ، عثمان بن زياد ، يقول لأخيه : أخي ! إنني كُنت أفضلُ أن نُبتلى جميعاً بالفقر ، والذل ، والهوان ، والفاجعة ، على أنْ يُسجّل التاريخ ارتكاب مثل هذه الجريمة في سجل عائلتنا .

وأمهُ مرجانة المعروفة بالزانية بعد أن قام ابنها بارتكاب ذلك العمل البشع تقول له :

بُني ! لقد قمت بما قمت به ، ولكن اعلم أنك بعدها لن تشم رائحة الجنة .

مروان بن الحكم ، ذلك الشقي الأبدي له شقيق باسم يحيى بن الحكم ،

وقد كان حاضراً في مجلس يزيد تـراه يقوم مُعـترضاً في ذلـك المجلس وهو يقـول : سبحان الله ! وهل يكون الاحترام والتقدير لبنات سُمية (أي أولاد أم زياد) وتأتي ـ مخاطباً يزيد ـ بـآل النبي ، وهم على هـذه الحالـة ـ المُزريـة ـ في هذا المجلس ؟! نعم إنه النداء الحُسيني الذي ينطلق مُجدداً من أعماق بيوت بني أمية نفسها .

وأما قصة هند زوجة يزيد ، فإن الجميع قد سمع بها ، إذ خرجت معترضةً من داخل بيت يزيد ، الأمر الذي أجبر يزيد على التراجـع ، وإنكار مسؤوليتـه عن الجريمة ، وادّعائه بعدم رضاه عما حصل ، وإلقاء المسؤولية في ذلك على عـاتق ابن زياد وحده .

وهكـذا توالت بعـد ذلك الحـوادث التي تنبأ بهـا الإمـام الحسين (ع) لبني أمية ، فيزيد يموت قبل أن يُنهي ثلاث سنوات من تسلطه على العرش ، عاشها في ظل أزمات متلاحقة ، ويخلفه ابنه معاوية بن يزيد الذي كان يـأمل معـاوية بن أبي سفيان من خلال تـأسيسه الحكم الأمـوي أن تدوم لهـا أي ليزيـد وابنه معـاوية ، الخلافة طويلاً . يأتي هذا الرجل معاوية بن يزيد ، وبعد مرور اربعـين يومـاً على تسلُّمه عرش الخلافة ، فيصعد المنبر وينادي بالناس :

أيها الناس ! إنّ جدي معاوية قد حارب علي بن أبي طالب ، وقد كان الحق إلى جانب علي ، وليس إلى جانب جدي ، كما أنّ أبي يزيد قد حـارب الحسين بن علي ، وقد كان الحق إلى جانب الحسـين ، وليس إلى جانب أبي ، وأنـا بريء من مثل هذا الأب ، وأنا بدوري اليوم لا أرى في نفسـي صلاحيـة الخلافـة ، وحتى لا أرتكب من الخيانات التي ارتكبها كل من جدي وأبي ، أُعلن استقالتي ، واعـتزالي من الحكم .

نعم فقد ترك الخلافة وشأنها بالفعـل ، كل ذلـك حصل بقـوة الحسين بن علي (ع) ، بقوة الحقيقة التي أثّرت في الصـديق والعدو .

قـال الإمام الصـادق (ع) : « رَحِـم الله عمّي العباس لقـد آثَرَ وأبـلى بـلاءً حسناً »[1] . لقد كان عليه السـلام بمنتهى المروءة ، وقـد قدّم كـل شيء على طبق

---

(١) إبصار العين ص ٢٦ .

من الإخلاص التام في النية ، وكان مثالاً في التضحية والفداء ! ونحن مع ذلك لا نرى إلاّ الجانب المادي من حركة العباس عليه السلام ، ولا نلاحظ روح عمله الكبير حتى نُدرك مدى الأهمية البالغة التي تُميّز فعل العباس وحركته .

في ليلة العاشر من محرم وبينما كان العبّاس في خدمة أبي عبد الله الحسين (ع) ، وإذا بأحد رؤوس الفتنة من الأعداء ، يُنادي بأعلى صوته ، بأنه قد جاء بالأمان للعباس وأُخوته من طرف ابن زياد .

أمّا العباس الذي سمع صوت المُنادي ، فإنه ظل جامداً لا يتحرك ، وهو ينظر إلى الحسين بن علي بكل خشوع واحترام ، ولا يبالي بقول ذلك المُنادي ، وكأن شيئاً لم يكن ، إلى أن طلب منه الإمام أن يرد عليه ، وإن كان فاسقاً .

ليخرج العباس ليرى أنّ المنادي هو شمر بن ذي الجوشن ، الذي تربطه بالعباس رابطة قرابة بعيدة عن طريق الأم ، وقد تصوّر أنّه قادم من الكوفة ، وقد حمل خبراً وبشارة إلى العباس وأخوته بفضل هذا الأمان ، لكن العباس ردّه بكل عنف ، وبكل مروءة الرجال ، وهو يقول له :

لعنك الله ، ولعن من أرسلك بهذا الأمان . وماذا تعرف عني ؟ وماذا تتصورني ؟ وهل تخيّلت أنني ومن اجل سلامتي ، سأتخلى عن إمامي وأخي الحسين بن علي (ع) وألتحق بك ؟ أنني قد كبرتُ في حُضن يأبى ذلك مني والثدي الذي أرضعني يتنفض من مثل هذا التصرف الخائن .

نعم ، فأمه هي ام البنين ، زوجة علي عليه السلام ، التي ولدت له أربعة أولاد وهي التي يكتب المؤرخون عن زواجها أنّ علياً قد طلب من أخيه عقيل أن يبحث له عن امرأةٍ : « ولدتها الفحولة لِتَلِد لي ولَداً شجاعاً » .

وبالطبع فإنّ متون التاريخ لا يوجد فيها سندٌ يبين عن الأهداف التي كانت تراود علياً من تحقيق مثل هذه الأمنية ، إلاّ أنّ العارفين بنظرة علي الثاقبة ، وقراءته للمستقبل ، يعترفون ويؤمنون بأنّ علياً كان يقرأ صفحات المستقبل ، والدور المطلوب من مثل هؤلاء الأولاد فيما بعد .

على أيّ حال فقد اختار عقيل أم البنين زوجةً لأخيه علي ، وهي التي



أنجبت أربعة شجعان من الأولاد ، أكبرهم وأرشدهم أبو الفضل العباس . وهؤلاء الأربعة جميعاً تحركوا في ركاب أبي عبد الله الحسين واستشهدوا معه في كربلاء .

فعندما يصل دور بني هاشم في المعركة ، يتقدم أبو الفضل العباس ويقول لأخوته ، بانه يتمنى لو أنهم يتقدّمون قبله إلى الميدان لأنه أراد أن يُدرك أجر شهادة الأخ .

وبالفعل فقد لبّى أخوته النداء ، واستشهد ثلاثتهم ، ثم جاء دور أبي الفضل ، ولَحِق بهم .

هذه الامرأة الجليلة (أم البنين) التي كانت لا تزال على قيد الحياة ، ولكنها لم تكن حاضرة في واقعة كربلاء ، استشهد لها أربعة أولاد ، وعندما وصل نبأ استشهادهم لها ، وهي في المدينة ، يُقال إنها صارت تُقيم لهم المآتم ، وتجلس في الدروب أحياناً على الطريق المؤدية إلى العراق ، وأخرى في البقيع ، وتندبهم وتبكيهم بُكاءً تتفطر له الأكباد ، وترثيهم بأبيات من الشعر فيها منتهى الحزن والتأثر حتى إنه ليُقال إن مروان بن الحكم ، وهو حاكم المدينة آنذاك ، ومع كل العداء والقساوة التي كان يحملها في قلبه ضد آل البيت كان يتوقف أحياناً ، ويبكي لرثاء أم البنين لأولادها . تقول أم البنين في إحدى مرثياتها المعروفة :

لا تدعوني ويكِ أمَّ البنين ... تُذكرني بليوث العرين
كان لي بَنُونَ أُدعى بهم ... واليوم أصبحت ولا مِنْ بَنين

وفي أخرى لها ، وهي ترثي أبا الفضل العباس (ع) ، تقول :

يا من رأى العباس كرَّ على جماهير النقد
ووراءه أبناء حيدر كُلُّ ليثٍ ذي لَبد
أُنبئتُ أنّ ابني أُصيب برأسه مقطوع يد
ويلي على شبلي أمال بِرَأسهِ ضربُ العَمَد
لو كان سيفُك في يديك لَمَا دنا منك أحد

الله أكبـر لفجاعة المأساة ، والله أكبر لتلك المُروءة ، ولتلك الأم التي ولدتها الفحولة .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
وصلى الله على محمد وآله الطاهرين .



المحاضرة الرابعة

مراحل وأقسام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

بسم الله الرحمن الرحيم(*)

الحمد لله رب العالمين ، باريء الخلائق أجمعين ، والصلاة والسلام على عبد الله ، ورسوله ، وحبيبه ، وصفيه ، سيدنا ونبينا ومولانا ، أبي القاسم محمد ، وآله الطيبين ، الطاهرين ، المعصومين . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

﴿ التَّائبون ، العابدونَ ، الحامِدونَ ، السائحونَ ، الراكعون ، السَّاجدون ، الآمرون بالمعروفِ ، والنَّاهونَ عن المنكرِ ، والحَافِظونَ لِحُدودِ الله ، وَبَشِّر المؤمنين ﴾[1]

إنَّ علماء المسلمين قسَّموا الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، إلى درجات وأقسام ومراحل أيضاً . .[2] ولا بد أن يكون لديه كره عميق . أي ينبغي أنْ يكون هنالك جذور للأمر في روحه ، وقلبه ، وضميره .

ثم في المرحلة اللاحقة كما يذكرون فإن المرتبة الأولى من مراتب النهي عن

(*) لقد ألقيت هذه المحاضرة في التاسع من محرم الحرام من العام ١٣٩٠ هجرية .

(١) سورة التوبة - الآية ١١٢ .

(٢) يوجد هنا انقطاع في التسجيل لصوت الشهيد ، ولذلك تلاحظون انقطاعاً في الحديث .



المنكر ، أو الخطوة الأولى المطلوبة في هذا الاتجاه هي الهجر والإعراض . أي إنك عندما تلقى فرداً أو مجموعة يقومون بارتكاب المنكر ، أو العمل القبيح ، فإنّ عليك ، ـ وبمثابة نوع من النضال ضد ذلك العمل القبيح ، وليس ضد ذلك الشخص ـ وحتى تكون خطوتك ذات مفعول ردعي لدى ذلك الشخص ، أن تقوم بالإعراض عنه وهجرانه ، أي قطع العلاقة معه .

على سبيل المثال نفترض أنّ صديقاً عزيزاً عليك ، ومن أصحابك ورفاقك الدائمين ، تربطك وإياه صداقة حميمة ، وبينكما عشرة طويلة لا يُكدِّرها شيء يُذكر ، وإذا بك فجأةً تسمع أخباراً سيئة عنه ، وتتأكد من أنه قد ارتكب بالفعل ذنوباً كبيرة ، وقام بأعمال قبيحة يندى لها الجبين .

هنا بالذات يتطلب الواجب ، أي واجب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، يتطلب منك أن تُظهر له عدم رضاك عن أعماله تلك ، وتعامله لبعض الوقت معاملةً باردة ، عقاباً على ما ارتكبه ، لعلهُ يرتدع ويحسُّ بالخجل من ممارساته السيئة .

بالطبع ينبغي هنا أن يكون تصرفك منطقياً ، وخالياً من أي نوع من أنواع التعنُّت أو الاستعلاء ، أو الإساءة .

بمعنى آخر ينبغي أن يكون أسلوبك بشكل يؤدي به فعلاً إلى الارتداع عن ممارسة تلك الأعمال المذكورة بعد أن يحس بنوع من العذاب والمعاناة الروحية الناتجة عن برودة المعاملة الجديدة ، وإلاّ يكون رد الفعل المقابل معاكساً أحياناً .

فقد يصادف أنّ ابنك ، أو صديقك ، أو أحد أقاربك وهو من الذين ابتلوا بممارسة عمل المنكر ، ينتظر في الواقع تلك الفرصة التي تقطع أنت فيها علاقتك معه ، وتهجره حتى يتفرغ هو لمتابعة أعمال المنكر التي غرق في أجوائها ، وتكون أنت بممارستك للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بهذه الطريقة المذكورة ، قد أتحت له الفرصة في الاستمرار بممارسة أعماله السيئة بدلاً من نهيه عنها .

وفي مثل هذه الحالة لا يجوز استخدام هذه الطريقة ، لأنك تكون بذلك قد ساهمت في تعزيز موقع المنكر والرذيلة ، وشجعت الطرف المقابل على مزيد من

الارتماء في عالم الشر والمنكرات ، وهذا أمر غير جائز أبدا .

إذاً عندما يقول العلماء بأنّ إحدى درجات الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، هي الإعراض ، والهجر المقصود ، هو أن تكون هذه الوسيلة مؤاتية ، ومناسبة ، وتكون ممارستك لها تؤتي ثمارها حقاً ، وتكون تلك الوسيلة طريقاً إلى عقاب الطرف الآخر .

وهناك بالطبع نوع آخر من الإعراض ، والهجر ، لكنه يأتي في سياق مختلف ، ولا علاقة له بعملية النهي عن المنكر ، كأن تكون مثلاً على علاقة وطيدة ، وربما علاقة قرابة أيضاً ، مع إحدى العوائل وتكون هذه العائلة مبتلاة بنوع من أنواع الفساد ، فتقوم أنت وحفاظاً على سلامتك ، وسلامة عائلتك ، بالإعراض عن معاشرة تلك العائلة حتى لا يسري مرض تلك العائلة إلى محيط عائلتك ، وبالتالي تقطع العلاقات بينك وبينهم ، وهذا أمرٌ آخر لا علاقة له بمهمة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

من هنا يمكن القول إنّ الأمر يعود إلى تشخيص المرء نفسه ، فإذا ما كان استمرار العلاقات بين الطرفين يؤدي إلى تشجيع الطرف الآخر ، واستمراره في ممارسة الأعمال السيئة ، يصبح عند ذلك من الواجب عليك أن تهجر صديقك المُبتلى ، وتقاطعه ، حتى يحس بعذاب ومعاناة تلك القطيعة ، ويتأثر روحياً ، لعلّه يرتدع عن الاستمرار في عمل المنكر ، وهذه درجة من درجات النهي عن المنكر .

أمّا الدرجة الثانية التي يوصي بها العلماء والروحانيون ، فهي مرحلة اللسان ، أي مرحلة النصح ، والإرشاد ، والوعظ :

فقد يكون المُبتلى بعمل المنكر ، أو الأعمال القبيحة ، إنما هو يعاني من الجهل ، وعدم المعرفة ، وواقع تحت تأثير سلسلة من الدعايات ، والتوجيهات الضارة ، وبالتالي تراه بحاجةٍ إلى مُعلّم ، ومُربٍّ ، ودليل ، يُخرجه من ذلك النفق المظلم .

وتراه بحاجة إلى من يُنير له الطريق ، من يتكلم إليه باللغة المناسبة ، والكلام الطيب ، وبكل رأفة وحنان ، ويشرح له مفاسد وعيوب طريق

الضلال ، وبالمقابل فوائد الصراط المستقيم ، حتى يكتسب المعرفة اللازمة للخروج من المأزق .

وهذه درجة أخرى من درجات النهي عن المنكر ، بمعنى آخر إذا كُنا نحن في محيط شخص ما من أولئك الأشخاص الذين يرتكبون المنكر ، وكان باستطاعتنا استخدام منطق الهداية ، والنصح لإقناع ذلك الشخص بضرورة ترك تلك الأعمال ، فإنه يصبح من الواجب علينا استخدام ذلك المنطق الملائم دون تردد .

أمّا المرحلة الثالثة فهي مرحلة العمل والممارسة ، فأحياناً يكون الطرف المقابل في حالةٍ ودرجةٍ من درجات الاستغراق في عمل المنكر بحيث لا يفيد معه لا وسيلة الإعراض والهجر ، ولا استخدام منطق النصح والإرشاد ، فكلاهما لا يردعانه عن الاستمرار في ممارسة المنكرات ، وعندها لا بد من دخول ميدان العمل .

ولكن كيف ندخل هذا الميدان ؟ فدخول ميدان العمل والممارسة ، يختلف من حالة إلى حالة ، ودخول مرحلة العمل لا يمكن تلخيصها في استخدام العنف فقط ، وإلاّ أدى الأمر إلى الاحتكاك ، ونزف الدماء ، كما أن حصول مثل ذلك ربما يكون ضرورياً أحياناً كوسيلة من وسائل العقاب والردع .

نعم فهناك حالات لا بد من استخدام العنف فيها ، فالإسلام دين الحدود والتعزيرات ، أي إنه دينٌ يرى أنّ مراحل الإجرام قد تصل إلى درجة أحياناً لا بد للمُشرِّع فيها من استخدام وسائل الردع العملية ، لأنها تكون عند ذلك الطريقة الوحيدة الرادعة عن استمرار عمل الشر والمنكر .

لكنه لا يجوز لنا أنْ نرتكب الخطأ ونتصور أنّ كافة الحالات يمكن معالجتها بالخشونة والعنف .

إنّ علياً عليه السلام يصف النبي الأكرم محمداً(ص) فيقول: « طبيبٌ دوّارٌ بطبِّه ، قد أحكم مَراهِمَهُ ، وأحمى مياسِمَهُ »[1] أي إنّ رسول الله (ص) كان

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٠٧ .

يمارس نوعين من العمل ، أحدهما يغلب عليه طابع اللطف ، والحنان . والملامسة الرقيقة لمشاعر الناس ، وقد أورد عليه السلام كما نرى اللطف ، والحنان أولاً أي المعالجة الرقيقة للأمور - « أَحْكَمَ مَرَاهِمهُ » - وبكل لطف ، يعالج موضوع مكافحة المنكر .

ولكن ما أن تصل الأمور إلى الحد الذي لا ينفع بعده اللطف ، والمعالجة الرقيقة ، فإنه صلى الله عليه وآله وسلم لا يترك الأمور هكذا بل يتحول العلاج إلى مرحلة العمل الجراحي والكيّ بالنار .

بعبارة أخرى يمكن القول إنّ النبي (ص) كان ينتخب مرهمه بكل دقة وعناية ، مما يترك الأثر المفيد في نفس الإنسان ، وفي حال تطلب الأمر الانتقال إلى العمل الجراحي ، والكـيّ ، فإنّ العملية تحصل بكل عمق وقاطعية ممكنة أيضاً .

كان هذا ما يخص النهي عن المنكر ، والآن كيف يمكن أداء واجب الأمر بالمعروف ؟ بأي شكل وأي أسلوب ينبغي ممارسة هذا الواجب ؟

نقول إنّ الأمر بالمعروف أيضاً فيه مراحل ودرجات ، مع فرق : انّ الأمر بالمعروف ينقسم إلى قسمين فقط : لفظي وعملي .

واللفظي هو ما يقوم الإنسان بشرحه وتبيانه للناس بلسانه ، فيُلقي عليهم الحجة ببيان الحقائق ، وتنوير الناس بأعمال الخير ، وتشجيعهم على فعله ، وتشخيص مصاديقه في كل عصر وزمان .

إنّ الأمر بالمعروف عمل لا ينبغي للإنسان أن يقنع ، ويكتفي بالقول منه فقط ، فالقول وحده ليس كافياً . ويمكننا القول إنّ أحد أمراض مجتمعنا الراهن هو كوننا نولي أهمية فوق الحد للقول والكلام .

بالطبع لا أريد هنا أن أنكر قيمة القول ، والكلام ، فالقول له قيمته البالغة . وما لم يكن هناك قول ، وشرح ، وبيان للحقائق ، لا يمكن إنجاز أي عمل كان .

ولكن لا يجوز أن يكون هدفنا الوصول إلى غاياتنا كلها عن طريق القول والكلام ، وبذلك نكون مثل أولئك الذين يُريدون حلّ المعضلات كافة بالدعاء والاستغاثة . وانتظار المعاجز من وراء تلك الاستغاثة . فترانا نود لو أننا ندخل ميدان الصراع بقوة اللفظ والبيان فقط ، بينما حال الأمور غير ذلك تماماً ، « فالقول » شرط ضروري لكنه ليس كافياً ، إذ ينبغي العمل والممارسة .

ثم إنّ للأمر بالمعروف اللفظي ، والأمر بالمعروف العملي طريقان :

طريق مباشر ، وآخر غير مباشر .

فأحياناً يتم الأمر بالمعروف ، أو النهي عن المنكر ، بواسطة الدخول المباشر بالموضوع ، فيقول المرء ما يُريد قوله مباشرةً، كأن يُريد أحدنا الطلب ، من شخص ما ممارسة عمل معين ، فيقول له أرجو منك أن تقوم بالعمل الفلاني ، ولكن قد يحصل الطلب في أحيانٍ أخرى بشكل غير مباشر من خلال إفهام الطرف الآخر بما هو مطلوب منه أن يقوم به دون التصريح بذلك الطلب ، وهذا الأسلوب البتّة أكثر إفادة وتأثيراً .

وهو أنْ تمجّد عملاً قام به أحد من الناس أمام الشخص الذي تُريد منه القيام بمثل ذلك العمل ، وهكذا تكون قد شوقته ، وشجعته على ممارسة العمل المطلوب ، أو أداء الواجب المفروض ، من خلال مدح وتبيان فوائد مثل تلك الأعمال ، بشكل عام ، فيفهم الطرف المقابل هدفك وغرضك ، دون استنفار في الأحاسيس ، فيحصل المطلوب بشكل أفضل من أسلوب التصريح المباشر .

وإليكم مثالاً حول الأسلوب غير المباشر في طرح القضايا ، وذلك من خلال عرض الحديث المشهور عن الإمامين المُطهرين الحسن والحسين عليهما السلام :

يقول الراوي إنّه صادف يوماً أنّ الحسن والحسين (ع) ، وهما سائران في الطريق ، وإذ بهما يلتقيان بشيخ عجوز ، كان يؤدي فريضة الوضوء ، بطريقة خاطئة ، مما يعني بطلان وضوئه .

ولما كانا لا يزالان شابين صغيرين ، وأمامهما واجب إفهام الشيخ



العجوز ، ببطلان وضوئه ، ولما يتميزان بـه من نظرةٍ حـادةٍ ، ومعرفـةٍ دقيقةٍ ، في تقـاليد الإسـلام والأعـراف ، والعادات الـدينيـة المفـروضـة ، وحتى لا يجـرحـا أحاسيس شخصية الـطرف المقابـل ، وشعوره ، من خـلال التصريح لـه ببطلان وضوئه ، ويكون رد الفعل الأولي المتوقع من قبل الـرجل ، هـو رفض تدخلهـما ، وردّ قولهما ، لذلك كله قررا أن يذهبا إليه ، ويشرعا في الوضـوء أمامـه ، ويطلبـ منه أن يحكم بينهما على صحة الوضوء الذي يقوم به كل منهما .

ولمّـا كان المتـوقع من الشيـخ الكبير ، قبـول مثل هـذا التحكيم بين طفلين صغـيرين ، فقد طلب إليهـما أداء الـوضـوء ، وبـالفعل تـوضـأ كـل من الحسـن والحسـين ، وضـوءاً كـامـلاً ، أمـامـه ، وإذا بـالشيـخ الكبـير يلتفت إلى بـطلان وضوئه ، فيقول لهما : إنّ وضوء كليكما صحيح ، ووضوئي كان باطلاً . . . !

نعم هكذا ينبغي العمل على تصحيح أخطاء الآخرين ، وإلاّ يمكن لكم أن تتصوروا الطريقة الأخرى التي كان من الممكن اتباعها ، كأن يتـوجها إليـه فوراً ، ويقولا له : أيها الشيخ ! ألا تخجل من نفسك ؟ ! وأنت بهذه الشيبة البيضاء ، لا تزال تجهل عمل الوضوء ؟! إلى غير ذلك من الكلام الجـارح . ولكن تأكـدوا فإنّ نتيجة ذلك كانت حتماً ستؤدي بالشيخ إلى ترك الصلاة ، والنفور منها .

ينقـل أحد الخـطباء : إنّـه كان لـديه صـديق في (مشهد المقـدسة) ممن لا يعرفون الصـلاة ، أو الصوم أبـداً ، بل إنه لم يكن يعتقد بـأي شيء في الدنيـا ، ويمكن القول باختصار إنه كان رجلاً مناهضاً للدين من أساسه .

يقول الخطيب : ولكن بعد فترة لا بأس بها من الحديث ، والحوار مـع هذا الرجل ، وتبيان معالم الـدين له ، تغـيّرت شخصيته بـالفعل ، وصـار شيئاً فشيئاً يتوجه نحو التمسـك بأداء الفرائض ، حتى صار رجلاً مؤمناً ، وملتزماً حقاً ، وتغيّر كليةً عن واقع حياته السـابق ، ولم يَعُد يكتفي بأداء الفروض اليومية ، وهـو الرجـل صاحب المنصب الإداري الحسّـاس في الدولة آنـذاك ، بل صـار مُقيّداً في مغـادرة دائرته الحكـومية ، للحضـور إلى صلاة الجـماعة في المسجـد ، ويُصلّي خلف إمام المسجد آنذاك ـ المرحوم النهاوندي ـ بل ويلبس العباءة الخاصة بالصلاة ، ويشترك في الجلسـات الدينية التي كانت تُعقد في المسـجد .

ولكن فجأة يقول الخطيب : انقطعت أخبار الرجل ، ولم نَعُد نشاهده في المسجد ، فتصورنا أن الرجل ربما سافر من (مشهد) ، ولمّا سألنا عنه بعض الأخوة قالوا لنا : إنه لا يزال في (مشهد) لكنه لا يود المشاركة في صلاة الجماعة ، ولا في جلسات المسجد الدينية ، الأمر الذي دفعنا للتحقيق في سر هذا التحوُّل الجديد للرجل ، والسبب الذي دفع به لاتخاذ مثل هذا التصميم ، بعد أن كان قد اندفع كل تلك الاندفاعة نحو الدين ، وممارسة المراسم الدينية ، وإذا بنا نكتشف القصة التالية :

يقول الخطيب اكتشفنا أنّه ، وبعد مضي فترةٍ بسيطة على تردّد الرجل المذكور إلى المسجد ، ليُصلي الجماعة ، وفي الصفوف الخلفية تقريباً ، وإذا به يوماً يأتيه أحد المشايخ المُقدّسين ، من أصحاب اللحى الطويلة ، وأهل المسواك والسبحة ، وغير ذلك من الالتزامات الجانبية ، التي يُركّز عليها مثل هؤلاء « المؤمنين » جداً ، والذين يُريدون التمنن حتى على الله سبحانه وتعالى ، في صلواتهم ، وعباداتهم .

نعم يأتي إليه مثل هذا الرجل ، وسط المصلاتين ، وفي غمرة اجتماع المُصلّين ، تاركاً الصف الأول الذي يُصلي به ، متوجهاً إلى الصفوف الخلفية ليواجه أخانا ، مورد الحديث ، فيجلس أمامه ، ويقول له :

أُريد أن أسألك سؤالاً .

فيقول له الرجل : تفضّل .

فيسأله الشيخ قائلاً : هل أنت رجل مُسلم ؟

فيُدهش صاحبنا المسكين ، ولا يدري كيف يرُد عليه ، ولكن يقول له : ما معنى هذا السؤال الذي توجهه إليّ ؟

فيُصرّ الشيخ على سؤاله ، ويطلب إليه ويرجوه التفضّل بالإجابة ، هل هو مسلم حقاً أم لا ؟

فينزعج كثيراً صاحبنا المسكين ، ويُجيبه قائلاً : أنا مسلم يا مولانا ، ولو كنتُ غير مُسلم فما بالي والصلاة جماعةً في مسجد (گوهر شاد) هنا ؟

فيردُ عليه الشيخ : إذا كنت مسلماً حقاً فلماذا إذاً هكذا وضع لحيتك ؟

فما كان من صاحبنا ، يقول الخطيب ، إلاّ أن جمع سجّادة صلاته ، وغادر المسجد على الفور ، وهو يقول للشيخ : تركتُ لك صلاة الجماعة هذه وهذا الدين ، والمذهب ، أيضاً ، والسلام ، ولم يَعُد منذ ذلك اليوم يتردد على المسجد أبداً .

نعم فهذا أسلوب آخر من أساليب النهي عن المنكر ! لكنه ينبغي نعته بأسلوب إخراج الناس من الدين ، وتنفيرهم منه ، لأنه ليس فوق هذا العمل عمل ، باستطاعته خلق المعارضين والأعداء للدين .

لقد قرأت مرةً في إحدى المجلات الأجنبية قصةً مفادها : إنّ بنتاً متدينة جداً ، كانت تعيش هناك في بلاد الغرب ، وكان هناك أمير من الأمراء ، قد وقع في حبها ، وصار يتردد عليها ، حتى يجعل منها عشيقةً له ، وكان ذلك الأمير مشهوراً بفسقه ، وفجوره ، وحياته المتهورة المتهتكة .

ولكن لمّا كانت هذه البنت من أهل العفة ، والنجابة ، والشرف ، كانت تردّه باستمرار ، وترفض الاستسلام إليه ، مهما كلّف الثمن .

وبعد أن استخدم الأمير كل الطرق الممكنة لخداعها ، وإيقاعها طعمةً لأحابيله ، وفشل بعد جهد طويل ، قرر التراجع عن محاولاته ، وتركها وشأنها .

ومرّت الأيام إلى أن حدث أن قررت البنت أن ترسل برسولٍ منها إلى الأمير الشاب ، تدعوه إلى زيارتها ، وتُعلمه بموافقتها على العيش معه ، وأن تكون عشيقةً مطيعة له .

ولم يُصدِّق الأمير لأول وهلة إلى أن ذهب إليها ، ووجد أنها بالفعل جاهزة لمثل هذه العشرة ، وأراد أن يعرف سر هذا التحوّل في حياة البنت ، وبعد أن حقق في الأمر وجد أنّ قسيساً من الكنيسة ، كان قد سمع عن قصة هذه البنت المؤمنة ، والتزامها الديني العميق ، فأراد أن يجعل منها أكثر التزاماً وتعمقاً في الحياة الدينية .

وقرر زيارتها يوماً ، وقد حمل معه هدية لعرضها عليها في تلك الزيارة ، وقد وضع هديته على طبق كبير ، وغطى الطبق بقطعة من القماش ، وبعد أن جلس يحدّثها عن الدين وضرورة أخذ العبرة من هذه الحياة الدنيا الفانية ، رفع الغطاء عن ذلك الطبق وإذا بجمجمة ميّت من أهل القبور ، أتى بها القس من المقبرة ، وصار يردّد أمامها القول ، بأنه ـ اي القس ـ إنما أتى بهذه الجمجمة ليُثبت لها أن هذه الدنيا الفانية ليست وفية لأحد ، وأن مصير الإنسان إلى ما حالت إليه هذه الجمجمة التي أمامها ، وينبغي بالتالي أن تكون عبرة كافية لها لمزيدٍ من الالتزام الديني .

لكن هذا القس في الواقع بعمله ذلك ، ليس فقط لم يخدم تلك البنت ، ولم يدفعها إلى مزيد من الالتزام الديني ، بل إنه جعلها تفرُّ من هذه الحياة السخيفة بنظرها ، والتي نهايتها كما عرضها عليها ذلك القس ، وبالتالي قررت أن تهرب من هذا الواقع العبثي ، وتلجأ إلى ذلك الأمير الفاسق والفاجر ، لتقضي أياماً في التهتك والفساد ، قبل أن تُنهي عمرها .

وهذا أيضاً يمكن أن يصطلح عليه البعض نوعاً من الموعظة والنصح ، وصدقوني إن كثيراً مما نُسميه اليوم موعظةً ونصحاً ، أو أمراً بالمعروف ، ونهياً عن المنكر هو في الواقع منكر .

وأنا بدوري أنقل لكم قصةً حدثت معي شخصياً :

في الأيام التي كنا فيها ندرس في مدينة (قم) وقد كانت قد بدأت شركات السفر لتوّها بتسيير عددٍ من الرحلات بين (قم) و(مشهد) بـ(الأتوبيس) ، توجهتُ يوماً عازماً السفر إلى (مشهد المقدسة) ، وركبت (اوتوبيس) بالفعل ، وانطلقنا في الرحلة .

وبعد مضي فترة على الرحلة ، بدأتُ أحس أنّ السائق ينظر إليّ نظرة خاصةً تعبّرعن اشمئزازه وتنفّره من مقامي الديني كما يبدو ، فهو لا يعرفني شخصياً ، وأنا بدوري لا أعرفه ، إذ ليس هناك سابق معرفة بيننا .

وعندما توقف في إحدى المحطات في الطريق ، حاولت أن اسأله عن مدة

توقفه في تلك المحطة ، لكنه أجابني بطريقة خشنة للغاية ، كان يهدف من ورائها إسكاتي ، وعدم سماع صوتي مرةً أخرى ، حتى نصل إلى (مشهد) .

ولقد قمت بيني وبين نفسي بتبرير تصرف هذا السائق من خلال القول ، ربما كان الرجل ليس مسلماً ، أو يهودياً ، أو رجلاً ماديّاً . . . . الخ حتى إنني قطعت باليقين أن الرجل لابد وأن يكون واحداً من هؤلاء .

لا زلت أتذكر أننا عندما توقفنا في المحطة التالية ، وكان الوقت بعد الظهر ، وبينما أنا منشغل في الوضوء ، والتهيؤ للصلاة رأيت السائق وقد غسل رجليه ، واستعد للوضوء ، ومن ثم قام بأداء فريضة الصلاة .

وعندها تحيّرت كثيراً ، وأصابتني دهشةٌ كبيرة ، إذ اكتشفتُ أن هذا الرجل مُسلم مثلي مثله ، ورجل مُصلٍّ أيضاً ، فلماذا إذن يتصرف معي ذلك التصرف الخشن والشائن ، كما نقلت لكم ؟!

وحلّ المساء ، وكان اثنان من طلاب الجامعة يجلسان خلف الكرسي الذي أجلس عليه ، وهما من أهل منطقة (خراسان) من ـ قرية تربت ـ ، وهما ينويان أيضاً قضاء عطلتهما كما يبدو في (خراسان) .

وكان هذا السائق المذكور يعامل هذين الشابين بكل لطف ، ومحبةٍ ، ورقةٍ ، بنفس المقدار الذي كان يكنه لي من خشونة ونفور .

ولّما صار الوقت متأخراً ، وعمّ الظلام الدامس ، وبدأ المسافرون يغطّون بالنوم ، طلب السائق من أحد الشابين ، أن يأتي ويجلس إلى جانبه ، ليُحدِّثه حتى لا ينام ، ويستطيع الاستمرار في قيادة (الأوتوبيس) ليلاً ، وبدأ السائق يُحدّث الطالب المذكور ، ويحكي له قصة حياته ، وأنا بدوري بسبب ما حصل لي مع هذا السائق ، فقد بقيتُ متيقظاً أحاول أن أستمع للحديث حتى اكتشف سر تصرّف هذا السائق معي .

واسترسل السائق يُحدّث الطالب عن بعض مقاطع حياته ، وقال له فيما قال : إنه لا يُطيق من أهالي (مشهد) كل من لهُ علاقة بالمعممين ، أو رجال الدين ، ولا يحب إلاّ وجهاء (مشهد) ممن يسكنون الأحياء الراقية فيها .

ثم إنه ـ أي السائق ـ الوحيد بين أفراد عائلته يعمل بهذه المهنة بينما بقية أفراد العائلة كلهم موزعون بين دكتور ، ومهندس ، وتاجر وضابط في الجيش ، وإنه هو الفقير الوحيد بين أفراد العائلة .

ولمّا سأله الطالب : ولماذا كان مصيرك مختلفاً عن سائر أفراد عائلتك ؟

قال السائق : إنّ لذلك قصة ينبغي أن تسمعها :

كان أبي رجلاً مسلماً متديناً جداً ، وقد كنتُ طفلاً في السنوات الأولى من حياتي حيثُ أرسلني إلى المدرسة . ولما سمع إمام جماعة محلتنا ، بهذا الخبر ، جاء في زيارة خاصةٍ لأبي ، مستنكراً إرساله لي إلى المدرسة !

فقال له أبي : وأي ضررٍ في ذلك ؟!

قال : يا للهول !! ألا تعرف أنّ ابنك بذهابه إلى المدرسة ، سيتحول إلى إنسان لاديني ؟!

ولما كان أبي أمياً فقد صدّق حديث الشيخ ، وحيثُ كنتُ طفلاً لا أفهم شيئاً ، فقد أُجبرتُ على ترك المدرسة ، وصار أبي يأخذني معه للعمل في أماكن متعددة .

واستمرت الأمور هكذا إلى أن تزوجت ، وتكونت عندي أسرة من زوجة وأولاد ، وأدركت فجأةً ، أنني رجلٌ أُمي ، لا أعرف القراءة والكتابة .

إلى هنا كانت قصة السائق مع إمام جماعة محلتهم ، وهنا بالذات وجدتُ حل اللغز الذي كنتُ أبحث عنه ، فالرجل يعتبر نفسه من أهل الحظ السيّء ، ويرى أنّ المُعممين هم السبب في سوء حالته وحظه التعيس !

فهل هذا نهي عن المنكر ! كلّا فإنه عمل يجلب التعاسة للناس ويخلق منهم أعداء للدين وللعلماء .

وهنا لا أكتمكم فقد صرتُ بيني وبين نفسي أقول : رَحِم الله أموات هذا الرجل إذ أصبح عدواً لرجال الدين فقط ، ولم يتحول إلى عدو للإسلام ، فهو لا

زال يُصلي صلاته ، ويؤدي واجباته الدينية الأخرى كالصيام ، وزيارة العتبات المقدسة ، فهو متوجه لزيارة الإمام الرضا (ع) .

أقول : إنّ هذا العمل ـ عمل إمام جماعة المحلة ـ إنما هو أضرّ بالإسلام بشكل غير مباشر .

وإليكم الآن قصة أخرى :

كان هناك رجل محترم ، من رجال طلبة الحوزة الدينية الفضلاء جداً ، وقد كان هذا الرجل من المثقفين، والمتدينين بالفعل .

وفي ذات يوم كان قد صمم كما يبدو أن يخرج دون عمامة على رأسه أي ـ ببدلة الأفندية ـ ولكنه فور أن زار رفاقه في اجتماع ما وهو بهذا الهندام الجديد حتى صار الجميع ، من أصدقاء ومعارف ، يسخرون منه ، ويهاجمونه بشدة ، فانزعج كثيراً من تصرف رفاقه معه ، وغضب منهم كثيراً ، ولمّا كان رجلاً حليماً ، فضّل أن يردّ عليهم بكلام منطقي وحوار عقلاني ، بدل الدخول في معركة غضبٍ من نوعٍ آخر ، فقال لهم :

انظروا أيّها الأصدقاء ! أود أن أقول لكم شيئاً : إنكم أصدقاء أعدائكم ، وأعداء أصدقائكم . وسأوضح لكم معنى كلامي هذا :

إنني واحدٌ منكم ، وفرد من أفراد جمعكم ، أُفكر كما تُفكرون ، وأعتقد بالله والقرآن والنبي والأئمة كما تعتقدون ، وقد تعلمت ما تعلمتموه أنتم ، وتربّيتُ كما تربيتم ، وفي الحقيقة فأنا أشترك معكم في ألف مسألة ومسألة ، وكل ما هنالك أنني ارتكبتُ جريمةً واحدةً برأيكم ـ إذا كان عملي هذا يُحسب عليّ جريمةً ـ وقمت بتغيير هندامي ، أو مظهري الخارجي ، وخرجتُ لعمل ما ولاكتساب الرزق ، وإدارة شؤوني الحياتية .

ولنفرض أن هذا التصرف جريمة بالفعل ، لكنكم تتصرفون معي بشكل تجبرونني فيه على قطع العلاقة معكم ، ولمّا كان الإنسان لا يستطيع البقاء والعيش دون علاقات اجتماعية مما يعني أنكم ستجبرونني على التوجه لمصادقة ومعاشرة الصنف المُعادي لكم ، وذلك من حيث إنكم طردتموني من بين صفوفكم بالقوة ،

ولهذا السبب فأنتم أعداء أصدقائكم وهو أنا ، في حين أنكم أصدقاء أعدائكم .

ومن ثم يضرب لهم مثالاً فيقول : في المقابل فإنّ الشخص الفلاني الذي لم يتظاهر طوال عمره بالإسلام ، ولا أظهر اعتقاداً بالقرآن ، ولا بانت منه علائم معينة تشير إلى التزامه بتعاليم الدين الحنيف ، بل إنه اشتهر عنه بأنه رجل ظالم ، وفاسق ، وشارب للخمرة ، ولكن هذا الرجل بالذات ، والذي لا تتوقعون منه شيئاً ، يكفي أنكم سمعتم عنه أنه توجه لزيارة الإمام الرضا (ع) ، حتى تقولوا عنه جميعاً : بأنه يبدو على الرجل أنه مُسلم .

في حين أنّ ذلك الرجل الذين تعرفون أن تسعمئة وتسعاً وتسعين علامة من علامات الإسلام تطبع سلوكه ، ولا يحمل إلاّ خصلة واحدة تخالف الإسلام ، يصبح برأيكم ليس بمسلم ، بسبب تلك الخصلة ، بل وتخرجونه من نطاق الإسلام تماماً .

ولذلك فإنكم أصدقاء أعدائكم ، أي إنكم تُساعدون أعداءكم ، وأعداء أصدقائكم ، أي إنكم في الواقع أعداء أنفسكم .

إنك لو أردت أن تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، بشكل غير مباشر ، فإنّ إحدى الطرق الممكنة هي أن تكون قبل كل شيء صالحاً ، وتقياً ، وصاحب فعل ، قبل أن تكون صاحب قول .

وعندما تكون أنت شخصياً نموذجاً لهذه المواصفات ، ستكون مثالاً مجسّماً ، للأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

فليس هناك أكثر من الفعل ، يستطيع التأثير على البشر ، فأنتم ترون كيف أنّ الناس تتبع الأنبياء ، والأولياء ، ولكنها نادراً ما تتبع الفلاسفة والحكماء ، لماذا ؟ لأن الفلاسفة يتكلمون فقط ، يمتلكون مدرسة نظرية فقط ، ويطرحون مُجرّد أفكار ، يجلسون في بيوتهم ، بين أربعة جدران ، ويكتبون الكتب ثم ينزلون بها إلى السوق ، ويعرضونها على الناس .

بينما ترى الأنبياء ، والأولياء ، لا يكتفون بالنظرية فقط ، بل يُطعّمونها بالعمل أيضاً ، وما يقولونه يقومون بتطبيقه أولاً ، لا بل إنهم يعملون أولاً ، ومن

ثم يقولون ، وليس يقولون أولاً ، ومن ثم يفعلون .

فعندما يتحدث الإنسان عن أمر بعد ممارسته له ، يكون تأثير حديثه مضاعفاً عدة مرات

يقول الإمام علي بن أبي طالب (والتاريخ يُثبت ذلك أيضاً) : « ما أمرْتُكُم بشيءٍ إلاّ وقد سبقتُكم بالعمل به ، ولا نهيْتُكُمْ عن شيءٍ إلاّ وقد سبقْتُكُم بالانتهاء عنه »[1] .

« كونوا دُعاةً للناس بغير ألسِنَتِكُمْ »[2] . أي إنه ينبغي عليكم أن تدعو الناس إلى الإسلام ، من خلال ممارساتكم وأعمالكم ، فالإنسان عندما يفعل ، ويُمارس ، سيؤثّر عمله على المجتمع ، بشكل لا يقبل الشك .

يقول الفيلسوف المعاصر الشهير جان بول سارتر ـ وكلامه بالطبع ليس جديداً ، غير أنّ تعبيره عن الموضوع يحمل طابعاً جديداً ـ يقول : « عندما أقوم أنا بعمل ما ، أكون قد ألزمتُ مجتمعي بذلك الفعل ، وتلك الممارسة »

وما يقوله صحيح ، فأي عمل يقوم به الفرد سواء كان خيراً ، أو شراً ، إنما يكون قد ألزم مجتمعه بذلك العمل ، إن كان قائداً على وجه الخصوص . .

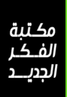
فأنت ، شئت أم أبيت ، من خلال ممارستك لعمل معين ، تكون قد أوجدت نوعاً من الفعل وتعهداً معيناً ، من قبل مجتمعك تجاه ذلك العمل . نعم فكما هو إلزام لك شخصياً ، فهو إلزام لمجتمعك أيضاً ، أي إنّ أيّ عمل يُمارسُ في المجتمع ، يحمل في طياته في الواقع ، أمراً للمجتمع بضرورة القيام بتلك الممارسة أيضاً .

فعندما أقوم أنا بعمل معين على صعيد مسؤولية معينة فإن لسان حال عملي يقول : كُن مثلي يا أخي ! ومهما قلتُ بعد ذلك عكس ذلك فإنّ كلامي لن يكون مسموعاً كعملي ، فأنا مهما قلتُ لكم اعملوا بأقوالي ، ولا تلتفتوا إلى أعمالي ، فإنّ

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٧٥ [شبيه بهذه العبارة] .

(٢) الكافي ج ٢ ص ٧٨ باب الورع .



الأمر المُلزم لكم ، والمؤثر فيكم ، سيكـون لا شك هـو أعمالي بـالدرجـة الأولى ، ومن ثم أقوالي بالدرجة الثانية .

إنّ أي مُصلِح لا بد وأن يكون صالحاً ، أولاً ، حتى يتمكن من أن يكـون مُصلحاً ، فهو يجب أن يتقدّم إلى الأمام ، ثم يقول للآخرين سيروا من ورائي .

فالفرق كبير بين من يقف ويُعطي الأوامر لجنوده : انطلقـوا إلى الأمام وأنـا واقف هنا ، وبين من يتقدّم هو أولاً ، ومن ثم يقول : لقد انطلقت ، هيّا الحقـوا بي .

في مدرسة الأنبياء ، والأولياء ، نـرى القسـم الثاني على الـدوام . فهم دائماً يقولون : « لقد انطلقنا » ، وعليٌ يقول للناس : أنا ذاهبٌ فتعالوا معي ، وسيروا خلفي .

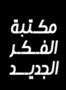
ولو لم يكن نبي الإسـلام في طليعة كل عمل كان يأمر الناس به ، فـإنه كـان من المستحيل أن يتبعه الآخرون .

فعنـدما قـال بالصـلاة ، وصـلاة الليـل ، فهـو قبـل غـيره أكـثر العـابـدين يقول تعالى : ﴿ إنّ ربك يَعْلَمُ أنّك تَقُومُ أدنى من ثلثي الليل ﴾[1] .

وعندما كان يقول بالإنفاق في سبيل الله ، والتضحية ، والإيثـار ، فإنّ أول شخص كان يؤثر على نفسه هو النبي (ص) نفسـه ، أي إنه كان أول من يقطع عن نفسه ليُعطي الآخرين .

وعندما كان يدعو إلى الجهاد في سبيل الله ، فإنه كان في مقدمة المحاربين في الحروب ، ومن بعده الأعزاء والمُقرّبون، من أفراد عائلته وعشيرته ، مما كان يدفع الآخرين إلى المشاركة ، والاندفاع في العمل ، بكل رغبة وشوق ، وبعشق شـديـد كانوا ينطلقون لأداء المهمات ، فهم كانوا يرون أمامهم النبي القائـد ، وقد أرسـل أعز المُقرّبين إليه من عشيرته ، في مواجهة الموت ، وقد تسلّح هو الآخر ، وانـدفع في قلب معسكر الأعداء ، حتى إنه جُرح في المعـارك ، الأمر الـذي كان يعني أنّهم

(١) سورة المزمّل : الآية ٢٠ .



كانوا يجهلون الحقيقة ، وقد تبلورت ، وتجسمت في مثل ذلك الشخص ـ النبي القائد ـ .

هل كان هناك أحدٌ أعزّ على النبي من علي بن أبي طالب ؟ أو هل كان أحدٌ أعزّ عليه من عمه الحمزة سيد الشهداء ؟ وبا ترى من كان أول المُرسلين من قبله إلى ميدان المعارك في يوم بدر ؟

لقد أرسل أول ما أرسل عليّاً(ع) ، وهو صهره ، وابن عمه ، والذي كان بمثابة ابنه في الحقيقة (ذلك أنّ علياً قد تربى ، وكبر ، في بيت النبي ، والنبي لم يكن له ولد ، فصار عليٌ (ع) بمثابة الولد للنبي) ، ومعه الحمزة ، عم النبي ، وهو الذي كان يحظى بالتقدير البالغ من الرسول (ص) ، إضافة إلى ابن عمه ، أبو عبيدة بن الحارث ، والذي كان يعزه النبي كذلك معزةً خاصةً[1] .

ولننظر إلى الحسين بن علي(ع)، ونرى كم كانت خطبه ، وكم كان عمله ؟ وعندها سنرى قلة خطبه ، وحجم عمله الكبير .

نعم فعندما يكون العمل هو الأساس ، لا تكون هناك حاجة إلى الكلام الكثير ، وها هو الحسين (ع) يُنادي :

« فمن كان باذلاً فينا مُهجتَهُ ، مُوطِّناً على لقاء الله نفسه ، فليرحل معنا ، فإني راحلٌ مُصبِحاً ، إن شاء الله »[2] .

أي إنّ من التحق بقافلتنا من أجل بلاده ، فَلْيَعُد من حيث أتى ، ومن جاء معنا ، وليس على استعداد للتضحية بنفسه ، فليرحل من بيننا أيضاً ، فقافلتنا هي قافلة المُضحّين .

وبين أولئك المُضحّين ، كان أهله ، وأحبته ؛ وأعزاؤه عليه السلام ، ولو أنه تركهم في المدينة المنورة ، فهل كان قد تعرّض لحياتهم أحد ؟ أبداً ! ولكنه لو

---

(١) كان هؤلاء الثلاثة قد خرجوا لمبارزة ثلاثة أفراد من معسكر الأعداء ، وقد تمكن الثلاثة من قتل أفراد العدو ، الذين برزوا إليهم ، لكن أبا عبيدة بن الحارث كان قد جُرح جُرحاً بالغاً ، الأمر الذي أدى إلى استشهاده فيما بعد

(٢) اللهوف على الطفوف ص ٢٦ .

كان قد استشهد وحده في كربلاء ، دون حضور أهله ، وعياله معه ، فهل كانت نهضته تأخذ الأبعاد التي أخذت الآن ؟ أبداً .

إن الإمام الحسين (ع) في الواقع قد قام بعمل خالص لله سبحانه وتعالى ، دون أية شائبة ، أي إنّه أدىٰ المهمة المطلوبة في حدها الأقصىٰ ، ولم يدع شيئاً قابلاً للتضحية في سبيل الله ، إلاّ وقدّمه خالصاً لوجه الله تعالى .

ولم يكن أحد ، من أهله أو أحبّائه ، قد جيء به جبراً إلى ساحة الجهاد ، بل إنّ كل من حضر منهم إنما كان من رفاق العقيدة ، والفكر ، والإيمان معه ، عليه السلام .

بل إنّه عليه السلام رفض من الأساس أنْ يكون بين صفوفه أي فرد ، له ولو نقطة ضعف واحدة ، في وجوده ، ولهذا تراه يقوم بغربلة رفاق دربه في الطريق مرتين ، أو ثلاث مرات ، ليُبقي على النخبة الخالصة النقيّة .

فهو قد أعلن منذ اليوم الأول لخروجه من مكة ، بأن من لا يملك الاستعداد للتضحية بنفسه ، عليه أن يبقى مكانه ، ولكن رغم ذلك يبقى بعض من يُفكّر بإمكانية الحصول على شيء ما ، من حركة الإمام الحسين (ع) ، ويتصور أنّ ذهاب الحسين (ع) إلى الكوفة ، ربما يكون فيه مغانم معينة ، ينبغي استثمارها ، واغتنام الفُرص المتأتية من هذه الرحلة .

ولذلك نرى أنّ عدداً من الأعراب في البادية يلتحقون بقافلة الحسين بن علي ، وهو في الطريق بين المدينة والكوفة .

ولهذا فإنّ الإمام الحسين (ع) يخطب في أفراد القافلة ، مرة أخرى ، في وسط الطريق ، ويقول لهم :

أيها الناس ! من لحق بنا ، ولديه تصور أننا نريد المقام والسلطان ، فإنّ الأمر ليس كذلك ، والأفضل له العودة من حيث أتى .

وأمّا خطبته الأخيرة ، أو الغربال الأخير ، فقد كان ليلة العاشر من محرّم ، حيث خطب عليه السلام خطبته التاريخية ، ولكن الجو كان نقياً ، وخالصاً في

تلك الليلة ، إذ لم يخرج أحد من هذا الغربال .

إنّ الشخص الوحيد الذي ارتكب هذا الخطأ التاريخي ، هو صاحب كتاب « ناسخ التواريخ » ، حيث ذكر أنه قد خرج عدد من أصحاب الإمام بعد انتهاء الخطبة ، واستغلوا سواد الليل ليكون غطاءً لانسحابهم من ساحة المواجهة ، والمصير المحتوم .

إلّا أنّ هذا التحليل ، وهذه الرواية ، لم يؤكدها أيّ مؤرخ آخر على الإطلاق ، فهي من أخطاء صاحب « ناسخ التواريخ » وحده ، وليس هناك أحد آخر ارتكب هذا الخطأ التاريخي ، إذ إنّ جميع من عداه ، يؤكدون أن أصحاب أبي عبد الله كافة ، صمدوا معه ليلة العاشر من محرم ، وأكدوا بذلك أنّه لم يكن قد بقي بينهم أحد من أصحاب الجاه ، أو المقام ، أو الغش ، بل كانوا جميعاً الخلاصة النقية لأنصار الحسين .

ولو أنّ أحداً من أصحاب الإمام الحسين (ع) ، وإنْ كان طفلاً ، كان قد أبدى أي ضعف ، أو تراجع في اليوم العاشر من محرم ، والتحق مثلاً بمعسكر العدو الذي كان أقوى ، وأكثر اقتداراً من معسكر الحسين ، وذلك من أجل النجاة بجلده ، وطلب الأمان لدى جيش العدو ، لكان ذلك مظهراً من مظاهر الضعف والنقيصة في شخص الإمام الحسين (ع) والمدرسة الحسينية .

لكن الذي حدث هو العكس تماماً ، فقد جذب معسكر الحسين عدداً من أفراد العدو إلى جانبه .

وهكذا يكونون قد أتوا بالعدو ، الذي كان يتمتع بالأمن ، والطمأنينة المادّية ، في معسكره ، ووضعوه عملياً في مواجهة الخطر .

نعم لقد التحق هؤلاء الأفراد بإرادتهم إلى المعسكر الآخر ، لكن العكس لم يحصل بتاتاً ولم يترك أحد موقع الخطر ، وينتقل إلى مركز الأمن والطمأنينة .

وهذا يؤكد أنه لو لم يكن الحسين (ع) ، قد قام بالغربلة المطلوبة ، ولم يبيّن معالم المواجهة وبوضوح شديد ، من قبل ، لكان قد حصل الكثير من مثل هذه الحوادث ، كأن يفر نصف أصحاب الإمام إلى المعسكر الآخر وبدأوا ،

والعياذ بالله ، بالتبليغ ضد الإمام الحسين (ع) ، ذلك أنّ الفار من الخطر سوف لن يُعلن عن ضعفه ، ويُصرّح بضعف إيمانه ، ورعبه ، وإنما كان سَيُبرر لنفسه ذلك العمل التراجعي ، ويتوسل بشتى الأساليب ، والطرق لإقناع الملأ العام ، بأنه إنما قد شخّص الحق إلى جانب المعسكر الآخر ، الأمر الذي دفع به إلى الانتقال إليه .

وهو لو لم يكن قد شخّص رضا الله في هذا العمل ، لما كان أقدم على مثل هذه الحركة ، وإلى غير ذلك من أساليب المراوغة ، والكذب ، والتي كان سَيُلفقها القائمون بمثل هذه الحركة وفي سياق منطقي خاص بهم !

ولكن مثل هذا لم يحدث ، وهذا الأمر بحد ذاته من أبرز مفاخر الحسين بن علي (ع) ، والمدرسة الحسينية ، في حين أنّ أحد الوجوه البارزة ، من معسكر العدو ، قد تم جذبه إلى معسكر الحسين ، وهو الرجل الذي كان مُرشحاً لإمارة الجيش المحارب .

إنه الحُر بن يزيد الرياحي ، وهو رجل ليس قليل الأهمية ، بل إنه لو سلّمنا بأنّ الرجل الأول في جيش العدو ، كان المدعو عمر بن سعد ، فإنّه لم يكن هناك أحد يمكن له كسب امتياز الرجل الثاني ، في معسكر العدو ، سوى الحر بن يزيد الرياحي .

لقد كان رجُلاً ذا شخصية مرموقة فعلاً ، وهو أول من كُلّف بوقف حركة القافلة الحسينية ، عندما أُرسل على رأس ألف مُحارب لهذه المهمة .

لكن قوة الجاذبية ، والإيمان ، والعمل ، ذلك العمل العظيم الذي يتلخص بالأمر بالمعروف الذي مارسه الحسين بن علي (ع) تجاه الطرف الآخر ، جعل من الحُر بن يزيد ، ذلك الرجل الذي امتشق سيفه في البداية لمحاربة الإمام ، أن ينتفض من عبودية الكفر ، في يوم عاشوراء ، وينتقل مقاتلاً في صفوف معسكر الحسين ، ويصبح بالتالي واحداً من التوابين . ﴿ التائبون ، العَابِدُون ، الحامِدُونَ ، السّائِحونَ ، الرّاكِعونَ ، السّاجِدونَ ، الآمرون بالمعروف ، والنّاهون عن المنكر ﴾ .

ذلك الرجل المعروف بالشجاعة والبطولة ، وأكبر دليل على ذلك ، هو تلك المهمة التي أوكلت إليه بترؤس الف مقاتل لمواجهة الحسين بن علي .

نعم هذا الرجل الذي اكتسب هذه الشهرة ، وهذا الصيت البطولي ، ترى أن الحسين يحترق قلبه ، ويحوّله أشبه بالموقد الذي تشتعل النار في داخله ، فيغلي الماء الموضوع عليه ، ويتصاعد البخار ، حتى يبدأ الموقد بالاهتزاز والارتعاش ، من شدة غليان الماء .

نعم إنها النار التي أشعلها الحسين بن علي (ع) ، بواسطة مشعل الحقيقة ، وشراراتها ، فأضاءت قلب الرجل ، وبدأت تحترق الجدران التي كانت تُغلّف وجوده فالحر بن يزيد مثله مثلي ومثلك ، إذ كان يُفكّر في الدنيا ، والمال ، والمقام ، والجاه ، والسلامة ، والعافية .

وهكذا تكون قوة ضغط البخار تشد على الرجل من ناحية ، وتدفعه باتجاه التحول نحو معسكر الحسين بن علي (ع) ، من ناحية ثانية .

لكن بالمقابل هناك قوة الضغط الأخرى ، المتأتية من الأفكار المادية الموجودة داخل كل إنسان ، تدفعه هي الأخرى ، وتوسوس في قلبه قائلةً : انّ اركن إلى وضعك الذي أنت عليه ، فإنك إنْ تحوّلت إلى المعسكر الآخر ، فإنّك لا بد سَتُقتَل ، وبالتالي سوف لن ترى أولادك ، وأهلك ، وستفقد كامل ثروتك ، وربما راح العدو يُصادر كل أموالك ، وكل ما تملك بعد موتك ، مما يجعل وضع أولادك ، وزوجتك في حالة حرجة دون ولي ولا نصير !

وكل هذه أفكار ضاغطة باتجاه عدم اندفاعه نحو الإمام .

إنّ قوتين متضادتين كانتا تضغطان على الرجل ، ولذا فإنه في لحظة معينة ، تراه يرتجف ، ويرتعش بشدة ، وعندما يأتي أحدهم ويسأله :

لماذا أنت ترتجف يا حر ؟ فأنت رجل شجاع ، ظناً منه أنّ الرجل يرتجف من الخوف والرعب من ساحة المواجهة !

لكنه يرد عليه : لا يا هذا ، فإنك لا تعرف حجم العذاب الوجداني الذي

أعاني منه ، وأنا في هذه اللحظة أرى نفسي مُخيراً بين انتخاب طريق الجنة أو طريق جهنم ، ولا أدري هل أشتري الجنة بالدنيا، أم تراني أذهب وراء هذه الدنيا التي تُعرضُ عليّ نقداً الآن ، ولكن عاقبتها هي الجحيم !!

وهكذا ظل الرجل فترةً ، وهو يُعاني من صراع نفسي داخلي مرير ، إلى أن حسم هذا الرجل الشريف ، والحُر ، كما وصفه الإمام الحسين (ع) ، موقفه ، واختار طريق الحق والجنة .

وحتى لا ينتبه العدو إلى حركته غير العادية ، ويمنعه من الانطلاق باتجاه المعسكر الآخر،بدأ بالتراجع ببطء أولاً ،ومن ثم الانزواء جانباً،ثم ضرب فرسه بالسوط طالباً منه الانطلاق بسرعةٍ نحو معسكر الحسين .

وحتى لا يتصور الطرف المقابل بأنه إنما يهدف مهاجمتهم رفع علامة الأمان والاستئذان .

يقول الراوي : قَلَبَ تُرسَهُ ، وأول الذين كانوا في استقباله هو أبو عبد الله الحسين (ع) ، حيث كان واقفاً أمام مخيم الحرم ، فبادرهُ الحُر :

السلام عليك يا أبا عبد الله !

ثم أخذ يخاطب ربّه ، ويطلب لنفسه المغفرة على فعلته ويقول :

اللهم إليك تُبتُ فتُب عليّ ! فقد أرعبتُ قلوبَ أوليائكَ ، وأولاد بنت نبيك !

ثم وجّه كلامه مخاطباً الحسين :

جعلتُ فداك أنا صاحبُكَ الذي حبسكَ عن الرجوع ، وجعجع بكَ ، وما ظننتُ القوم يبلغون منك ما أرى ، وأنا تائبٌ إلى الله تعالى ، فهل ترىٰ لي من توبة ؟

نعم فأهل الحسين (ع) ، قد وقعت أعينهم على العدو أول ما وقعت على الحُر بن يزيد ، وهو على رأس ألف مقاتل ، حبس عليهم الطريق ، وهم على أبواب العراق، الأمر الذي أثار الرعب والخوف في قلوب الأهل والعيال .

ولكن الحسين (ع) وعلى الرغم من كل ذلك قال له :

يتوبُ الله عليكَ فانزل ـ أي انزل من عن فرسك واسترح ـ .

والإمام هنا يعرف جيداً أنّ توبة الحر لن تُقدّم ، أو تؤخّر في ميزان القوى في المعركة ، ولكنه يُريد الخير للحُر ، والعمل في سبيل رضا الله ، ثم وهل يمكن لرحمة الله الواسعة ، أن تُسدّ بوجه التائبين ؟!

ولمّا عرف الحُر بأنّ توبته مقبولةٌ فرح كثيراً ، ولأنه يُريد أن يمسح العار الذي مضى منه بالدم لذلك قال : أنا لكَ فارساً ، خيرٌ مني راجلاً ، وإلى النزول يصيرُ آخر أمري .

نعم فالحر كان مُصمماً على إهداء دمه في سبيل الحسين (ع) ، ولذلك فإنّ إصرار الحسين (ع) عليه بالنزول ، كان يُزيده تصميماً وإصراراً على القتال بين يدي الإمام .

وقد أراد الإمام منه أن يجلس ، ولو بعض الوقت ، إلاّ أنه أبىٰ إلاّ أن يقاتل ، ويستشهد بين يدي أبي عبد الله الحسين .

ويقول بعض أصحاب السير هنا : إنّ السبب ربما في عدم نزول الحُر الذي يبدو أنه كان راغبا في الجلوس بعض الوقت، بين يدي الحسين، هو خوفه من أنْ يراه الأطفال والعيال ، فيتذكروا تلك اللحظة التي أرعبهم فيها في اللقاء الاول ، حيث حبس عليهم الطريق ، فيخجل الحُر ، وهو بهذه الحالة ، ولذلك فإنه كان مُصمماً على مسح ذلك العار بأسرع ما يمكن من خلال إراقة دمِهِ في سبيل الحسين .

وكما يقول الراوي : فإنّ الحُر يقف أولاً مخاطباً جيش عمر بن سعد ، وهم من أهل الكوفة ، ولمّا كان هو كوفياً أيضاً ، فإنه يوجّه لهم الخطاب قائلاً :

يا أهل الكوفة ! هل نسيتم أنكم قد بعثتم بالكتب والرسائل إلى هذا الرجل ، تدعونه للمجيء ، وتعدونه بالنُصرة فكيف إذاً تقاتلونه الآن ؟ وتنكثون العهود وتتملصون من الوعود التي قطعتموها لهُ ؟ إنني لستُ ممن كتب هذه الكتب ، ولكنكم أنتم ورؤساؤكم وأُمراؤكم ، قد كتبتم إليه بالتأكيد مثل

هذه الكتب ، وأنتم اليوم تقاتلونه بعد أنْ جاء إليكم ، فأيّ دينٍ تتبعون ؟ وبأي قانون تعملون ؟ حتى تُعامِلوا ضيفكم مثل هذه المعاملة ؟!

وكما يبدو فإنّ واحدة من تلك التصرفات اللئيمة ، كانت قد أتعبت روح الحُر كثيراً ، ذلك التصرف الحقير والدنيء ، الذي بدر من جماعة عمر بن سعد ، والذي يتنافىٰ مع روح الإنسانية والإسلام تماماً ، والذي لم يحصل في التاريخ الإسلامي على الإطلاق .

فالإسلام لم يكن يسمح لأية جهة بالمبادرة إلى قطع المياه عن العدو ، بهدف التضييق عليه ، ومحاصرته ، ذلك العمل الذي اقتُرِح على علي بن أبي طالب ليُمارسه ضد معاوية ، إلاّ أنه رفض .

والحسين بن علي نفسه ، قام بسقي جيش الحر ، وهم الأعداء قبل ورودهم منطقة كربلاء .

ولا بد أنّ الحرَّ قد تذكر ذلك الأمر جيداً ، ورأى المفارقة بين الموقفين ، وأخذ يقول : إننا قطعنا الماء عن ذلك الرجل الذي سقانا عندما كُنّا عطاشى ، دون أن نطلب منه ذلك : فما أشرفه ، وأرفعه من رجلٍ ! وما أحقرنا بالمقابل !

قال : يا أهل الكوفة ! ألا تخجلون من أنفسكم ؟! وهذا الفرات الذي يلمع مثل بطن السمك ، وفيه تجري المياه التي أُحلت لكل الموجودات الحية ، فيشرب منها الإنسان والحيوان الأهلي ، والحيوان الوحشي ، وأنتم اليوم تقطعونها عن ابن بنت نبيكم ؟!

ثم يقاتل هذا الرجل الشريف حتى يستشهد ، ولكن الحسين (ع) لم يتركه دون مكافأة . يقول الراوي : فجعل يمسح التراب عن وجهه ويقول : أنت الحُر كما سمّتك أُمك ، ونِعم الحُر حُر بني رياح[1] .

إنه الحسين الجليل، الشريف، العظيم، الذي لا ينسىٰ تفقد أصحابه حتى المستطاع ، وهذا بحد ذاته نوع من أنواع الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

---

(١) مقتل المقرم ص ٣٠٣

والـذين حملهم الحسين ، ومسح عـلى وجـوههم في ميدان المعـركـة ، مختلفـون ، منهم مَن كان يصـل إليه ، وهـو لا يـزال عـلى قيـد الحيـاة ، فيُكلّمـه الحسين ، ويُحدّثه بعض الحديث ، ومنهم من كان يجده قد لبىٰ نداء ربـه ، وفارق الحياة .

ومن بين أولئك الـذين احتضنهم أبو عبد الله عليه السـلام ، في اللحظات الأخيرة من حياتهم ، لم يكن هناك أحد أسوأ وصفاً ، وأصعب موقفاً ، من وضع أخيه أبي الفضل العباس ، ذلك الأخ الذي كان الحسين (ع) يجلّه كثيراً ، والذي كـان يمثّل بالنسبة له الأثر الحيّ المتبقّي من شجاعة أبيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) .

وكما تذكر بعض السير فإنه قال لأخيه في تلك اللحظة ، وهو يحتضنه فيها : بنفـسي أنت يا عباس ! وما أعزّها وأجلّها من كلمة ، تصدر عن أبي عبد الله لأخيه الصغير .

فالعبـاس كان يصغر الحسين (ع) بحوالي ثلاثة وعشـرين عـاماً ، أي إنّ أبـا عبد الله كان له من العمر في عاشوراء (٥٧ عاماً) ، بينما العباس كان شاباً لم يبلغ سوىٰ (٣٤ عاماً) .

وأبو عبد الله الحسين هو بمنزلة الأب بـالنسبة لأبي الفضـل العباس ، سـواء من الناحية التربوية ، أو من ناحيـة كبر السن ، ومـع ذلك كـان يقول لـهُ : فدتـك نفسي يا عباس ! نعم ما أعز الموقف وما أجلّه .

كان أبو عبـد الله الحسين واقفـاً أمام الخيمـة ، ينتظر ، ويـراقب ، ويتابـع أخبـار المعارك ، وإذا بـه يسمعُ فجـأةً نداء البـطولة والشجـاعة نـداء أبي الفضـل العباس (ع) .

وأبو الفضل كما تنقل لنـا الروايـات كان يُـدعىٰ لجمالـه الفائق بـ « قمـر بني هاشم » كما أنّ بعض المؤرخين كتب عنه يقول : « وكان يركبُ الفرس المُطهَّمَ ، ورِجلاهُ تخُطّان في الأرض » .

وإنْ كان المرحوم آقا شيخ محمد باقر البيرجندي يـرى أنّ بعض المبالغـة قد



حصلت في هـذا الوصف ، لكنـه على كـل حال ، وكـما يبدو ، كـان يتمتـع بقـدّ رشيق، وهيكل وسيم ، يُدخل البهجة والانشراح على أخيه الحسين كلما رآه .

يقول الراوي : عنـدما وصـل الحسين ، ولأنّ أخـاه أبا الفضـل ، وقد تـطايرت يداه من بدنـه ، ورأسه قـد تهشّم بفعل ضربـة من عمود حـديدي ، والسـهم قـد أصاب عينه ، ولذلك لم يكن عجيباً أن يكتب التاريخ عن وضع الحسـين ، وهو بهذه الحالة :

« لمّا قُتِل العبّاس بان الانكسـار في وجه الحسين » .

بـل إنّه هـو شخصياً عليـه السـلام ، قـال في تلك اللحظة ، وهـو يُـودِّع شقيقه : « الآن انقطع ظهري ، وقلّت حيلتي » .

ولا حول ، ولا قوة ، إلاّ بالله العلي العظيم
وصلى الله على محمد ، وآله الطاهرين



المحاضرة الخامسة

قيمةُ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في نظر علماء الاسلام

بسم الله الرحمن الرحيم(*)

الحمد لله رب العالمين، باريء الخلائق أجمعين، والصلاة والسلام على عبد الله، ورسوله، وحبيبه، وصفيه، سيدنا ونبينا ومولانا، أبي القاسم محمد، وآله الطيبين، الطاهرين، المعصومين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

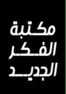
﴿ التّائبون، العابِدونَ، الحامِدُونَ، السّائحونَ، الرّاكعونَ السّاجدونَ، الآمرون بالمعروف، والنّاهون عن المنكر، والحافظونَ لحدودِ الله وبشّر المؤمنِين ﴾[1].

كما أنّ عامل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، قد رفع من قيمة النهضة الحسينية وأهميتها، فإنها بالمقابل قد رفعت من قيمة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وكما أنّ تأثير عامل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، قد تمثّل في رفع مستوى النهضة الحسينية إلى أعلى المستويات الممكنة، فإن هذه النهضة المقدسة

(*) ألقيت هذه المحاضرة بتاريخ (٩ محرم ١٣٩٠ هـ).

(١) سورة التوبة: الآية ١١٢



بدورها أيضاً قد ساهمت في رفع هذا الأصل الإسلامي إلى أعلى المستويات ، فكيف حصل هذا ؟ وهل يمكن للحسين بن علي أن يرفع وأن يُخفّض من قيمة أصل من الأصول الإسلامية ؟ ! كلاّ .

فليس هذا هو المقصود في حديثنا ، كأن نقول مثلاً إن هناك قيمة معينة للأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر في الواقع ، وفي نفس الأمر ، كما يقول الفقهاء أو في متن الإسلام ، ثم جاء الحسين بن علي ، وغيّر ، أو رفع ، من هذه القيمة الواقعية الموضوعة في متن الإسلام !

فهذا عمل ليس بوسع الحسين بن علي أن يفعله ، ولا حتى بوسع النبي محمد (ص) أن يقوم به ، إنه من صلاحيات الباري عز وجل لوحده ، لا شريك له .

إنّ الله الذي بعث إلى عباده ، وفرض عليهم هذه الأصول والتعليمات ، هو الذي عيّن وقدّر لكل أصل من تلك الأصول ، مرتبته ، ودرجته ، وقيمته المحدّدة ، ولا يمكن لأحدٍ كائناً من كان حتى النبي أن يتصرّف في مثل هذه الشؤون ، أو يؤثر في متن الواقع الإسلامي لها .

وما أقصده هو أنّ النهضة الحسينية ، إنما رفعت من إمكانيات الاستنباط ، والاجتهاد ، لعلماء الإسلام والمسلمين ، بشكل عام ، في دائرة أصل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

هنا تعبير متداول بين طلاب العلوم الدينية ، يتحدث عن مقام الثبوت ، ومقام الإثبات :

ومقام الثبوت يعني المقام الواقع ، وكل شيء في مقام الواقع أو بذاته ، له حد معين ، ودرجة معروفة ، أو بتعبير الفلاسفة الجدد مقام الشيء بذاته ، مقابل مقامه بالنسبة لنا ، ومقام الثبوت هو مقام الشيء بذاته ، وذلك مقابل مقام الإثبات ، أي ما يعني بالنسبة لنا من مقام وموقع .

وتوضيح الأمر كما يلي :

لنفرض وجود عدد من أطباء القلب في إحدى المدن ، فهؤلاء في مقام



الواقع ، وفي ذات الأمر ، قد يكونون جميعاً أطباء جيدين ، بنفس الدرجة ، والمرتبة العلمية .

ولكن قد يحصل أنّ السيد (ألف) طبيب من الدرجة الأولى ، أي إنّه من أفضل الأطباء ، وأكثرهم علماً ، وتخصصاً ، في مجال طب القلب .

والسيد (ب) من الدجة الثانية ، والسيد (ج) من الدرجة الثالثة ، والسيد (د) من الدرجة الرابعة ، ولكن كيف يُقيّم الناس هؤلاء الأطباء ، وكيف ينظرون إليهم ؟ وما هي الأهمية والقيمة الموجودة لهم بين الناس ؟ وهل أن التقدير والاعتبار الموجود لدى الناس عنهم يتطابق مع قيمتهم ، واعتبارهم الواقعي الذي يحملونه بذاتهم ؟ فهل إنّ طبيب الدرجة الأولى يُنظر إليه من قبل المجتمع فعلاً ، على أساس أنّه طبيب من الدرجة الأولى ؟ وطبيب الدرجة الثانية في المدينة يعتبره الناس بالفعل طبيباً من الدرجة الثانية ؟

قد يحصل هذا أحياناً ، ولكن في أحيان أخرى ربما يحصل العكس . فنرى الناس نتيجة لتأثير بعض العوامل الخارجية ، مثل الدعاية ، أو الأخطاء ، أو تداخل عدد من العوامل المتضادة ، يحكمون في مقام الإثبات ، أو المقام النسبي خلاف الواقع تماماً ، وإذا بالطبيب صاحب الدرجة الرابعة يصبح طبيب الدرجة الأولى ، في أعين الناس ، وطبيب الدرجة الثالثة يصبح بمستوى الدرجة الثانية ، وصاحب الدرجة الثانية بمستوى الدرجة الثالثة ، وصاحب الدرجة الأولى بمستوى الدرجة الرابعة .

وهنا يُرى بوضوح أنّ مقام الإثبات يختلف عن مقام الثبوت ، أي هناك فرقٌ بين ما هو منظور بالنسبة لنا ، وبين ما هو واقع كشيء في نفسه .

وعليه ، فإنني عندما أقول بأن الحسين بن علي قد رفع من قيمة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فإنّ قصدي هو القول بأنه عليه السلام ، قد رفع هذه القيمة في عالم الإسلام . وليس في الإسلام .

فمن ناحية الدين الإسلامي ، أي في مقام الثبوت ، ومقام الشيء نفسه ، لا يمكن للحسين بن علي (ع) ، أو النبي (ص) ، او علي بن ابي طالب (ع) ، أن

يرفعوا ، أو يُخفّضوا من قيمة أصل من الأصول ، والمبادىء العامة للدين .

إنّ الله وحده هو الذي حدّد قيمة خاصة معينة لكل أصل من أصول الإسلام ، ولكن يا تُرى هل إنّ نظرة المجتمع الإسلامي ، وتقييمها لهذه الأصول ، تتطابق بالفعل مع ذلك الحد الموجود ، والموضوع له من قبل الله ، أي المعروف بمقام الثبوت ومقام الشيء في نفسه ؟

ربما لا يملك المجتمع مثل هذه النظرة المتطابقة مع القيمة الواقعية لهذه الأصول ، بل قد يحصل العكس من ذلك ، أي أن تصبح الأشياء التي تحمل قيمة الدرجة الأولى بنظر المجتمع أشياء من الدرجة السُفلى ، وتلك الأشياء التي تحمل قيمة الدرجة السُفلى ، يتم النظر إليها في المجتمع كأشياء من الدرجة الأولى ، وعلي عليه السلام في هذا الصدد يقول :

« ولُبِسَ الإسلام لُبس الفرو مقلوباً »[1] . أي كما يُلبس الفرو مقلوباً ، ترى الناس تأخذ الإسلام بالمقلوب ، وعندها ليس فقط لا فائدة من مثل ذلك الفرو ، بل إنه سيصبح مُضحكاً ومثيراً للسخرية .

والقيم الإسلامية بدورها إذا ما أصبحت معكوسة ، أي أصبح ما هو من الدرجة الأولى محسوباً من الدرجة السفلى ، وما هو من الدرجة الثانوية والسفلى ، من الدرجة الأولى ،[2] عندها يصبح ذلك الإسلام هو الإسلام المقلوب ، الذي يتحدث عنه علي (ع) ، كالفرو الذي لُبس مقلوباً .

إنّ قيمة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، قضية مختلف عليها بين المسلمين ، وتوضيح ذلك من وجهة نظر علماء الإسلام هو كالتالي :

بالطبع فإنّ علماء الإسلام لم يبحثوا يوماً مسألة قيمة الأمر بالمعروف ،

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٠٧ .

(٢) كأن نفرض مثلاً أن ترتفع قيمة واهمية امر من قبيل تقليم الاظفار وهو من الأمور المستحبة في يوم الجمعة إلى درجة اهمية أصل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . او أن يصبح امر تمشيط شعر الرأس او اللحية وهي من الأمور المستحبة أيضاً اكثر اهمية من اصل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . او أن تتحول الزيارات المستحبة إلى أصول من الدرجة الأولى .

والنهي عن المنكر ، تحت هذا العنوان بالذات ، لكنهم تناولوا قضية أخرى بالبحث ، يمكن من خلالها استنباط وجهة نظر العلماء في قضية قيمة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

هناك أصل في الإسلام ، وحديث نبوي ، يبني على أساسه علماء الإسلام ، بعض اجتهاداتهم ، والحديث هو كما جاء في الروايات : قال رسول الله (ص) : « إذا اجتمعت حُرمتان تُرِكَت الصُغرىٰ للكبرىٰ » .

هذا الموضوع له أمثلة واضحة للغاية ، والمثال الشائع الذي يُذكر في هذا المجال هو :

إنّ دخول الأرض المغصوبة هو عمل حرام ، لكنك إذا ما رأيت أنّ إنساناً او حيواناً ، أو أي نفس محترمة ، قد تعرضت للغرق في مثل هذه الأرض ، فما هوَ المطلوب منك في هذه الحالة ؟

فإمّا أن تضع قدَمَك فوق تلك الأرض المغتصبة ، وهو عمل حرام بحد ذاته ، وتدخل إليها لإنقاذ تلك النفس .

أو أنْ تقف متفرجاً بحجة حرمة دخول الأرض المغتصبة ، وبالتالي يتم هلاك تلك النفس المحترمة ، فما العمل هنا ؟ فهناك حرمتان : ينبغي مراعاتهما ، أولاً حرمة المال ، والقوانين المالية لا بد من المحافظة عليها ، ولا بد من احترام المال المشروع للناس ، والمحافظة عليه ، ولا يجوز في هذه الحالة دخول تلك الأرض المغتصبة ، دون الحصول على رضا صاحبها .

والحرمة الثانية هي احترام النفس والروح ، واحترام المال لا يمكن له أن يصل أبداً في أهميته لدرجة احترام النفس .

وإذا كان لا بد من التضحية بأحدهما في سبيل الآخر فما على المرء إلاّ أن يضحي بالمال مقابل النفس .

وفي هذه الحالة يكون دخولك للأرض المغصوبة ليس فقط خالياً من الذنب ، بل إنّه عمل مثاب وطاعة ربّانية .

في باب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، هناك مسألة يتم طرحها للبحث في هذا المجال ، وهي أين حدود مثل هذا المجال ؟ فالعبد الفقير ، وحضرتك ، وكل واحد منّا ، مطلوب منه أن يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ولكن إلى أي حد ينبغي عليه المُضي في عمله هذا ؟

فأحياناً ترى أننا نستطيع أن نؤدي هذا الواجب ، دون أن يلحق بنا أي أذىً يذكر ، وفي مثل هذه الحالة إذا لم نفعل ، تكون قد تساهلنا ، وتخلفنا ، عن القيام بالواجب .

لكن في الحقيقة ترانا مستعدّين أنْ نمارس الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فقط في حدود عدم تعرضنا للخطر ، الخطر الموجّه ضد أموالنا ، وكرامتنا ، وحياتنا .

ولكن إذا ما صار القرار أنْ نأمر بالمعروف ، وننهى عن المنكر ، وتتعرض أموالنا للخطر ، ترانا نتساءل على الفور ، نقوم بذلك أو لا نقوم ؟

أو إذا أصبح فعل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، يُعرّض كرامتي وماء وجهي للخطر ، أو أن يتم التعرض لي بالسباب ، والشتائم ، أو الضرب ، أو يتم إلصاق التهم والتلفيقات المتنوعة ضدي ، فعند ذلك أيضاً تراني أختار طريق التساؤل وأقول : أأفعل ذلك أو لا أفعل ؟

كذلك إذا ما كان الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، يُسبب لي التعرض لخطر الموت ، تراني بالطبع أترددُ في صنعه ، وهكذا إذا ما كان يُسبب بالإضافة لنفسي لأهلي ، وعيالي ، وأعزتي ، مختلف العذابات والأخطار ، سواء الحياتية أو المالية ، والنفسية ، فإنه وفي مختلف تلك الحالات ، ترانا جميعاً نتردد في الإقدام على أداء مثل هذا الواجب .

قد يأتي أحد هنا ويقول : إن بعض علماء الإسلام ، قد حددوا حدود الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وعيّنوها حيث لا وجود للخطر فيها ، إنْ على صعيد الضرر الجسمي ، أو المالي ، أو الضرر المتعلق بالكرامة وماء الوجه .

وفي الحقيقة إنهم هنا قد خفضوا قيمة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، إلى درجة كبيرة، إذ قالوا: إنّه لا بد من فعل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ، ولكن شرط عدم تعرُّض ماء وجه المرء للخطر ، أي إنّك لو خُيِّرت بين فعل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، من جهة ، وبين ماء وجهك المُهدد بالزوال ، فعليك ترك واجب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والتمسك بماء وجهك !!

بالطبع أنا أُقدّر أنّ مسألة ماء الوجه في الإسلام مسألة محترمة ، ولا شك أبداً في أنّ ماء الوجه وبدن المؤمن لهما احترامهما في الإسلام .

فالإنسان ليس من حقه أبداً أن يُعرِّض جسمه لأي جرح بسيط هكذا بدون علة ، أو سبب وجيه ، ولا يحق له كذلك أن يفعل بجسمه أيَّ شيء مهما كان صغيراً . فما بالك لتعريض حياته للخطر . والقول بأنه ينبغي على الإنسان الامتناع عن تعريض حياته للخطر ، أمرٌ لا شك فيه على الإطلاق .

فالقرآن الكريم واضح في هذا المجال حيث يقول تعالى : ﴿ ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾[1] إذ لا يحق للإنسان أنْ يرمي بنفسه عن سطح بناية مثلاً ، وينتحر لمجرد أنّه واقعٌ تحت ضغط شديد من الديون ، أو أنّه فشل في علاقة حُب ، أو أنّه يائس من الاستمرار في حياته ، بسبب المستقبل الأسود ، الذي يتراءى له .

فالمنتحر حسابه تماماً كحساب من يقترف جريمة قتل بحق إنسان آخر ، والقرآن الكريم يقول في باب القتل العمد : ﴿ فجزاؤه جهنّم ﴾[2] نعم فجزاء من يقتل النفس المحترمة ، سواء أكانت تلك النفس شخص الإنسان أو أيّ إنسان آخر ، هو جهنم لا محالة ﴿خالداً فيها﴾ كما يقول القرآن الكريم .

إنّ الذين يتصورون أنّ مصائرهم بيدهم مُخطئون ، وأموال الناس ، وثرواتهم محترمة ، ذلك أنّ المال الذي يملكه المرء ليس ماله وحده ، إنه بالدرجة

---

(1) سورة البقرة : الآية ١٩٥

(2) سورة النساء : الآية ٩٣ .

الأولى مال المجتمع ، وبالدرجة الثانية ماله ، ويحق له الاستفادة منه ، لكنه لا يحق له تضييعه ، أو تبذيره ، أو الإسراف في استخدامه .

فالإسلام لا يُعطي للإنسان مثل هذا الحق أبداً ، والمال والمُلك محترم في الإسلام ، كما البدن ، والنفس ، والكرامة .

وهل يحق للمرء أن يتصرف في المجتمع كيفما يشاء ، بحيث تتعرض كرامته للخطر ، أو يصبح موضع اتهام بدون سبب ، أو علة ؟ !

فالحديث واضح في هذا المجال إذ يقول : « اتّقوا مواضع التهم » .

كل هذا أمرٌ متفقٌ عليه ، ولكن البحث يدور حول مدى الاهتمام ، والأولوية الممنوحة للأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، أمام هذه الأمور المحترمة .

نعم المطلوب معرفة حجم الاحترام المتوفر لفعل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، بدقةٍ ، وهل هو كبير لدرجة انطباق الحديث الشريف الآنف الذكر عليه حيث يقول (ص) : « إذا اجتمعت حُرمتان تُركت الصُغرى للكبرى » .

إنّ بعض علماء الإسلام ، ومع شديد الأسف ، ينبغي عليّ أن أقول : إنّ بعض كبار علماء الشيعة أيضاً ، والذين لم ننتظر منهم مثل هذا الموقف يقولون : بأنّ حدود الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، تقف عند نقطة عدم حصول الضرر بالمطلق ، وليس عدم حصول المفسدة .

نعم في حدود عدم تعرّض مالك ، وحياتك ، وكرامتك للضرر ، أي إنّك إذا ما رأيت أنّ الضرر سيلحق بواحدةٍ من هذه الجهات ، فما عليك إلاّ أن تتخلى عن هذا الواجب ! إنّه أصغر من أنْ يُقارنُ بالنفس ، أو المال ، أو الكرامة ! إنهم يُخفّضون من قيمة فعل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر إلى هذا الحد .

لكن هناك من يرى المسألة بشكل مختلف ، ويقول بأنّ قيمة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، أرفع من ذلك ، ولكن بالطبع فإنّ المسألة نسبية ، وتختلف من مسألة إلى أخرى .

فأولاً يجب أن نعرف المجال الذي يُراد منّا أنْ نمارس فيه الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ؟ وما هو الموضوع الذي نُريد أن نمارس حوله هذا الواجب المذكور ؟

فأحياناً يكون الأمر بالمعروف ، أو النهي عن المنكر ، يتعلق بموضوع تافه لا قيمة له ، كأن يقوم أحدهم برمي الأوساخ في زقاق المحلة ، ولا يحق له أن يقوم بمثل هذا العمل القبيح ، وينبغي عليك هنا أن تنهى عن المنكر ، كما ينبغي عليك هداية هذا الرجل ، وإرشاده ، وتوجيهه بحيث لا يرمي الأوساخ في الزقاق بعد الآن .

ولكن هناك مسألة ، وهي : إنّه إذا ما كانت مثل هذه الهداية ، أو مثل هذا النهي عن المنكر ، سيؤدي إلى سماعك لنوع من السباب ، والشتم ، والتعرّض لناموسك ، وشرفك ، ففي مثل هذه الحالة يكون الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، أقل قيمة من تعرض كرامة الشخص للضرر .

ولكن في أحيانٍ أخرى قد يكون موضوع الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، موضوعاً وضع له الإسلام أهمية وقيمة أبلغ وأرفع من مال الإنسان ، وثروته ، وكرامته .

فالمسألة تدور حول تعرض القرآن للخطر ، وأنّ كل المؤامرات ، والدسائس تدور حول محاربة القرآن ، والحالة العامة توحي بالخطر الداهم على القرآن ، ومبادىء القرآن .

إنّ الخطر الذي يوشك أنْ يقضي على العدالة ، وهي الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه الأنبياء كافة في المجتمع البشري كما ورد صريحاً في القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رُسُلنا بالبيّنات ، وأنزلنا معهم الكتاب ، والميزانَ ، ليقومَ الناسُ بالقِسطِ ﴾[1] .

فالقضية هي قضية الظلم ، والعدل ، وهي أصل ومحور الحياة البشرية ،

---

(١) سورة الحديد : الآية ٢٥ .

ويقول النبي الأكرم (ص) : « المُلك يبقى مع الكُفر ، ولا يبقىٰ مع الظُلم » .

أو أن تكون القضية المُعرّضة للخطر هي قضية الوحدة الإسلامية ، وكلنا يعرف مدى الحساسية الخاصة ، والعناية الفائقة ، التي يوليها الإسلام ، لمثل هذه القضية الكبرىٰ ، قضية وحدة المسلمين كما جاء في قوله تعالى : ﴿ واعتصموا بِحَبْل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾[1] .

فهل يجوز لك أن ترى دسائس الأعداء ، ومؤامراتهم الداعية دوماً إلى بث الفتنة بين المسلمين، وتمزيق وحدتهم ، ثم تقول :

وما شأننا بفعل الأمر بالمعروف ؟ أو فلندع الكلام جانباً في مثل هذا الموضوع !

أو ما شأني أنا والنهي عن هذا المنكر ؟!

وإنني لو قمت بهذا الواجب فإنّ حياتي ستكون معرضةً للخطر ، أو إنّ كرامتي ستكون مهددة بالضياع ، أو إنّ المجتمع سينبذني ، وإلى غير ذلك من التّرّهات !!

وبناءً عليه نقول : إنّ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر في مجال القضايا الكبرى لا يعرف الحدود ، وليس هناك أمر محترم في هذه الحالة يمكن مقارنته بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، أو يمكنه أنْ يُعيق تأدية هذا الواجب .

إنّ هذا المبدأ يدور في الواقع حول نوع موضوع الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وهنا بالذات يتبين لنا إلى أي مدى رفع الحسين بن علي من قيمة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

فكما أنّ أصل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، رفع من قيمة النهضة الحسينية ، كما بيّنا ذلك آنفاً ، فإنّ النهضة الحسينية بدورها قد رفعت هذا الأصل والواجب الإلهي .

---

(1) سورة آل عمران : الآية ١٠٣ .

ذلك أنّ الحسين بن علي قد بيّن للعالم أجمع أنّ مسألة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، قد تصل إلى درجة يتطلب فيها من الإنسان أن يُضحّي بنفسه، وماله، وكل ما يملك، في سبيل هذا الأصل، ويتحمل في سبيل ذلك كل أنواع اللوم، والانتقاد، كما فعل الحسين نفسه.

فالنهضة الحسينية لم تحظ بتأييد أحدٍ من الناس، نعم بالمستوى الذي كانوا يُفكرون به، وقد كانوا على صواب في حدود تصوراتهم للموضوع.

لكن الحسين بن علي كان يرى ما وراء حدود رؤياهم، إنهم كانوا يتصوررون جميعاً بأن الأمر لا بد منحصر بحدود الوصول إلى الزعامة، وحسم أمر السلطة، ولذا فإنهم كانوا يرون العاقبة السيئة المتوقعة، وكانت توقعاتهم دقيقة وصحيحة.

والإمام الحسين نفسه عندما رأى بعينه ما كان يدور حوله في يوم عاشوراء قال: «لله دَرُّ ابن عباس يُنظرُ من ستْرٍ رقيق».

إنّه ـ أي ابن عباس ـ قد أخبرني بكل هذه الأحوال، وبالمصير المنتظر لأهل بيتي، وأنا في المدينة المنورة، نعم فقد قال ابن عباس للحسين (ع) وهو لم يزل في المدينة، بأنّك لو ذهبت إلى الكوفة فإنني على يقين بأنّ أهلها سينقضون عهدهم معك، وهذا ما أكّده الآخرون أيضاً، والذين قوبلوا أحياناً بالصمت من قبل أبي عبد الله، وقد رَدّ على أحدهم عليه السلام: «لا يخفى عليّ الأمر».

إنّ أبا عبد الله (ع)، قد أثبت في هذه النهضة، أنه، ومن أجل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، نعم من أجل هذا الأصل الإسلامي، يمكن للمرء أنْ يُضحي بحياته، وماله، وثرواته، ويتحمل كل أنواع اللوم والانتقاد.

فهل هناك أحد في الدنيا منح قيمةً لأصل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، بمقدار ما أعطاه الحسين بن علي؟

إنّ معنىٰ النهضة الحسينية يُفيد بأنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالغ القيمة إلى الحد الذي يُمكن فيه للمرء أن يُضحي في سبيله بكل شيء.



إنّه ومع حصول النهضة الحسينية ، لم يَعُد هناك مجال للحديث عن وجود حدود لفعل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، كلا فهو لا يعرف الحدود ، نعم يعرف المفسدة ، أيْ إنّ أولئك الذين يقولون بأنّ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر مشروط بعدم حصول المفسدة ، يقولون عين الصواب ، حتى وإنْ اعتمدوا الضرر بمعنى المفسدة .

أي إنّه قد يحدث أحياناً أنْ أكون راغباً بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وأُريد خدمة الإسلام من خلال ذلك ، إلاّ أنّ عملي في هذا بحد ذاته يوجد مفسدةً أخرى للإسلام ، وليس لي شخصياً بالطبع .

نعم مفسدة للإسلام هي أكبر من تلك الخدمة التي أردتها من خلال عملي ذلك للإسلام .

كثيرون هم أولئك الأفراد الذين ينهون عن المنكر ، لكنهم ليس فقط لا يجنون نتائج إيجابية من عملهم ذلك ، بل إنهم يُخرجون ذلك الشخص الذي نهوه عن فعل المنكر من الدين تماماً .

إنني أقبل بوضع إمكانية ترتُّب المفسدة ، واعتبارها الحدود التي تفصل بين ضرورة القيام ، أو عدم القيام بواجب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ولكن لا أقبل بأنْ تكون الحدود هي الضرر ، لا سيما إذا ما كان الضرر شخصياً (أياً كان الموضوع) .

ودليلي على ذلك هو عدم قبول الحسين بن علي (ع) لمثل هذه الحدود ، بالإضافة إلى دلائل أخرى ، لا مجال لبحثها الآن .

إن الحسين بن علي (ع) قد استمسك بهذا الأصل ، وأثبت لنا جميعاً بأنه قد قام ، وانتفض دفاعاً عن هذا الأصل المقدس ، أو أنّ أحد العوامل التي دفعته للقيام ـ أحد العوامل على الأقل ـ كان هو هذا الأصل .

لقد سبق له عليه السلام أنْ وضّح وبيّن في زمن معاوية بعض العلائم ، والقرائن ، التي كانت تُفيد بأنّه كان يُمهّد للقيام والثورة .

فقد جمع صحابة النبي في (منى) وتحدث إليهم ، وبين لهم الحقائق ، وشرح لهم المفاسد البارزة آنذاك ، ونبّههم على الواجب المُلقى على عاتقهم بهذا الخصوص ، وقد ورد كل هذا بالتفصيل ، وعلى أحسن وجه في ذلك الحديث الشهير المعروف عنه عليه السلام في « تحف العقول » ، وهو الحديث الذي يُبيّن لنا بشكل كامل ، كيف كان يفكر الحسين بن علي (ع) في مثل هذه القضايا .

يروى أنّ الحسين (ع) قد كتب إلى معاوية في أواخر عهده ، كتاباً رمى به بن أبي سفيان باللوم ، والانتقاد الشديد ، ومن جملة ما قال له فيه :

« يا معاوية بن أبي سفيان ! وايمُ الله ! إني لخائف الله في ترك ذلك » .

أي في ترك محاربتك ، وهو يُريد أن يقول له بذلك : إنّك وإن رأيت الحسين (ع) اليوم ساكتاً ، لكن هذا لا يعني أنّه لا يُحضّر للثورة .

إنني إنما أبحث عن الفرصة المناسبة والمؤاتية ، للثورة وذلك حتى يكون قيامي مُفيداً ، ومؤثراً ، ويُساعدني على المضيّ ، ولو خطوةً واحدة في سبيل الوصول إلى ما أصبو إليه ، وأبذل جُهدي في سبيله .

وهذا ما جاء بصراحة في وصيته عليه السلام لمحمد بن الحنفية ، في اليوم الأول لخروجه من مكة ، عندما قال :

« إني ما خرجتُ أشراً ، ولا بطراً ، ولا مُفسداً ، ولا ظالماً ، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي ، أُريد أن آمر بالمعروف ، وأنهى عن المنكر »[1] .

إنّ أبا عبد الله الحسين ، ظل مستمسكاً بهذا الأصل ، في مواضع متعددة ، وهو في طريقه إلى الكوفة ، من دون أن يتطرق إلى ذكر البيعة ، أو ذكر دعوة أهل الكوفة له .

والعجيب في الأمر أنه عليه السلام ، كان كلما جاءته أخبارٌ موحشة ، ومتشائمة من الكوفة ، كلما كانت خطبه عليه السلام تأخذ طابعاً حماسياً ، أكثر من الخطب التي سبقتها .

---

(١) مقتل الخوارزمي ج ١ ص ١٨٨ .

وكما جاء في الروايات ، فإنه وبعد سماعه نبأ استشهاد مسلم بن عقيل (ع) ، خطب خطبته المعروفة :

« يا أيها الناس ! إنّ الدنيا قد أدبَرَتْ وأذِنت بوداع ، وإنّ الآخرة قد أقبلت وأشرفت بصلاح » .

وهي خطبة مقتبسة من كلام أبيه علي (ع) . ثم يقول (ع) :

« ألا ترون أنّ الحق لا يُعمل به ، وأنّ الباطل لا يُتناهى عنه ؟ ليرغَب المؤمن في لقاء الله مُحقّاً »[1] .

فهل تلاحظون تعبيره عليه السلام إذ يقول : « . . . ليرغبُ المؤمن . . . » ، ولم يقل ليرغب الحُسين بن علي بشكل خاص ، وإنّ المهمة هذه من المهمّات الخاصة ، المُلقاة على عاتق الإمام فقط ، دون غيره ، من الناس العاديين .

نعم ففي مثل هكذا ظروف ينبغي للمؤمن أن يُضحي بروحه ، وبكل ما لديه ، ويتّجه للقاء الله ، أي إنّ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، لديه كل هذه الأهمية ، وهذه القيمة البالغة ، والغالية .

وفي إحدى خطبه في منتصف الطريق إلى الكوفة ، تراه عليه السلام يقول بصراحة :

« إني لا أرى الموتَ إلاّ سعادةً ، والحياة مع الظالمين إلاّ بَرَما »[2] .

وقد جاء في بعض النسخ تعبير « شهادةً » بدل « سعادة » أي إنه عليه السلام لا يرى الموت في مثل هذه الحالات سوى شهادة في سبيل الحق .

أي إنّ من يُقتل في سبيل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، إنما يُقتل شهيداً . كما أنّ المعنى الآخر أي « لا أرى الموت إلاّ سعادة » في الحقيقه إنما يعطي نفس المفهوم الاستشهادي ، والحياة مع الظالمين إلاّ برماً . أي إنني لا أرى مجالاً ،

---

(١) تحف العقول ص ٢٤٥ مع اختلاف بسيط في النص .

(٢) المصدر السابق .

أو إمكـانية للعيش مـع الظالمـين ، والتعايش معهم ، فـروحي ليست تلك الروح التي تتعايش مع الظالم .

الموقف الأقوى والأكثر صراحةً ، يمكن لنا أن نراه عندما تصبـح الأوضاع ، والحالة العامة ، يائسة مئة بالمئة ، وهو الوقت الذي يصل فيه الحسين بن علي إلى حدود العراق ، ويصطدم بجيش الحُر بن يزيد الرياحي .

إنّ ألف مقاتل جاؤوا ليأخـذوه مخفوراً إلى الكـوفة ، ويُسلّمـوه لابن زياد ، هُنا وفي مثل هذه الظروف القائمة ينقل المؤرخون المعتبرون خطبةً مشهورة للحسين بن عـلي (ع) ، ورد ذكرهـا على لسـان المؤرخ المعروف الـطبري ، وهي الخطبـة التي يُذكر فيها الإمام بقول جده النبي (ص) وهو يأمرنا بـالتمسك بـالأمر بـالمعروف ، والنهي عن المنكر ، حيث يقول رسول الله (ص) :

« أيهـا النـاس ! من رأى سُلطانـاً جـائـراً ، مُستحـلاً لحرام الله ، نـاكثـاً لعهد الله ، مُستأثراً لفيء الله ، مُتعدّيـاً لحدود الله ، فلم يُغيّر عليه بقـولٍ ، ولا فعلٍ كان حقاً على الله أن يُدخله مدخَلهُ ، الا وإنّ هؤلاء القـوم قد أحلّوا حـرام الله ، وحرّموا حلاله ، واستأثروا فيء الله »[1] .

وبعد هذه المقدمة المنطقية نراه عليه السـلام ، يأخـذ النتيجة عـلى الفور ، ويقول لأصـحابه ، ولجميع من يسمع من جيش الحر :

« وقد علمتم أنّ هؤلاء القوم قد لزموا طاعـة الشيطان ، وتـولّوا عن طـاعة الرّحمن ، وأظهروا الفسـاد ، وعطّلوا الحدود ، واستـأثروا بـالفيء ، وأحلّوا حرام الله وحرّموا حلاله . . . »

فمن هم هؤلاء القـوم ؟ أليسـوا آل أُميـة ؟ نعم بـل هم كـذلك ، ومن ثم يُطبّق عليه السلام هذا الخطاب المحمّدي للأمر بـالمعروف ، والنهي عن المنكـر ، على شخصه فيقول : وإنّي أحقّ بهذا الأمر لقرابتي من رسول الله (ص) .

فهل يعد ذلك من عجب ، أن يُخلّد ذكر الحسين إلى الأبد ، بعـد أن تكون

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٠٤ .

صفاته وخصائله بمثل هذه الصفات والخصائل ، التي يذكرها التاريخ لنا ؟ فالحسين هذا ليس إنساناً لنفسه ، بل إنه ضحى بنفسه للإنسان ، ضحى بنفسه من أجل مجتمع البشر كُلهم ، وقدّم نفسه فداءً لمقدسات البشرية ، وقرباناً على طريق التوحيد ، ومن أجل العدالة والإنسانية .

ولذا نرى بأنّ أبناء الإنسانية جميعاً يُحبونه ، ويعشقونه ، من كل ملة وطائفة .

فالإنسان عندما يرى أحداً من الناس لا يصرف اهتمامه لشيء يتعلّق بشخصه ، وبذاته ، وكل ما فيه ، إنما هو مظهر من مظاهر الشرف والإنسانية ، فإنه عند ذلك يرى في ذلك الشخص جزءاً لا يتجزأ من نفسه ، منصهراً في ذاته .

لقد أراد الحُر أن يأخذ أبا عبد الله الحُسين معه إلى الكوفة لكن الإمام أبى ، ورفض ذلك ، فالحسين لم يكن على استعداد ليرضخ للذلة والهوان ، ذلك أنّ الحُر إنما أراده أن يأتي إلى الكوفة مخفوراً ، ولكن وبعد مفاوضات تقرر أن يجعجع الحُر بقافلة الحسين حتى تأتيه الأوامر مُجدّداً من الكوفة ، أيْ أن تسير القافلة ، وجيش الحُر في طريق لا يؤدي بهم لا إلى الكوفة ، ولا إلى المدينة .

وهكذا صار حتى انتهى بهما المطاف إلى أرض كربلاء ، وكان ذاك هو اليوم الثاني من محرّم الحرام ، عندما نزل عليه السلام في أرض كربلاء ، فنصب الخيم ، واستقر ، هو وأصحابه ، الذين كانوا يبلغون حوالي (٧٢) نفراً .

وفي الجهة المقابله لهم ، أقام العدو مُخيّمه وفيه من الجُند ما يُقارب الألف نفر .

وظلت رُسُل العدو في ذهاب ، وإياب ، من الكوفة ، وإليها ، والإمدادات تتوالى على معسكر العدو ، وبجّهه ألفاً ، وثلاثة آلاف ، وخمسة آلاف ، حتى كَمُلَتْ ثلاثين ، وذلك في اليوم السادس من مُحرّم ، كما جاء في الروايات .

وعندما حانت ساعة المواجهة ، قرر ابن زياد أن يكون قرار الحرب ، وأن تكون إمارة الجند والعساكر ، جميعاً ، بيد عمر بن سعد .



واختياره لعمر هنا كان نوعاً من الحرب النفسية ، حيث إنّ هذا الرجل هو ابن سعد بن أبي وقّاص ، الرجل الذي اعتزل السياسة والحكم ، في زمن خلافة أمير المؤمنين علي (ع) ، حيث وقف على الحياد ، ولم يرد أنْ يأخذ موقفاً منحازاً آنذاك ، الأمر الذي كان يعني نوعاً من ضعف العصبية الشيعية في هذا الرجل ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإنّ هذا الرجل (أي سعد بن أبي وقّاص) قد كانت له مواقف بطولية في المعارك والغزوات الإسلامية في عهد النبي (ص) ، فذاع صيته ، ولمع اسمه بين الناس ، الأمر الذي لا شكّ أنه ترك أثراً من المحبة ، والشعبية في قلوب الناس ، نسبةً لهذا الصحابي الشهير .

وبالتالي فإن اختيار عمر بن سعد ، كان يعني انتخاباً لابن ذلك الصحابي الشهير ، وأمير الحرب المعروف ، الذي شارك في غزوات الإسلام ، وفتوحات الدولة الإسلامية الأولى .

وابن زياد باختياره لعمر بن سعد ، أراد أن يوحي للناس ، بأنّ هذه الحرب التي سيشنها على الحسين (ع) ، إنما هي من قبيل تلك الغزوات والحروب الأولى ، وأنه كما كان سعد بن أبي وقاص يُقاتل الكفر ، فإن ابنه [والعياذ بالله] يُقاتل اليوم فرقة من الفرق الخارجة على الإسلام .

ولّما كان عمر بن سعد رجلاً مُدركاً لحقائق الأمور ، إلاّ أنّ طمع الجاه والسلطان ، كان قد سيطر عليه ، لا سيما وأنّه قد أظهر طمعه هذا في مناسبات عديدة ، لذلك فإنّه أراد التخلّص من هذا الإحراج ، ولم يكن يُريد التورط في مثل هذه المعركة أبداً ، فأخذ يتوسل إلى ابن زياد أن يعفيه من هذه المُهمة .

لكن ابن زياد الذي كان يعرف نقطة ضعف عمر بن سعد جيداً وكان قد أصدر إليه من قبل أمراً بتولي حكومة ـ ري وجرجان ـ قال له على الفور : سأخلعُك عن ولاية الري وجرجان ، وبعد ذلك إذا أردت عدم قبول هذه الأمارة فأنت حُر !

ولّما كان عمر ، قد عقد آمالاً كبيرة على الحكم ، وقلبه يرفُ للمُلك ، فإنّه تراجع قليلاً ، وقال لابن زياد :



أمهلني قليلاً ، ودعني أتأمل في الأمر بعض الشيء ، وعندما ذهب عمر بن سعد ليشاور أصحابه بالأمر فإن كل من تحدث معهم نصحوه بعدم قبول مثل هذه المهمة ، لكن طمع الحكم والملك قد غلب آخر الأمر ، وهكذا رضخ عمر بن سعد ، وأعلن عن موافقته على قبول المهمة التي أوكلها إليه ابن زياد ، نعم طمعاً في ولاية الري وجرجان .

لقد حاول عمر بن سعد أن يجمع بين الدنيا والآخرة أثناء وجوده في كربلاء ، وسعى كثيراً بهدف خلق ما يُسمىْ بحالة صلح بين طرفي النزاع ، أيْ إعفاء نفسه من دم الحسين بن علي ، أو على الأقل النجاة بجلده ، وليحصل بعد ذلك ما يحصل .

وقد عقد عدة جلسات تفاوض خلالها مع الحسين بن علي ولكن دون نتيجة .

وكما يقول (الطبري) فإنه بسبب انحصار هذه المفاوضات بين شخص الحسين (ع) وعمر بن سعد لا توجد عندنا صورة واضحة عمّا جرى في تلك المفاوضات ، والجزء اليسير المتداول هو ما صرّح به عمر بن سعد نفسه فيما بعد ، أو إننا سمعنا ببعض أخبارها على لسان الأئمة الأطهار ، وفيما عدا ذلك لا نملك أية معلومة دقيقة عن حقيقة ما جرى في تلك الجلسات .

لقد كان يسعىْ بكل جهده أن تنام الفتنة ، ولا تقع الحرب [وكما كُتب في بعض الروايات فإنه حتى توسل أحياناً بالكلب من أجل تحقيق ذلك ولم ينفع] .

ولمّا وصلت الرسالة الأخيرة من قبل عمر بن سعد لابن زياد ، وهو في مجلسه في الكوفة ، فإنه أطرق مُفكراً ، وكاد يتراجع عن قرار الحرب ، وقد سُمع وهو يُتمتم قائلاً : ربما أمكن حل هذه القضية بالطرق السلمية .

لكن أولئك المتزلفين ، والمتملقين و- الملكيين أكثر من الملك - كما يقول المثل ، ممن كانوا حاضرين في المجلس ، لم يتركوا المجال لمثل هذه الأفكار أن تجد طريقها إلى الواقع ، فتدخلوا ، وكان بينهم شمر بن ذي الجوشن الذي انتفض من محله وقال :

أيها الأمير ! إنّك لَتُخطىء فكيف تقبل هذا منه ، وقد نزل بأرضك وإلى جنبك ؟ وإنه والله لو خرج سالماً من قبضتك ، فإنك سوف لن تقدر على الإمساك به مرةً أخرى ! ثم لا تدري أن شيعة أبيه لا ينحصر وجودهم في الكوفة فقط ، وأنهم كُثُرٌ في الدولة الإسلامية ، وإذا ما اجتمعوا من الأطراف ، والأكناف ، فإنهم سيكونون الأقوى ، وتكون أنت في موضع الضعف والوهن ، فلا تعطِ الحسين هذه المنزلة .

يقول الراوي : فإذا بابن زياد وكأنه قد أفاق من غفلةٍ ، ونهض على الفور وهو يقول للشمر : نِعمَ ما رأيت وأخذ يُنشد قائلاً :

الآن قد عَلِقَتْ مخالِبُنا به   يرجو النجاة ولاتَ حين مَناصِ

وفي المقابل ، فإنه كتب إلى عمر بن سعد رسالة غاضبة ، يقول له فيها :

« لم أبعثك إلى الحسين لتكفَّ عنه ، ولا لتطاوله ، ولا لتمنيه السلامة والبقاء ، ولا لتعتذر عنه . . . . » إلى أن يقول : « . . . فإنْ أنت مضيت لأمرنا فيه ، جزيناك جزاء السامع المطيع ، وإنْ أبيت فاعتزل عملنا وجندنا ، وخلِّ بين شمر بن ذي الجوشن وبين العسكر . . » .

وحمّل هذه الرسالة لشمر بن ذي الجوشن ، وقال له : سَلِّمها لابن سعد يداً بيد ، ثم كتب رسالة أخرى سرية لشمر بن ذي الجوشن نفسه ، سلّمه إياها لِيُنفِّذ أوامره ، في حال رفض عمر لأوامر ابن زياد .

وقد جاء في أمره للشمر يقول له : « . . . فإنْ فعل (أي قاتل عمر الحسين) فاسمع له وأطع ، وإنْ أبى أن يقاتلهم فأنت أمير الجيش ، فاضرب عنقه ، وابعث إليّ برأسه » .

يقول المؤرخون : إنّ شمر بن ذي الجوشن ، قد وصل إلى كربلاء ومعه هذه الرسالة إلى عمر بن سعد ، عصر يوم التاسع من محرّم ويوم التاسع من محرم كان يوماً حزيناً جداً على آل بيت النبي .

يقول الإمام الصادق (ع) : « إنّ تاسوعا يوم حوصر فيه الحسين »[1] .

نعم فهو يوم تدفقت فيه الإمدادات على جيش عمر بن سعد ، بينما لم يصل فيه شيء لأهل بيت النبي ، بل سُدّت بوجههم كل الطُرق .

وكما أسلفنا فإن ذلك اللعين من الأزل إلى الأبد [أي الشمر] ، يصل إلى كربلاء ، عصر يوم التاسع من محرم ، ويبدأ أولاً بتسليم كتاب ابن زياد ـ العلني لعمر بن سعد ، وينتظر جواب عمر ، وفي أعماقه يتمنى رفض ابن سعد لفحواه ، حتى يقطع رأس عمر بن سعد ، ويتولى هو قيادة الجيش بموجب كتاب ابن زياد السري الموجود عنده .

ولكن خلافاً لتوقعاته ، فقد كان رد فعل ابن سعد على عكس ذلك ، إذ نظر إليه أولاً نظرة ارتياب ثم قال له :

« . . . والله إني لأظنك نهيته عمّا كتبتُ به إليه ، وأفسدت علينا أمراً قد كنا رجونا أن يصلح ، . . . » .

فقال له الشمر : « أخبرني ما أنت صانع ؟ أتمضي لأمر اميركَ ، وتُقاتل عدوه ، وإلاّ فخلّ بيني وبين الجند والعسكر » .

فقال عمر : لا ولا كرامة لك ، ولكن أنا أتولى ذلك ، فدونك فكن أنت على الرجّالة .

لعمر بن سعد يعرف جيداً حجم مقام الشمر لدى ابن زياد [فهما من سنخ واحد ، وطبقة واحدة ، وكلّما كان الواحد منهم شقياً وقاسي القلب أكثر ، كلما كان أقرب إلى ابن زياد] .

- ولذلك تراه سلّمه إمارة الرجّالة .

فكتاب ابن زياد لعمر بن سعد كان قاسياً جداً : « . . . أنظر فإن نزل حسين وأصحابه على حكمي ، واستسلموا ، فابعث بهم إليّ سلماً ، وإن أبوا

---

(1) نفس المهموم ص ٢٢٥ نقلاً عن كتاب الكافي ج ٤ ص ١٤٧ .

فازحف إليهم حتى تقتلهم وتُمَثّل بهم ، فإنهم لذلك مستحقون ، فإنْ قتلت حسيناً فاوطىء الخيل صدره ، وظهره ، فإنه عات ظلوم . . . »

يقول الراوي : كان الوقت يقترب من غروب التاسع من محرّم ، والحسين بن علي قد جلس خارج إحدى الخيم ، وقد وضع يديه على ركبتيه ورأسه فوق يديه ، واستسلم إلى النوم .

في تلك اللحظات بالذات ، كان عمر بن سعد قد أتمّ لتوّه قراءة كتاب ابن زياد ، وإذا به ينطلق صائحاً :

« يا خيل الله ! اركبي وبالجنة أبشري » .

[يا لها من مغالطة ورياء وغش وخداع للرأي العام !] ، وهكذا كما يقول الرواة فإن جند عمر بن سعد الثلاثين ألفاً الذين كانوا يُحيطون بمخيم الحسين من كل جانب ، قد تأهبوا وهاجوا وماجوا كالطوفان ، وبدأ صهيل الخيل ، وجلجلة السلاح يُسمع في كل أنحاء الصحراء .

كانت العقيلة زينب عليها السلام في هذه الأثناء ، داخل إحدى الخيم ، تراقب الوضع الصحي لزين العابدين (ع) ، وإذا بها تسمع بهذه الأصوات ، فتخرج على الفور لترى جيش العدو ، وقد بدأ يُشدد الحصار على مخيم الحسين ، فأتت على الفور إلى أخيها أبي عبد الله وهي تقول له :

أُخيه انهض وانظر ماذا يدور حولك ، الا ترى وتسمع ؟ أنظر ما الخبر هنا !

وينهض الحسين ويرفع رأسه من دون أن يُعير ، أي اهتمام للعساكر ويقول لها بأنه قد كان لتوّه في عالم الرؤيا ، مع جدّه الذي بَشّرهُ ، بأنه عمّا قريب سيلتحق به ، والله العالم فقط ماذا حلّ بزينب عليها السلام وكيف كانت تُعاني في تلك اللحظات !! .

الليلة هي ليلة عاشوراء ، ليلة إذا ما دققنا جيداً بالحالة التي عاشها الحسين ، وأصحاب الحسين ، من شهداء كربلاء ، فإننا سنعيش مزيجاً من

شعورين مختلفين ، فمرة ستلتهب مشاعرنا حماساً عندما نتذكر تلك الروح الشجاعة ، والمعنويات العالية التي كانت تطبع سلوكهم ، وتظهر عليهم جلية ، في تلك الليلة ، ولكن في أخرى فإن صعوبة الوضع ، وقسوة الظروف التي حكمتهم ، ستجعلنا نحزن ، ونتأثر لحالهم تأثراً شديداً .

وكما تشير الدلائل المختلفة ، فإن مقدار المعاناة التي تعرضت لها السيدة زينب ، سلامُ الله عليها ، في تلك الليلة ، لم يتعرض لها أحدٌ مثلها ، وقد كانت من أصعب الساعات التي مرّت على العقيلة من أيّ وقت آخر في حياتها ، ذلك أنها في يوم عاشوراء نفسه كانت سلام الله عليها قد استمدت قوة معنوية هائلة ، من خلال رؤيتها لما كان يدور حولها من مشاهد ترفع المعنويات وتقوّيها .

لقد حصلت ليلة العاشر من محرم حادثتان مليئتان بالمشاهد المعنوية قلبتا أحوال العقيلة زينب ، ورفعتا من معنوياتها تماماً ، الأولى حصلت عصر يوم التاسع من محرم ، والثانية ليلة العاشر :

ففي تلك الليلة وضع أبو عبد الله الحسين برنامجاً تعبوياً مفصلاً ، حيث إنّ جزءاً من ذلك البرنامج ، كان يتضمن القيام بمهمة تهيئة السلاح ، وتجهيز القوات ، بالتعاون مع أصحابه ، فقد كان هناك رجل من أصحاب الحسين اختصاصي بصناعة الأسلحة يدعى ـ جون ـ أو ـ هون ـ وهو مولى سابق ، حرره أبو ذر الغفاري ، خصص له الحسين (ع) خيمةً ، ليتولى فيها تهيئة السلاح ، وصناعة السيوف ، وكانت هذه الخيمة مجاورة للخيمة التي أقام فيها زين العابدين عليه السلام ، حيث كانت ترعاه فيها عمته العقيلة زينب سلام الله عليها .

وكانت الخيمتان متجاورتين تماماً ، وهو الأمر الذي أمر به أبو عبد الله (ع) أساساً ، عندما طلب إلى أصحابه أن ينصبوا الخيم ، في تلك الليلة بحيث تتشابك الأطناب ببعضها البعض ، لأسباب سآتي على ذكرها فيما بعد .

يقول الراوي وهو زين العابدين (ع) : إنّ عمتي زينب وبينما هي منهمكة في رعايتي الصحية ، وإذا بنا نسمع أبي يدخل على خيمة ـ جون ـ صانع الأسلحة ، ليرى سير العمل هناك ، وبعدها بقليل نسمع أيضاً أبي (ع) وهو يُردد

عدة مرات هذه الأبيات الشعرية بينه وبين نفسه :

يا دهرُ ! أفٍّ لَكَ من خليلِ ... كم لكَ بالإشراقِ والأصيلِ
وصاحبٍ ، وطالبٍ قتيلِ ، ... والدهرُ لا يقنع بالبديل
وإنما الأمرُ إلى الجليلِ [1]

ويضيف زينُ العابدين (ع) هنا فيقول .

كنتُ أسمعُ صوت أبي بوضوح كما كانت عمتي تسمعهُ كذلك ، وهكذا خيّم علينا صمتٌ ذو معنىً عميق ، وغامضٍ ، في نفس الوقت ، وإذا بقلبي يمتلىء عذاباً ومعاناة ، وكذلك قلب عمتي زينب ، وكما فضّلتُ عدم البكاء من أجل عمتي زينب ، فإنها هي الأخرى التزمت السكوت ، ولم تبكِ خوفاً على حالتي الصحية ، وقاومنا معاً لفترةٍ موجة العذاب النفسي ، واندفاعة الرغبة بالبكاء ، إلاّ أنّ عمتي زينب لم تستطع الصبر طويلاً ، فانفجرت أخيراً بالبكاء (نعم فهي امرأة ومن شأن النساء الرقة) ، وصارت تولول ، وتنوح ، وتبكي بصوت عالٍ ، وتصرخ ، وهي تقول يا ليتني لم أرَ مثل هذا اليوم ، ويا ليت الدنيا قد تداعت إلى الخراب ، قبل أن ترى زينب مثل هذه الساعة .

ثم توجهت وهي على هذه الحال لرؤية أبي عبد الله (ع) ، فاقترب منها عليه السلام ، وضمها إلى صدره ، وصار يهدّئها ويعظها ويقول :

أُخيه ! لا يذهَبَنّ بحلمك الشيطان » .

ما هذه الأشياء التي تقولينها ؟! ولماذا القول بخراب الدنيا ؟! وما شأن الدهر حتى تلعنيه؟! فالموت حق ، والشهادة حق ، والشهادة فخر وعزة لنا ، فجدي النبي كان خيرا مني ، وأبي علي ، وأمي فاطمة ، وأخي الحسن ، كلهم كانوا خيراً مني ، وكلهم رحلوا من قبلي ، وأنا راتحٌ أيضاً ، مطلوبٌ منك أن تنتبهي ، وتكوني أنت أميرة القافلة من بعدي ، وتتولي بنفسك رعاية الأطفال من أهل بيتنا !

---

(١) اللهوف ص ٣٣ .

فأجابته زينب ، وهي لا تزال تبكي ، برقةٍ قائلةً : ولكن يا أخي الحُسين ، كل هذا صحيح ولكن كلما كنتُ أفقدُ واحداً منكم من قبل ، كان يبقى معي عدد منكم ، أو واحد منكم على الأقل ، كنتُ أُعزي نفسي ببقائه ، وكان آخر من رحل هو الحسن ، وكُنتُ أعزّي نفسي بك يا أخي ! فإذا ذهبت فمن يبقى لزينب يُعزّيها ويهدّىء خاطرها بعدك ؟!

وأمّا في عصر التاسع من محرم ، وبعد أن كان أبو عبد الله ، قد حدّث زينب بما رآه عليه السلام ، في عالم الرؤيا ، فقد نادىٰ أخاه الأكبر ، أبا الفضل العباس ، وقال له :

« اركب أنتَ يا أخي حتىٰ تلقى ـ العدو ـ وتقول لهم : ما لكم ؟ وما بدا لكم ؟ وتسألهم إذا كانوا ولا بدّ يريدون الحرب معنا ، فإن الوقت الآن هو وقت غروب، وهو ليس وقت حرب [من المعروف أنّ التقاليد السائدة آنذاك كانت تمنع حصول الحرب ، والمعارك ، في مثل هذا الوقت ، حيث كانت المعارك تدور من الصباح حتى الغروب ، وبعدها يذهب الجند للراحة في مراكزهم ، ومعسكراتهم] .

وبالفعل فقد توجّه أبو الفضل العباس إليهم في نحو من عشرين فارساً ، فيهم عدد من كبار أصحاب أبي عبد الله ، منهم زهير بن القين ، وحبيب بن مظاهر ، وقال لهم : ما بدا لكم وماذا تريدون ؟

فردّ عليه عمر بن سعد قائلاً : « قد جاء أمر الأمير عبيد الله بن زياد أنْ نعرض عليكم أنْ تنزلوا على حكمه ، أو نناجزكم » .

فقال العباس : إذن انتظروا حتى أرجع إلى أخي أبي عبد الله ، وأعرض عليه ما ذكرتم .

وبالفعل انصرف العباس راجعاً يركض إلى الحسين (ع) يُخبره الخبر ، فقال له أبو عبد الله الحسين (ع) .

نحن لسنا بأهل استسلام ، وسنقاتلهم حتى آخر قطرة من دمنا ، ما داموا قد أرادوا ذلك ، ولكن ارجع إليهم فإنْ استطعت أنْ تؤخرهم إلى غد ، وتدفعهم عنّا العشية لعلّنا نُصلي لربنا الليلة ، وندعوه ، ونستغفره ، فهو يعلمُ أني كُنتُ قد أُحِبُ الصلاة لهُ ، وتلاوة كتابه ، وكثرة الدُّعاء ، والاستغفار .

ولولا العبادة ، والدعاء ، والاستغفار ، فإنّ الساعات ، والأيام ، والحياة كلها ، لا تعني شيئاً لأبي عبد الله الحُسين (ع) ، ولا يتصورنّ أحدٌ بأنّ التأجيل من أجل كسب مزيد من الفرص الحياتية .

ولما مضى إليهم أبو الفضل العباس ، وطلب إليهم التأجيل ، رفضوا في البداية ، إلاّ أنّ خلافاً وقع فيما بينهم حول الأمر ، وبادر أحدهم قائلاً :

ويلكم من أناس لا حياء لكم !! لقد كُنّا نُمهل الكفار في حروبنا معهم ، فكيف بنا الآن ونحن نقاتل أهل بيت النبوة ؟!

الأمر الذي دفع عمر بن سعد إلى الرضوخ إلى مطلب التأجيل ، ومخالفة أوامر ابن زياد العاجلة ، والقاطعة ، خوفاً على وحدة صفوف عساكره .

وهكذا رجع العبّاس من عند القوم ، ومعه رسول من قبل عمر بن سعد ، يقول : إنّا قد أجّلناكم إلى غد .

يقول الرواة : إنّ أبا عبد الله الحسين (ع) قد أمضى تلك الليلة بإشراق ، ونورانية ، وطمأنينة ، ومعنويات رفيعة ، وأحاسيس غير عادية تماماً ، وصدق الذين أطلقوا على تلك الليلة تسمية ليلة معراج الحسين .

وفي تلك الليلة أورد أبو عبد الله خطبته الغرّاء المعروفة ، حيث أذِنَ لِمَن يُريد من أصحابه العودة من حيث أتى ، وهو يقول لهم :

« . . . أمّا بعدُ : فإنّي لا أعلمُ أصحاباً أوفى ، ولا خيراً من أصحابي ، ولا أهل بيت أبرّ ، وأوصل ، من أهل بيتي ! فجزاكم الله عني خيراً . الا وإنّي لأظنُّ يوماً لنا من هؤلاء ، الا وإنّي قد أذِنتُ لكم ، فانطلقوا جميعاً في حلّ ، ليس عليكم حرجٌ مني ، ولا ذِمام ، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً ، وليأخذ كل

رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي ، وتفرّقوا في سواد هذا الليل ، وذروني وهؤلاء القوم ، فإنهم لا يُريدون غيري . . . . »

لكن أصحاب أبي عبد الله كانوا قد مروا من الغربال ولم يبق منهم إلاّ الصفوة المختارة .

يقول الراوي : فردوا عليه جميعاً بصوتٍ واحدٍ : ولم نفعل ذلك ؟ لنبقى بعدك ؟! لا أرانا الله ذلك أبداً .

وقد بدأهم القول العبّاس بن علي عليه السلام ، ومنهم من قال : والله يا بن رسول الله لوددنا أننا قتلنا ، ثم نشرت أرواحنا ألف مرة ، وإن الله قد دفع القتل عنك ، وعن هؤلاء الفتية من إخوانك ، وولدك ، وأهل بيتك . أرواحنا فداك يا أبا عبد الله !

ونحن نتحدث عن أهل بيت الرسول (ص) ، لا بد لنا أن نذكر في هذه الليلة ، ذلك الشاب اليتيم ، القاسم بن الحسن (ع) ، ونتوسل الخير من ذكره في ليلة عاشوراء .

أقول : وبعد أن رأى أبو عبد الله الحسين (ع) ، ذلك الوفاء ، والتصميم على الفداء ، لدى أصحابه ، وأهل بيته ، غيّر مجرى الحديث ، وقام بكشف وجه آخر من الحقيقة لهم بقوله :

إذن لا بد من إبلاغكم بهذه الحقيقة ، وهي أنّه سوف لن يخرج احدٌ منّا غداً سالماً ، من هذه المعركة ، وأننا سنستشهد جميعاً .

فاستبشر جميع الحاضرين خيراً ، واعتبروا هذه البشارة نعمةً إلهية خصّهم الله بها دون غيرهم .

أحد الأخوة الحاضرين يُذكّرني الآن بأمر هام ، فالمعلومات الواردة من خارج البلاد ، تُشير إلى أنّ اثنين من كبار أمتنا هما حضرة آية الله العظمى السيد الحكيم ـ دامت بركاته ـ وآية الله العلامة المجاهد صاحب كتاب « الغدير » العلامة الأميني ، مريضان ، ويرقدان في المستشفى .

ولمّا كان من واجبنا الدُّعاء لكل المؤمنين والمؤمنات ، لا سيما لقادتنا ووجهاء أمتنا ، فإننا نسألُ الله بحق الحسين بن علي ، وبحق روح وقلب القاسم بن الحسن ، أن يرزق العالمين المذكورين ، وكل المحبين من أمتنا الشفاء العاجل .

وقد كان من بين الحاضرين ، كما أشرنا ، ذلك الفتىْ اليافع الصغير ، الذي لم يناهز عمره الثالثة عشرة ، فعندما يسمع بتلك البشارة من أبي عبد الله ، يساوره الشك فيما إذا كانت هذه البشارة ، تصدُق عليه أيضاً ، أم إنّها ربما كانت مخصصةً للكبار فقط .

وطبيعي أنْ يراود مثل هذا الفكر ذلك الفتىْ اليافع ، فهو بهذه البشارة من جهة ، وهذه الأفكار من جهة أخرى ، قد ساوره القلق ، والاضطراب الشديدان ، ولذلك تراهُ أطل برأسه من بين الجمع ، ونادى عمهُ متسائلاً : « يا عمّاه ! وأنا فيمن يُقتل ؟ »

لكن الحسين بن علي نظر إليه نظرةً رقيقةً ، لطيفةً ، وقال له : يا بن أخي ! أُريد أن أسألك أولاً ، فأجبني ، ثم أُجيبك على سؤالك هذا !

فقال له القاسم : تفضّل يا عمّاه !

قال : ما طعم الموت عندك ؟

فردّ الفتى على الفور : عمّاه ! « أحلى من العسل ! »

[أي إنّه أراد أن يقول لعمّه ، إنما سألتُك ليس خوفاً من الموت ، بل خوفاً من عدم حصولي على مثل تلك النعمة ـ الشهادة ـ] .

وعندها قال له أبو عبد الله : نعم يا بن أخي ! إنّك فيمن يُقتل ، ولكن بعد أن تُبلو بلاءً شديداً ، وتُعاني من آلامٍ شديدة .

لكن أبا عبد الله لم يوضح نوع البلاء ، والآلام ، التي سيتعرض إليها القاسم (ع) ، غير أن ما وقع للقاسم يوم عاشوراء ، قد أوضح المعنى المقصود .

فالقاسم عندما يبرز في اليوم العاشر إلى الميدان ، لم يكن لدى معسكر الحسين اللباس المناسب الذي يُلبسونه لهذا الفتىْ ، وكل ما يتعلق بوسائل

الحرب ، هو أكبر منه ، لكنه القاسم وهو ذلك الشبل الشجاع ، الذي لم يتوانَ عن المبارزة ، ومقاتلة الأعداء ، حتى يتلقىٰ ضربة غادرة أصابت مَفْرِقَه ، وأسقطته عن فرسه إلى الأرض .

أمّا عمهُ الحُسين ، فقد كان متأهباً ، واقفاً على باب الخيمة ، وهو يُمسك بلجام فرسه ، وكأنه ينتظر نداء النجدة من ابن أخيه ، وفجأةً سمع ذلك الصوت من بعيد يلف الفضاء : عمّاه إني راحلٌ فتلقاني .

يقول الراوي : فجاء الحسين كالصقر المنقض ، فتخلل الصفوف ، وشدّ شدة الليث الحرب ، فضرب عمراً قاتل القاسم بالسيف ، فاتقاه بيده فاطّنها من المرفق ، فصاح ثم تنحىٰ عنه ، وحملت خيل أهل الكوفة (يُقال في حدود مئتي فارس) ليستنقذوا عمراً منْ الحسين ،فاستقبلته بصدورها ، وجرحته بحوافرها ، ووطئته حتىٰ مات .

فانجلت الغبرة ، فإذا بالحسين قائمٌ على رأس الغلام ، وهو يفحص برجله ، وهنا سُمع صوت الحُسين يقول لابن أخيه : « عزيزٌ على عمّك أن تدعوه فلا يُجيبك ، أو يُجيبك فلا ينفعُكَ » .

ويُضيف الراوي : ثم احتمله ، فكأني أنظر إلى رجلي الغلام يخطان في الأرض ، وقد وضع صدره على صدره ، والقاسم يتوجع من شدة الألم ويضرب برجليه في الأرض ، وهو في هذه الحال : « فشهق شهقةً فمات » .

نعم في هذه الأثناء ، كان أبو عبد الله الحسين يجري بالقاسم ، نحو المخيم ، ويُلقيه بين قتلىٰ أهل بيته ، إنه لأمر عجيب وعظيم أيضاً !!

فعندما خرج القاسم يُريد المبارزة ، تراهُ يستأذن الحُسين ، ويتوسل إليه ، ولا يُريد أبو عبد الله أن يأذن له في البداية ، لكنه وبعد أن يأذن له ، يخرجان متعانقين ، وكما يقول الراوي : وجعلا يبكيان حتىٰ غُشي عليهما .

ولكن ها هي اللحظات الأخيرة من عمر القاسم ، وهو مرخي اليدين ،

وقد ضمّه الحُسين إلى صدره ، وهو مسربل بالجراح وصعدت روحه إلى السماء عليه السلام ، دون أن يتمكن من معانقة عمّه مرة أخرى .

ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم ،
وصلى الله على محمدٍ وآله الطاهرين ،
وسيعلم الذين ظلموا آل بيت محمد أي منقلبٍ ينقلبون .



المحاضرة السادسة

نتائج القول في : قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

بسم الله الرحمن الرحيم(*)

الحمد لله رب العالمين ، بارىء الخلائق أجمعين ، والصلاة والسلام على عبد الله ، ورسوله ، وحبيبه ، وصفيه ، وحافظ سره ، ومُبلّغ رسالاته ، سيدنا ونبينا ومولانا ، أبي القاسم محمد ، وعلى آله الطيبين ، الطاهرين ، المعصومين .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿ التّائبونَ ، العَابِدونَ ، الحامِدُونَ ، السّائحونَ ، الرّاكِعُونَ ، السّاجِدونَ ، الآمرونَ بالمعروفِ ، والنّاهونَ عن المنكر ، والحَافِظُونَ لِحدودِ الله ، وبَشّرِ المؤمنينَ ﴾[1] .

في المحاضرات الخمس الماضية ، تحدثتُ إليكم حول « عامل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، في النهضة الحسينية » . وفيما يلي أقدم تلخيصاً لنتائج تلك الموضوعات كافةً .

لقد قلنا قبل كل شيء إنّ الإسلام لا يضع حداً معيناً يُحدِّد فيه باب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . فالأهداف الإسلامية الإيجابية بأجمعها تدخل في عداد المعروف ، كما أن الموضوعات السلبية كافةً ، في الإسلام ، تدخل في عداد المنكر ، صحيح أنّ مدار البحث في موضوع الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ،

(*) أُلقيت هذه المحاضرة بتاريخ ١٠ محرم من العام ١٣٩٠ هـ . ق .

(١) سورة التوبة : الآية ١١٢ .



يتلخص في تعبير الأمر والنهي ، لكنه ، ونظراً للقرائن التي يمكن استنباطها من القرآن الكريم نفسه ، واستناداً إلى الأحاديث الإسلامية المؤكدة ، وتأسيساً على مسلّمات فقهنا الإسلامي ، وشهادة تاريخنا الإسلامي ، فإن المقصود ليس الأمر والنهي اللفظيّين فحسب ، بل إن المقصود هو الاستفادة من كل الوسائل المشروعة في سبيل تطبيق الأهداف الإسلامية ، وتدعيمها ، وترسيخها في المجتمعات ، وهذه هي الروح الحقيقية لواقع موضوع الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

ما أريد عرضه بإيجاز عليكم ، في هذه المحاضرة ، هو نتائج قولنا في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وكما ذكرت لكم في المحاضرات السابقة فإنّ هذا المبدأ هو واحد من أركان وأسس التعليمات الإسلامية ، وإنه ركن يتأكد موقعه من خلال النصّ الصريح في المتون الإسلامية ، وحديث النبي الأكرم (ص) ، وذهابه يعني ذهاب وضياع التعليمات الإسلامية كافة .

وأية عملية نسخ لهذا المبدأ ، تعني عدم وجود المجتمع الإسلامي ، وعدم قيامه بالصورة المطلوبة له أن يكون .

فما هو سجلنا في هذا الباب ؟ للأسف يجب القول بأنّ سجلّنا نحن المسلمين في هذا المجال ليس سجلاً مشرّفاً ، وهو سجلٌ غير مشرق .

أولاً : لأننا لم نُبدِ في هذا المجال ، تلك الحساسية الخاصة التي يُبديها الإسلام تجاه هذه الموضوعة ، أي إننا لم ندرك تلك الأهمية التي أولاها الإسلام لهذا الموضوع .

وثانياً : لأننا وعلى الرغم من تحسسنا لأهمية هذا الموضوع ترانا رغم ذلك لم نكن نحمل شروط العمل بتلك الموضوعة .

وتوضيح ذلك هو : إنّ النبي الأكرم (ص) عرّف الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، بتعبير : « كُلكم راعٍ ، وكلكم مسؤول عن رعيته »[1] أي إنكم أنتم يا أفراد الأمة الإسلامية جمعاء إنّما تقع عليكم ، فرداً فرداً ، مسؤولية حراسة

---

(١) الجامع الصغير للسيوطي ص ٩٥ .

الآخرين من أبناء أمتكم ، كما أنكم مسؤولون عن بعضكم البعض .

وهو تعبير لا نجد أرفع منه ، فهو تعبير جامع يخلق نوعاً من المسؤولية والالتزام المشترك ، بين أفراد الأمة المسلمة ، للمحافظة والدفاع عن المجتمع الإسلامي ، على قاعدة التعاليم الإسلامية .

والقيام بمهمة خطيرة كهذه المهمة بحاجة أولاً وقبل كل شيء إلى كسب المعرفة والاطلاع ، أي إن الفرد أو المجتمع الجاهل ، لا يمكنه إنجاز مثل هذه المهمة بشكل جيد ، وثانياً إلى امتلاك القدرة والإمكانيات اللازمة .

إنَّ القيام بمثل هذه المسؤولية الخطيرة ، والعمل بمثل هذا التكليف الكبير جداً ، يحتاج إلى القدرة والقوة ، ونحن المسلمين لم نحصل ولم نكتسب بعد القدرة والقوة اللازمتين لمثل هذا الموضوع ، ونحن نمتلك مثل هذه الطاقات ـ بالقوة ـ ولكننا لم نجمعها ونحوّلها إلى قوة بالفعل .

إنَّ الإحصائيات الدقيقة ، والصحيحة ، تشير إلى أنَّ تعداد المسلمين في العالم يبلغ حوالي الـ (٧٠٠ مليون) نسمة[1] . فكيف يمكن القول بأنَّ مثل هذا العدد الضخم لا يستطيع تشكيل قوة عظمىٰ في العالم ؟!

فلو أنَّ مثل هذا العدد الضخم فكّر في تنظيم نفسه ، وقرر أن يضع الأهداف والمُثل الإسلامية نصب عينيه ، وعزّز التضامن الإسلامي بين أفراده ، وقوّىٰ من أواصر التعاضد الإسلامي ، ووسّع من شبكة الاتصالات فيما بين قواه ، وتشكيلاته الداخلية ، فإنه من غير الممكن أن لا يحسب له العالم حساباً خاصاً ، كما هو حاله اليوم .

إنه لمن المستحيل عندئذٍ لأمريكا أن لا تحسب لمثل هذه القوة حساباً خاصاً ، وتستمر في قصف أراضي بلدان العالم الإسلامي بشكل مستمر ، كذلك من المستحيل أنْ لا يحسب الاتحاد السوفياتي بدوره ، حساباً لمثل هذه القوة الجديدة .

---

(١) لا شك أن تعداد مسلمي العالم قد تجاوز المليار نسمة في الوقت الراهن .

نعم بشرط أن تظهر هذه القوة ، وتبرز بشكل منظّم ، وليس بصورة قوى صغيرة ، متناثرة ، وشعوب تسودها الفرقة والاختلاف ، وتشيع وسطها دوماً موجات التنافر والانشقاق ، وتفتقر إلى أبسط أنواع التفكير المتعلق بشخصيتها الواقعية ، وهويتها المعنوية .

إنّ سجلنا نحن المسلمين ، في مجال التعاضد ، والتعاون الإسلامي ، في مجال التعارف (بالتعبير القرآني) ، أي معرفة أحدنا الآخر ، والاطلاع على أحوال بعضنا البعض ، والإحساس بالمصير المشترك فيما بيننا ، سجلٌ ضعيف ، وضعيف جداً ، إن لم نقل بظلمته وشينه .

لأنني أُريد الحديث في هذا الموضوع بالإجمال ، والإشارة لذلك ، أكتفي بالقول :

إذا ما أراد الواحد منّا معرفة وضع سجلّنا في هذا المجال ، فما عليه إلّا أن يُراجع أعمالنا في مجال العمل بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، أي التدقيق في مظاهر فعلنا وتنفيذنا لواجب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فماذا سيرى ؟

نحن ندّعي بأننا نقوم بمهمة التبليغ ، بمثابة نوع من أنواع الخدمة للإسلام ، ونحن نقيم المجالس الخاصة بالتبليغ في كل يوم ، دعونا نراجع بدقة سير عمل هذه المجالس التبليغية ، والإرشادية ، لنرى الكم العام المبذول في هذا المجال ، والمستوى الذي تطرح فيه القضايا ، ومن ثم نوع القضايا التي عادةً ما يتم طرحها في مثل هذه المجالس ؟ ثم إن المظهر الآخر من مظاهر التضامن الإسلامي الموجود بيننا نحن المسلمين وأحد أشكال تعاضدنا ، وقيامنا بواجب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، هو نشر الكتب الإسلامية .

وفي بلادنا الآن لا يزال الكتاب الإسلامي ، والديني ، هو الكتاب الأول في مكتباتنا ، ودور نشرنا ، ولكن دعونا نتحقق من مستوى هذه الكتب ، ونُدقق في قيمتها المعنوية ، بل وننظر في مستوى الكُتّاب المتصدين لهذه المهمة .

ثم لنتمعّن بعد ذلك في أهداف هذه الكتب ، ومضمونها ، فما هو المستوى الذي يتم من خلاله مخاطبة المسلمين ؟ أي ما هو المستوى ، وما هو المقام ، أو

الدرجة التي تتراوح فيها قضية الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ؟ وأيّ من المسائل الاجتماعية الإسلامية هي التي تشغل فكرنا ، وتأخذ من وقتنا ، أكثر من غيرها ؟ وتجاه أي نوع من القضايا نحن أميل في إبراز انزعاجنا ، أو إبداء الحساسية الخاصة في معالجتها ؟ ثم تجاه أي نوع من القضايا تُرانا نقف موقف اللامبالاة والاستهتار ؟

عندما نتحقق من كل هذه الأمور عندها سيصبح بإمكاننا تقييم نمونا الاجتماعي ، ومستوى تطوّر قضية الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وبالتالي تشخيص سجلنا في مسألة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

لقد كانت لنا حضارة عظيمة جداً ، نحن المسلمين ، طوال الأربعة عشر قرناً الماضية ـ من ضمنها تلك العصور الذهبية ، التي دامت حوالي الستة قرون ـ وقد تطرّق بعض الخطباء ، من علماء الاجتماع ، هنا في هذا المكان ، إلى مثل هذا الموضوع ، وتحدثوا لنا عن مدى القيمة البالغة للحضارة الإسلامية وأصالتها .

في الجزء الثاني من كتاب « محمد خاتم النبيين » استطاع الكاتب في أحد فصول الكتاب ، تحت عنوان « سجلّ الإسلام » أنْ يؤكد على حقيقة أصالة الحضارة الإسلامية ، وكون الحضارة إنما تنبع في الواقع من الإسلام فقط ، وأنها تعتبر في عداد أهم الحضارات الكونية ، وأنّه قد ورد ذكر الحضارة الإسلامية في عداد الحضارات الثلاث أو الأربع الأساسية من الطراز الأول ، في العالم مثلاً .

وإذا كان الأمر كذلك ، فأنا أسأل هنا : ما هو مقدار تحمسنا ، واهتمامنا تجاه هذا الموضوع ؟ وكم هو نشاطنا وحجم الفعاليّة المبذولة من قبلنا ، في سبيل الترويج لحضارتنا وتراثنا ؟

إنّ شبابنا يتصوّرون أنّ الإسلام لم يُقدّم شيئاً منذ انتشار الدعوة حتى يومنا هذا ، في الوقت الذي كان على الدوام الدليل العملي لسلوك الناس وأعمالهم ! لكنّنا لا نعرف شيئاً حتى عن كتبنا .

ولو سُئلنا عن اختراعات المسلمين في عالم الرياضيات لما استطعنا الإجابة عن حقيقة مثل هذا الأمر .

كل ما هُنالك أنّ بعض الفرنجة قد تحدثوا عن مثل هذه الموضوعات بشكل يضمن مصلحتهم العـامـة ، ولكن لحسن الحظ فـإن هنـاك عـدداً من العلماء الإيرانيين الذين قاموا ببعض التحقيقات ، والمطالعات ، في هـذا المجال ، وقـد توصلوا إلى نتائج واكتشافات بالغة الأهمية ، وأثبتوا بدقة بأنّ كثيـراً من النـظريات التي يدّعي العالم الغربي اكتشافها واختراعها ، إنّما قـد وُضعت في الواقـع في العالم الإسلامي .

إنّنـا نجهل تُـراثنـا في الحقـول الحيـاتيـة الأخـرى أيضـاً ، كحقـل الفن ، والصناعات الجماليّة ، والفلسفة ، والفيزياء ، والكيمياء ، والتاريخ .

فنحن نجهل حقيقتنا الماضية ، كما نجهل حقيقة وضعنا الراهن .

لقد قرأتُ بالأمس خبراً في الصحف يُبيّن بالضبط مستوى تطورنا ورُقيّنا ، وإن السادة الذين تشرفوا بزيارة مدينة (مشهد المقدسة) ، والـذين يُبدون اهتماماً ، ولو بسيطاً بمثل هذه المواضيع ، وسبق لهم أنْ زاروا المكان الذي توضع فيه المصاحف النفيسة داخل الحرم الرضوي المُقدس ، والمعروف بمتحف الحرم الرضوي ، قسم للمصاحف النفيسة ، فإنهم لا بد رأوا تلك المصاحف الخطيّة النفيسة جداً ، والتي يعود تاريخها إلى ما قبل عشرة أو أحد عشر قرناً من الزمان .

إنّ بعض تلك المصاحف يوجد فيه جوانب من العمل الفني ، أو الجمالي الفائق للتصور ، وكما يقول المشرف على هذا القسم : فإن واحداً من هذه المصاحف ، قد تم تخمين قيمته المادية فقط في حدود خمسة ملايين تومان [أي ما يُعادل حوالي المليون دولار في الوقت الحاضر مثلاً - المترجم -] فمن كَتَبَ هذه المصاحف ؟

إنّ الـذين كتبوا ، أو ساهموا في إخراج هـذه المصاحف ، بتلك الحالة الجمالية ، أو شاركوا في صناعتها الخطية ، كالتذهيب أو ما شابه ذلك ، نرى فيهم الإيراني ، والتركي ، والمغولي ، والعربي ، والهندي ، المهم أنّ الذي كان يدفع كل هؤلاء إلى الإبداع في هـذا المجال ، هـو الإسلام ، وحسّهم الإسلامي ، أي إن الروح الإسلامية هي التي تقف وراء كل تلك الإنجازات .

بالأمس قرأنا جميعاً في الصحف ، أنه تم اكتشاف مصحف يُقدّر ثمنه اليوم بحوالي الثلاثة ملايين تومان ، وهل تعرفون أين وجد هذا المصحف ؟

لقد تم العثور عليه في أحد صناديق الأوراق القديمة ، أي إنّ المصاحف المخطوطة كانت توضع بين أيدي القُراء طوال القرنين ، أو الثلاثة الأخيرة ، حتى يقرأ فيها الناس ، من أجل الحصول على الثواب ، دون أن يفهم هؤلاء المساكين قيمة هذه المصاحف ، فكان المصحف يقع بيد الأطفال مثلاً ، أو يقع بيد أفراد غير ملتزمين ، وبالتالي فإنه كان يتحول تدريجياً إلى أشبه ما يكون بالأوراق البالية ، فيُخلط مع سائر الأوراق القديمة ، ويُدفن خارج المدينة مع أكوام الورق ، والسلع البالية .

ولحسن الحظ ، فإنّ هذه المصاحف المُعدة للدفن ، قد تم العثور عليها في داخل أكياس من الورق القديم ، أريد لها ، كما يبدو ، أن تدفن مع أكوام من النفايات .

لكنه كما يبدو فقد صادف أنّ أحد الفضوليين ، قد ذهب وفتش بين تلك الأكوام ، وتمكن من جمع ما يُقارب ألفاً ومئة نسخة من هذه المصاحف القديمة ، والتي يُقدر الواحد منها بحوالي ثلاثة ملايين تومان .

فهل لاحظتم مقدار اهتمامنا ووعينا لتراثنا الثقافي والحضاري !! قسماً بالله لو أننا نبكي دماً على حالنا ، لكان ذلك قليلاً ، فلماذا يكون سجلنا ، نحن الشعب ، في باب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، إلى هذا الحد ،مُزرياً ووضيعاً ؟

أتعرفون ماذا يعني الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ؟ إنه يعني التعاضد ، والتضامن ، والتعاون ، والنضال المشترك ، والتعارف ، واكتساب الوعي والقدرة .

وعندما يتم طرح هذا المبدأ ، منذ اليوم الأول ، كدعامة من دعائم ديننا ، فإنه إنما يُطرح لأن ديننا دين اجتماعي ، وليس ديناً فرديّاً ، ولا هو دين الصوامع والأديرة .

إنّ الذين امضوا عمراً طويلاً في الصوامع والأديرة، يتجهون اليوم نحو التشكُّل ، والتضامن ، والتعاضد ، فكيف بنا نحن المسلمين ، الذين نملك ذلك الدين الاجتماعي ، دين الحياة ، والتعاون ، والوحدة ، والتضامن !!

أترانا ذاهبين حقاً باتجاه العزلة ، والانعزال ، والتفرقة ، والانفصال !

إنّ ديننا ، ودستورنا ، يدعواننا إلى امتلاك الوعي والمعرفة ، بل وإلى التنبؤ واستنباط المستتر ، والمخفي ، من حوادث المستقبل ، في حين أننا نعيش الآن في وضع ، ليس فقط لا نعرف فيه ماذا يُخبيء لنا المستقبل ، بل إننا نجهل حتى حقيقة الأوضاع التي نعيشها في الوقت الراهن !

وأمامنا الإمام جعفر الصادق (ع) ، قال قبل ثلاثة عشر قرناً : « العالِمُ بزمانه لا تهجم عليه اللوابس »[1] .

أي إنّ الأمة التي لا تعرف الحقائق المحيطة بها أُمةٌ مُعرضةٌ على الدوام لارتكاب الأخطاء ، والانحراف عن النهج القويم .

وبالتالي فإنها بدلاً من الانقضاض على العدو ، ستعمل على نهش كيانها ، وبدلاً من ضرب العدو ، وإلحاق الجراح به ، تراها تُدمي قلبها ، وتُسوّد سجّلها هي . نعم أُمةٌ تهيم على وجهها في التيه والضياع . وهذا هو حالنا اليوم وهذه حقيقة سجّلنا !!

في الجلسات المنصرمة ، حدثتكم عن قيمة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وأدركنا كيف أنّ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، قد رفع من قيمة النهضة الحسينية ، وكذلك كيف أنّ النهضة الحسينية بدورها ، قد رفعت ، وعزّزت اهمية وقيمة موضوعة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

والآن ماذا علينا أن نفعل حتى نصبح نحن أُمةً رفيعة المقام ، وأمة معتبرة يُحسب لها حساب بين الأمم والشعوب ؟

إن هذا السؤال قد أجاب عنه القرآن الكريم ، عندما ورد في ذكره

---

(١) تحف العقول ص ٣٥٦ .

تعالى : ﴿ كُنتم خير أمةٍ أُخرجت للنّاس ﴾ نعم ولكن بشرط : ﴿ تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾[1] .

فهل تُريد حقاً ـ يا أخي ـ أن تمنح نفسك قيمة واعتباراً ؟ هل تُريد أن ترفع من مقامك لدى رسول الله ؟ .

إنه لا يتم لك ذلك إلاّ بالعمل بهذا الأصل ، وعند ذلك تحفظ مقامك عند الله وعند رسوله ، وإذا ما أرادت أمتنا أن يُحسب لها حسابٌ بين الأمم والشعوب العالمية ، وأن يحترمها المعسكر الشرقي ، كما يحترمها المعسكر الغربي ، فإنّ عليها أن تخرج نفسها من التبعية لهذه القوى ، وتمتلك الحاكمية المستقلة ، وتُقرر مصيرها بنفسها . أي أن تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتُعزّز أسس التضامن ، والتعاضد ، والأخوة ، وتُحيي التكافل الأخوي فيما بين صفوفها ، وترمي جانباً كل مظاهر الجهل ، والضعف ، واللامبالاة .

فالجهل إنما يُفقد الأمة مقومات الشعور ، والاطلاع ، على حقائق الزمان ، واللامبالاة إنما تجلب للأمة الضعف ، والهوان ، والارتهان .

ثم هل يكفينا أن نجلس هنا ، ونقول : إنّ عنصر الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، كان عاملاً هاماً من عوامل النهضة الحسينية ، وإنه أعطى زخماً كبيراً للحسين (ع) .

وإنّ الحسين بن علي (ع) في ترجمته لهذا العامل بالعمل ، إنما رفع من قيمة هذا العامل .

وإنّ الإسلام قد منح أهمية بالغةً لموضوعة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، واعتبرها دعامة أساسية من دعائم الدين والتعاليم الإلهية .

وإنه لا قيمة لسائر التعليمات الدينية الأخرى بدون هذا الأصل والركن الديني الهام .

وهل يجوز لنا أن نكتفي بهذا أم أنّ كل هذا صحيح ، ولكن علينا أن

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١١٠ .

نعرف ما هو المطلوب منّا في الوقت الراهن ؟ وهل يجوز لنا الاكتفاء بالحديث عن الماضي ؟ أم أنّ الحديث عن الماضي لا ينفع دون البحث عن المستقبل ؟

علينا أن نصل بين الماضي والمستقبل ، ولا بد من الاستفادة من برنامج النهضة الحسينية في هذا المجال إذ ينبغي توعية الناس ، وتوجيههم الوجهة الصحيحة في التبليغ ، والدعاية ، والإعلام ، والترويج ، سواء أكان ذلك بواسطة كتابة الكتب ، أو قراءتها ، أو مطالعتها ، لكي نشخص نوع التفكير المطلوب ، ونوع التعاطف والالتزام المطلوب ، من قبلنا .

فلننظر إلى علي بن أبي طالب (ع) والحسين بن علي بن أبي طالب (ع) ونرى نوع القضايا التي كانا يتحسسان تجاهها ، ويتعاطفان معها ، حتى نهتم نحن ، ونتعاطف ، مع تلك القضايا والمسائل .

ولنسأل أنفسنا لماذا يا ترى كان أئمتنا يتعاطفون مع قضايا ، ومسائل ، غير تلك التي نتعاطف معها ، ونتحسس تجاهها اليوم ؟

وانطلاقاً من هذا الموقع أيضاً ينبغي لنا أن نتعلم كيف ننفق أموالنا ، وأين نستثمرها .

فهل قمنا نحن بأي تطور يُذكر في هذا الاتجاه ؟ وهل ترانا نعرف ماذا يعني الإنفاق في سبيل الله في مثل أيامنا هذه ؟

والله إني أخاف أن يكون الضرر الذي نُلحقه بالمجتمع ، أو الإساءة التي نوجهها نحن للإسلام ، بسبب فعلنا لعمل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، بصورته المغلوطة ، أكثر من الضرر الناتج عن تركنا لهذا الواجب .

ولو جئنا اليوم لنحسب مجموع الفوائد والأضرار الناتجة عن حركة تأليفنا ، ونشرنا لكتبنا الإسلامية الراهنة ، لا أدري هل سيكون حجم الفائدة فيها هو الأكثر أم حجم الضرر ؟

كما أنني لا أستطيع كذلك القطع ، بشكل دقيق ، فيما إذا كان حجم الفوائد المتأتية من الطرق الفعلية المتبعة في إنفاق الأموال ، بما فيها تلك الطريقة

التي نسميها قربة إلى الله ، هو الأكثر ، ام أنّ ضررها للإسلام أكثر من نفعها ؟ .

وهذا القرآن الكريم يُصرّح بوضوح بأنّ الإنفاق على نوعين :

فإما أن يكون إنفاقاً يُثاب عليه كما ورد في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الذين يُنفقون أموالهمْ في سبيل الله كَمَثَلِ حَبّةٍ أنبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ في كُلِّ سُنْبُلَةٍ مئة حبّةٍ ﴾[1] بل أكثر من ذلك أيضاً : ﴿ والله يُضاعفُ لِمَنْ يَشاء ﴾ .

أو إنفاقاً في الجاه يُعاقب عليه كما ورد في قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ ريحٍ فيها صِرٌّ أصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَموا أنفُسَهُم ﴾[2] .

فإذا أردنا أن نُعطي أنفسنا القيمة ، والدرجة اللائقتين بالمؤمنين ، ونكتسب الاحترام والتقدير عند الله ورسوله ، ونحصل على اعتزاز شعوب العالم ، واحترامهم لنا ، ليس أمامنا سوى إحياء هذا الأصل والمبدأ الإسلامي .

هل سألنا أنفسنا لو كان نبي الإسلام حياً يعيش بيننا اليوم ماذا كان سيفعل ؟ وبماذا كان يُفكر ؟

والله وبالله ! أُقسِمُ ، بأنّ النبي الأكرم (ص) إنما يرتعش جسده المقدس الآن وهو في قبره من اليهود ، وأعمال اليهود ! !

وهذه مسألة لا تقبل التأويل ، إنها مسألة منطقية واضحة للغاية ، وإنها مسألة حسابية بسيطة ، ومن يرفض التصريح بها يرتكب إزاء ذلك ذنباً ، وإنني والله لو رفضت التصريح بها إنما أرتكب ذنباً ، وكل خطيب أو واعظ لا يُصرّح بهذه الحقيقة ، فإنه مرتكب للذنب حتماً .

فناهيك عن الجانب الإسلامي للقضية أتعرفون ما هو تاريخ القضية الفلسطينية ؟

إنّ قضية فلسطين ليست منحصرة بكونها قضية تتعلق بدولة من الدول الإسلامية ، إنها قضية شعب أُخرج من بيته ووطنه بالقوة نتيجة حركة قلم خفيفة

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٦١ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١١٧ .

من متنفذ بريطاني يهودي هو (بلفور) ، فما هو تاريخ فلسطين ؟

إنهم يدّعون أنه ، وقبل ثلاثة آلاف عام ، قد حكم اثنان من جماعتهم بشكل مؤقت ، هذه البلاد ، وهما داوود وسليمان .

اقرأوا التاريخ ، وانظروا متى كانت بلاد فلسطين ، على امتداد ألفين أو ثلاثة آلاف عام مضت ملكاً لليهود ؟

أو متى كان القسم الأعظم من أرض فلسطين ملكاً لليهود ؟

هل كانت فعلاً المساحة العظمىٰ من بلاد فلسطين ، ملكاً لقوم يهود ؟

إنها والله لم تكن ملكاً لهم ، لا قبل الإسلام ولا بعد الإسلام .

وفي اليوم الذي فتح فيه المسلمون أرض فلسطين ، كانت فلسطين تحت تصرف المسيحيين ، وليس تحت تصرف اليهود ، وبالمناسبة فإنّ المسيحيين الذين عقدوا الصلح مع المسلمين ، بعد الفتح ، قد وضعوا بنداً في معاهدة الصلح المذكورة يشترط على المسلمين ، بعدم السماح لليهود بالدخول إلى فلسطين ، أي إنهم قالوا للمسلمين بأنّهم مستعدون للتعايش معهم ، ولكن غير مستعدين للتعايش مع اليهود ! فكيف ، ومن أين جاءت هذه التسمية فجأةً ، وتم إلصاقها بهذه البلاد ، وصارت الوطن القومي اليهودي ؟ إنه الظلم ووسائله . . .

إنّ واحدة من القضايا التي تُسوِّد سجلّ قرننا الحاضر ، وتجعله مظلماً ، (هذا القرن الذي اكتسب لقب قرن حقوق الإنسان ، وقرن الحرية ، والإنسانية ، كذباً وزوراً) ، هي هذه القضية .

فيهود العالم وبعد ما تعرضوا له من عذاب ، ومحنة ، ومعاناة ، على أيدي شعوب غير إسلامية (في روسيا ، وألمانيا ، وبلاد أخرى كثيرة) جلس كبارهم مجتمعين في مؤتمراتهم ، وصاروا يقولون ما دمنا متفرقين ، وموزعين في الشتّات ، فإننا سنظل أقليات لا قيمة لها في العالم ، ويظل مصيرنا هكذا مجهولاً ، ولا بد لنا من مركز نختاره لأنفسنا ، لنجتمع فيه ، ونلمّ حوله شمل اليهود من انحاء الدنيا .

ولم تكن أرض فلسطين في مُخيلّتهم في بداية الأمر ، بل ذهبت بهم الخيارات إلى أماكن أخرى ، إلى أن وقعت الحرب الكونية الأولى (بالطبع فأنا أسرد لكم هنا مُلخّصاً لهذا السياق التاريخي ، ومن يُريد المزيد عليه أن يطالع بعض الكتب التاريخية ، التي تناولت هذه المواضيع بالتفصيل) ، واندلعت الحرب بين الحلفاء والعثمانيين .

ولست هنا بصدد الدفاع عن العثمانيين ، لكنها على أية حال كانت تمثل دولة مركزية للمسلمين ولو هشة ، حتى وإن كانت ظالمة ، لكنها بالتالي دولة مركزية .

وما كان من وجهاء العرب السُذّج آنذاك ، والذين كانوا قد طفح الكيل بهم لتصرف العثمانيين ، إلاّ أن رضخوا لتحريك الحلفاء لهم ضد العثمانيين ، وبدأوا بشن الحرب الداخلية ضد الحكم العثماني ، أملاً بالحصول على الاستقلال الذي وعدهم به الحلفاء .

كان الإنجليز قد قطعوا عهداً على أنفسهم بمنح الاستقلال للعرب ، شرط وقوفهم إلى جانب الإنجليز ضد العثمانيين في الحرب ، وقاتل أولئك البسطاء المساكين .

نعم وبينما كان أولئك التعساء الجهلة ، يُقاتلون بدون وعي ، ضد حكومتهم المُسلمة ، ولو نسبياً ، كان الإنجليز قد عززوا تحالفهم مع الحركة الصهيونية الناشئة ، ودعموا ذلك التحالف بوعد قدموه للصهاينة ، بأن تكون فلسطين لهم ، ما بعد الحرب ، وطناً في قلب العالم الإسلامي .

وتشكلت عصبة الأمم (لاحظوا العدالة !) التي أقرّت بوجود أمم قاصرة ، وغير نامية (لا سيما تلك الأمم التي انفصلت عن الدولة العثمانية) وأمرت بتعيين ولي ، وقيّم ، يرعى شؤونها ، أي أن تصبح تحت الانتداب ، والحماية الخارجية .

وفي الحقيقة فإنهم أرادوا اقتسام إرث الدولة العثمانية فيما بينهم ، وهكذا منحوا قسماً من تلك البلاد إلى الفرنسيين بينما منحوا القسم الآخر إلى بريطانيا . . . .

ومن جملة ما أُعطي لبريطانيا كانت فلسطين ، وخرجت بريطانيا بعد الحرب لتقول لأهل فلسطين . أنا القيم والولي عليكم ! ومن ثم منحت هذه الأرض إلى الصهاينة بوعد رسمي من الدولة البريطانية وهو الوعد المعروف في التاريخ باسم (وعد بلفور) .

فهل تعرفون من هم هؤلاء « الصهاينة » ؟

إنهم مجموعات من اليهود غير متجانسة الأصول ، عاشت منذ عشرات القرون في أنحاء مختلفة من بلاد العالم ولا يجمع بينها حتى العرق القومي ، فهم من أعراق متباعدة . لقد كنتُ أتصور أنّ اليهود الموجودين في العالم جميعاً ، من نسل « إسرائيل » ! لكنني الآن اكتشفتُ أنّ التاريخ يُشكك في هذه النظرية ، بل إنه يثبت أنّ هذا الادعاء كذب ، وتحريف للتاريخ .

فكثير من اليهود لا علاقة لهم بنسل « إسرائيل » ، وإنّ النقطة الوحيدة التي تجمع بين كل ذلك الشتات هي النقطة المذهبية فقط .

وإن أعراقهم لم تعُد أعراقاً يهودية خالصة .

وملخص القضية أنّ اليهود المنتشرين في أطراف الدنيا ، وأكنافها ، استغلّوا العذابات ، والمعاناة التي ألحقها بهم الغربيون ، وصاروا يبحثون عن مركز لهم ، بعيداً عن مواقع المعاناة ، والشتات تلك ، ليُقيموا عليها سلطتهم .

ولّما كانوا قوماً تتأصل في وجودهم الروح الخيانية ، وتسمح لهم كتبهم بفعل ما يشاؤون ، من أجل تحقيق أهدافهم ، حيثما نزلوا ، ولو توسلوا بكل الوسائل الممكنة ، بعيداً عن الرحمة والإنسانية ، فإنهم رضوا لأنفسهم أن يكونوا أدوات لتنفيذ ذلك المآرب الصهيوني القذر ، وبمساعدة الإنجليز الذين وفروا لهم وسائل وإمكانات الهجرة ، واغتصبوا شيئاً فشيئاً الأراضي الفلسطينية ، وتسلطوا على تلك البلاد ، وأهلها بما فيهم يهود فلسطين ، الذين لم يكن تعدادهم يتجاوز الخمسين ألفاً ، وهم جماعة من الفقراء المساكين الذين لا يزالون حتى الآن يعانون من يهود أوروبا ، وأمريكا الذين جاؤوا إلى بلادهم ، وأضافوا إلى معاناتهم معاناةً جديدة ، بينما هم من سكان فلسطين الأصليين كما يزعمون .

هنا قام عدد من المثقفين العرب بالتمرد ، والثورة ، على هذه الأوضاع ، ولكن سرعان ما تم إعدامهم ، والتنكيل بجماعتهم ، وتعليق المشانق لعناصرهم .

من جهة أخرى كانت أمواج الهجرة اليهودية مستمرة دون انقطاع ، وكلما كان عدد اليهود يزداد ، كلما كانت تزداد بينهم عصابات الإرهاب ، التي كانت تُسلِّحها القوى الاستعمارية العالمية .

وشيئاً فشيئاً أوكلت مهام ضرب المسلمين ، والتنكيل بهم في فلسطين إلى أيدي هؤلاء الصهاينة ، الذين لم يتوانوا عن كل أشكال الإرهاب ، بما فيه الإخراج ، والطرد ، والملاحقة ، حتى خلقوا أجيالاً من اللاجئين الفلسطينيين المُبعدين عن وطنهم .

ولم تنقطع موجات الهجرة اليهودية من أنحاء أوروبا إلى فلسطين ، وهذه الأسماء التي تسمعون بها اليوم على رأس عصابات اليهود أمثال (موشه دايان) و(غولدا مائير) وغيرهما من الشياطين ، ما هي إلاّ مجموعات من المرتزقة الذين تنادوا من أركان الأرض المتباعدة ، وجاؤوا ليدّعوا أنّ هذه الأرض أرضهم !

بينما صار أصحاب الأرض المسلمون الذين يناهز تعدادهم اليوم ثلاثة ملايين نسمة ، لاجئين مشرّدين ، خارج وطنهم فلسطين !!

وهل تتصورون أنّ الهدف من وراء كل هذه الأعمال هو تشكيل دولة صغيرة لهم في فلسطين ؟ !

إذا كان هذا هو تصوركم فأنتم على خطأ أكيد ، ونحن جميعاً مُخطئون ، إنهم يعلمون جيداً أنّ مجرّد دولة صغيرة ، لا يمكن لها أن تستمر في الحياة في هذه البلاد . فهذا الكيان يجب أن يكون إسرائيل الكبرى التي ستشمل حدودها ربما حتى إيران .

وكما يذكر عبد الرحمن فرامرزي (كاتب إيراني كتب عن فلسطين) : « إنّ إسرائيل التي أراها ستدّعي غداً بملكيتها حتى لشيراز ـ مدينة في جنوب إيران ـ وستقول : بأنّ شعراء إيران أنفسهم قالوا بذلك ـ استناداً إلى تشبيه بعض الشعراء

الإيرانيين لمدينة شيراز بمُلك سليمان ـ وكُلما ادعينا نحن الإيرانيين ، بأنّ ذلك القول ما هو إلاّ تشبيه شعري ليس إلاّ ، فإنهم سيجيبوننا بأنّ ما هو موجود بين يدينا يُعتبر وثيقة تاريخية تُثبت ملكيتنا لتلك المدينة الإيرانية !!

ألم يدعو ملكيّتهم لخيبر القريبة من المدينة المنوّرة ؟!

وهل نسينا اقتراح « روزفلت » لملك السعودية آنذاك بأنْ يبيع « خيبر » لليهود !

وهل نسينا ادّعاءهم ملكيّة العراق ، والأراضي المقدسة للمسلمين ، فيها .

والله وبالله أُقسم بأننا مسؤولون تجاه هذه القضية .

وأُقسم بالله بأننا رغم ذلك غافلون .

وأُقسم بالله بأنّ القضية التي تُدمي قلب النبي الأكرم (ص) ـ وهو في قبره ـ هذه الأيام هي هذه القضية ، وأنّ القضيّة التي تُدمي قلب الحسين بن علي هي هذه القضية ، فإذا كُنا نحترم أنفسنا حقاً ، ونُقدّر عزاء الحسين بن علي ، حق التقدير، فإننا يجب أن نتصور ماذا لو أن الحسين بن علي(ع) كان بيننا اليوم، وأراد أن يطلب منّا أن نُقيم له العزاء ؟ تُرى أي الشعارات كانت هي التي سيطالبنا بترديدها ؟ فهل كان سيقول لنا اقرأوا في المجالس « أين ابني الفتى علي الأكبر » ، أو يطالبنا بالمناداة : «يا زينب المعذّبة الوداع الوداع»، وهي أمور لا شك لم يفكر فيها « الإمام الحسين » طوال حياته وأنه لم يُردد مثل هذه الشعارات الخانعة الذليلة ، في يوم من أيام عمره .

نعم فلو كان الحسين بن علي بيننا اليوم ، لقال لنا : إذا كنتم تُريدون إقامة العزاء من أجلي ، وأردتم الضرب على الصدور ، والخدود ، من أجلي ، فإنّ شعاركم لا بد وأن يكون فلسطينياً .

فشمر اليوم هو (موشي دايان) وشمر ما قبل ألف وثلاثمئة عام ، قد مات ، وعليك أن تتعرف على شمر هذا العصر ، لأن جدران هذه المدينة ، يجب أن تهتز اليوم من شعارات فلسطين !

لقد كذبوا علينا طويلاً ، وقالوا لنا إنها مسألة داخلية لا تخصنا ، بل تخص الصراع العربي ـ الإسرائيلي ، ومرة أخرى كما يقول عبد الرحمن فرامرزي : « إذا كانت فلسطين ملكاً للإسرائيليين حقاً ، والهجمة ليست هجمة دينية مذهبية ، فلماذا تتدفق الأموال باستمرار من يهود العالم نحوهم ؟

ما هو الجواب الذي نملكه تجاه إسلامنا ونبينا ؟

ألم تقرأوا قبل أيام في الصحف أنّ يهود العالم المنتشرين في بلاد الأرض ، وليس اليهود الحاملين للجنسية الإسرائيلية ، قد أرسلوا مؤخراً خمسة مليون دولار إلى « إسرائيل » لتشتري بها طائرات الفانتوم ، حتى ترمي بقنابلها على رؤوس المسلمين ؟ .

وكما سمعت فإنّ يهود إيران قد بعثوا ما يُعادل قيمة طائرتي فانتوم مساعدات نقدية إلى إسرائيل في العام المنصرم .

نعم ستة وثلاثون مليون دولاراً هي قيمة مساعدات يهود إيران وحدهم ، وأنا هنا لا ألوم يهود إيران انطلاقاً من كونهم يهوداً ، بل ينبغي لنا أنّ نلوم أنفسنا ، فهم يُساعدون أهل دينهم ومذهبهم .

إن الواحد منهم يُرسل المساعدات بكل فخر واعتزاز ، وتُرسل إليه الوصولات من (موشي دايان) ، يُبرزها بكل فخر في بازار طهران .

ألم يكتبوا في الصحف قبل أيام (وأنا شخصياً لدي قصاصة الصحيفة التي نشرت الخبر ـ صحيفة إطلاعات ـ) : إنّ يهود أمريكا وحدهم يُرسلون مساعدات بقيمة مليون دولار يومياً إلى إسرائيل ؟

فما هي مساعينا وجهودنا نحن المسلمين مقابل ذلك ؟

قسماً بالله يجب أن نخجل من أنفسنا ، ونحن نحمل لقب مسلمين ؛ ونخجل من أنفسنا ونحن ندّعي بأننا شيعة علي بن أبي طالب !!

وأنا أقول إنه حرام علينا بعد كل هذا الذي جرى ويجري أمامنا ، من الآن وصاعداً أن ننقل هذا الحديث المروي عن أن علي بن أبي طالب عندما سمع

بهجوم العدو على بلاد الإسلام ، أنه قال : « وهذا أخو غامد ، قد وردت خيلهُ الأنبار » . ثم أضاف : وإني سمعت أنّ حليّ امرأة مسلمة ، أو امرأة واقعة تحت حماية المسلمين ، قد أُخذ منها بالقوة ، وإن العدو قد أغار على بلاد المسلمين ونهبها ، فقتل بعض رجالها ، وأسر آخرين ، واعتدى على النساء ، ونزع الحليّ والجواهر عن أجسادهنّ .

نعم فهذا علي بن أبي طالب(ع) نفسه الذي ندّعي بأننا من شيعته، ونتعصب إليه كذباً ، وبمناسبة وبدون مناسبة ، بعد أنّ سمع بتلك الأخبار يقول :

« فلو أنّ امرأً مُسلماً ، مات من بعد هذا أسفاً ، ما كان به ملوماً ، بل كان به عندي جديراً »[1] .

أليس من واجبنا تقديم المساعدات المالية لمثل هؤلاء ؟ أليسوا مسلمين وعندهم أحبّة وأبناء أعزاء ؟

أليس من حقهم أن ينهضوا ويثوروا مطالبين بحقوقهم الإنسانية المشروعة ؟

ومَنْ مِنّا يستطيع أن يُنكر على هؤلاء الفلسطينيين اللاجئين حقهم في العودة إلى وطنهم ؟

إنني شخصياً قد التقيت بعددٍ من هؤلاء . والله إنهم شبابٌ يُفتخر بهم !

لقد كانوا يُرددون جملة واحدة : « دماء الشهداء » ، نعم فإيمانهم ، وعزتهم بدم الشهيد ، ودم الشهيد فقط !

إنّ فيهم والله من هو بحاجة إلى اللباس ، والرداء ، ليحمي نفسه من العري .

ولو قرر سكان العالم المسلمون البالغ عددهم سبعمئة مليون أن يدفع كل احد منهم ريالاً واحداً في العام ، لكان مجموع ما سيدفعونه سنوياً يبلغ ثلاثمئة مليار دولار .

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ٢٧ .

ولو أن الفرد الإيراني وحده ، والذي يُشكل فيه المسلمون نسبة (٩٨٪) قرر المساهمة في مساعدة الفلسطينيين بريال واحد ، في السنة ، لبلغ مقدار ما يقدمه الشعب الإيراني ، الذي يبلغ تعداده خمسة وعشرين مليون فرد ، ما يُقارب الخمسين مليون تومان سنوياً [أي ما يُقارب العشرة ملايين دولار آنذاك] .

وإذا ما قرّر عُشر مسلمي العالم فقط أن يتبرع الواحد منهم بريال واحد يومياً ، لبلغ مجموع الدعم الإسلامي المالي تسعة ملايين تومان يومياً .

قال تعالى : ﴿ فَضَّل الله المجاهدينَ بأموالهمْ وأنفسهمْ . . ﴾[1] وقال أيضاً : ﴿ الذين آمنوا وَهَاجِرُوا وجَاهَدُوا في سبيل الله بأموالِهِمْ وأنفُسِهِم . . . ﴾[2]

إن أقل ما يمكننا المساعدة به هو المال ، ووالله ! إن هذا الإنفاق في هذا الباب إنفاق واجب ، وتكليف إلهي ، كما الصلاة والصوم واجبان .

وأول سؤال سيوجه إلينا بعد موتنا ، هو ماذا عملنا في مجال التضامن الإسلامي ؟

قال رسول الله (ص) : من سمع مُسلماً ينادي يا للمسلمين ! فلم يُجبه فليس بمُسلم »[3] . فما الذي يمنعنا أن نفتح حساباً مصرفياً باسمهم؟ وما هو المانع في أن نخصص جزءاً بسيطاً من عائداتنا لدعمهم ؟ ولماذا يقوم يهود العالم أجمع ، ومعهم يهود إيران بمساعدة الإسرائيليين ، وينالون على ذلك كل التبريك والتهنئة ، ويُنعتون بالشعوب الواعية ، ولا يحصل مثل هذا من طرفنا ؟ إنّ الشعوب الواعية هي تلك الشعوب التي تغتنم الفرص ، وتحس بالمعاناة التي تعيشها جماهير الأمة ، وتُدرك الحقائق المحيطة بها .

إنني إنما قمت بواجبي ، وواجبي هو الإفصاح عن هذه الحقائق ،

---

(١) سورة النساء : الآية ٩٥ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٢٠ .

(٣) أصول الكافي ج ٢ ص ١٦٤ [وردت في المجلد المذكور رجلاً بدل مسلماً] .

وإعلانها ، وإن الله وحده هو الشاهد على أنني إنما فعلتُ ذلك تلبيةً لنداء الضمير والوجدان ، الذي كان يعذبني ليس إلاّ .

وإنني أرى في الدعم المالي واجباً مفروضاً علينا جميعاً ، وأرى أنّ من واجبي كما أنه من واجب كل واعظ ، وخطيب أن يُشير إلى هذه الحقائق ويُعلنها صراحةً .

إنّ مراجع تقليدنا كآية الله الحكيم ، وغيره ، قد أفتوا رسمياً بأنّ من يُقتل في هذه الجبهة ، وإنْ كان غير مُصلٍّ ، فإنه شهيد في سبيل الله .

فتعالوا إذَنْ لنمنح أنفسنا الاحترام والتقدير اللازمين ، ونُعطي القيمة لفكرنا وعملنا ، ولكتبنا وأموالنا ، ونجلب العزة ، والفخار ، والاحترام ، لأنفسنا بين شعوب الأرض .

إنّ سبب عدم اهتمام الدول الكبرى بنا ، وعدم اكتراثها بمصيرنا ، يعود إلى اعتقادهم بأننا نحن المسلمين لا غَيْرَة لدينا .

وهذا الأمر هو الذي جعل الحكومة الأمريكية تتجرأ علينا ، فهي تقول إنّ جماعة المسلمين ليس لها غَيْرَة على جماهير أمتها ، وإنها تفتقر إلى روح التضامن ، والتعاضد ، فيما بينها ، في حين والقول للأمريكان ، أنّ اليهودي الذي يموت من أجل المال ، ولا يعرف شيئاً غير المال ، والذي يعبد المال ، والذي تتعلق حياته ومماته كلها بالمال ؛ فإن هذا اليهودي ، عندما يتعلق الأمر بمثل هذه الأمور الحسّاسة ، تراه يُقدّم مليون دولا يومياً ، لأهل دينه ، ومذهبه ، بينما يقف سبعمئة مليون مسلم في العالم ، متفرجين على أهل دينهم ، وملّتهم ، ولا يُقدّمون لهم أية مساعدة تُذكر !

اليوم هو يوم عاشوراء ، يوم معراج الحسين بن علي عليه السلام ، وهو يوم ينبغي علينا أن نستفيض فيه من روح الحسين ، وغيرة الحسين ، ومقاومة الحسين ، وشجاعة الحسين (ع) ، وبطولته ، ورؤيته الثاقبة النيّرة ، عسى ان نصبح آدميين ونتسلّح بالوعي ، ولو بمقدار ذرة .

إنّ أحد الكتّاب المعروفين جداً ، وهو عباس محمود العقّاد ، يذكر عبارة

حول أبي عبد الله الحسين عليه السلام في غاية الأهمية وخلاصتها :

إنه بدا في يوم عاشوراء ، وكأن نوعاً من السبق ، أو المباراة ، قد برز بين الخصال الحسينية ، أي إنّ الفضائل الحسينية في ذلك اليوم أرادت أن تسبق كل واحدة منها الأخرى ، فصبر الحُسين أراد أن يسبق سائر خصاله الأخرىٰ ، بينما رضا الحسين الذي هو من رضا الله أراد بدوره أن يسبق صبره .

ومن جهة فإخلاصه أراد أن يسبق كلاً من صبره ورضاه ، وهكذا شجاعته ، كانت تُسابق الجميع حتىٰ تقف في المقدمة من سائر الصفات الأخرىٰ .

وأنا بدوري أود أن أعرض عليكم أمراً (بالطبع تراني أستصعب الحديث عن الإخلاص الحسيني ، فأنا أصغر من ذلك بكثير ، ولكنني أستطيع الإشارة إليه) وهو إنّ الخصلة التي برزت أكثر من سائر الصفات الأخرى في يوم عاشوراء وتبلورت بوضوح هي طمأنينة الحسين . نعم طمأنينة الحسين ، واستقامته ، وهدوء روحه .

إنّه ليس قولاً يعود الفضل فيه إليّ ، إنه حديث يعود تاريخه إلى أولئك الأوائل ، الذين أدركوا هذه الحقيقة ، منذ اليوم الأول .

فأحد الحضور في معركة عاشوراء يُسجّل وقائع المعركة ، ويُشير إلى هذه الحقيقة في جملةٍ بليغةٍ للغاية ، نسبةً إلى عصره ، ومستوى الوعي الذي كان متوفراً في ذلك الزمان ، حيث يقول :

«والله ما رأيتُ مكسوراً قط ، قد قُتل وَلَدُهُ ، وأهلُ بيته ، وأصحابُهُ ، أربَطَ جأشاً منهُ»[1] . إنه قول صحافي ، حضر وقائع المعركة ليس إلاّ .

إنه لأمر عجيب للغاية ، إنه أمرٌ جدي لا يقبل الهزل ، وقد ظلّ هذا الأمر يُثير إعجابي على الدوام ! فأبو عبد الله الحسين (ع) ، في يوم عاشوراء ، كان يمضي ثابت الخُطى ، عارفاً بمستقبله المُضيء ، والمُشرق ، وناظراً بنفسه للآثار النورانية المتوقعة لنهضته .

---

(١) اللهوف ص ٥٠ .

إنـه لم يكن ليشك لحظة واحدة بـأنه قـد انتصر بشهادتـه ، ولم يكن ليشك لحظة بأنه آن الأوان للبذل بكل ما يملك ، في سبيل الله .

ففي تلك اللحظات كان النداء الربّاني يُشير إلى نهاية موسم الزرع والبذر ، وبداية فصل الحصاد واستثمار تلك النهضة ، وهذا هو الذي حصل بالفعل .

فمقتل الحسين (ع) كـان يعني بالضبط شروع عصر الحركات التحررية ، والثورات ، وفصول التضامن ، والتآخي ، والتعاضد من جهة ، والتمرد والقيـام ضد جهاز الحكم الأموي ، من جهة أخرى .

وأول المتمردين كانت زوجة أحد عساكر جيش الكفار ، عندما رأت الجند قد حملوا على مخيم الحسين عصر اليوم العاشر ، وهم يُريدون السوء بحرم أبي عبد الله ، فما كان منها إلاّ أن حملت عمود خيمةٍ من الخيم ، وصدّت المهاجمين ، وصارت تُنادي أبناء عشيرتها ، وهي قبيلة بكر بن وائل ، أن يا آل بكر بن وائل ! ويا أهلي وعشيرتي ! اين أنتم ؟ تعالوا ! هيّا بكم ، فقد وصل بهم الأمر إلى التعرض ،لأهل بيت النبي ، ومحاولة الإساءة لهم !

ولا بد هنا ـ برأيي ـ من الإشارة إلى ذلك الموقف الجليل، والعظيم، الذي وقفه أبو عبد الله (ع) في اللحظات الأخيرة من المعركة. فكما هو معروف ، فإنه عليه السلام كان قد ودّع أهل بيته بعد أن لم يبقَ أحد من أصحابه، وأهل بيته ، من الرجال القادرين على القتال ، فتوجه إلى ساحة المعركة ، لكنه وكما تنقل الروايات سرعان ما عاد مرةً أخرى ، وودّع أهل بيته للمرة الثانية حيث يقال إنه كان قد تمكّن من صد العدو ، والنفوذ إلى شريعة الفرات ، وأنه في اللحظة التي كان يستعدُّ فيها لشرب بعض الماء ، وإذا بأحد أفراد العدو ، يُناديه بأعلى الصوت (ربما بسبب عدم رغبتهم رؤيته بشرب الماء حتىٰ لا يأخذ قوةً جديدةً للمبارزة والنزال) أنْ يا أبا عبد الله الحسين ، أتشرب الماء ، وأهلك وعيالك في المخيم ، قد أغار عليهم عساكر يزيد ؟! فما كان منه إلاّ أن ترك الشريعة .

ولا أدري هنا هل كان الأعداء بالفعل يهمون بالهجوم على حرم الحسين أم لا ؟ لكن المهم أن أبا عبد الله لم يكن في وضع يستطيع فيه التحقق من صحة

النبأ ، فالحرب على أشدها ، ولا بد له من العودة بأسرع ما يمكن وقد وصل إلى المخيم قبل أن يصل أحد من عساكر العدو إليه .

وكما تذكر الروايات فقد كانت هذه العودة فرصةً له عليه السلام للوداع مع أهل بيته ، للمرة الثانية ، حيث جمع النساء والأطفال ، وهنا بالذات تبرز عظمة وجلال روح أبي عبد الله الحسين (ع) ، فقد بادرهم بالقول : « يا أهل بيتي استعدوا للبلاء . . . واعلموا أنّ الله حافظكم ومُنجيكم من شر الأعداء ، ومُعذّب أعاديكم بأنواع البلاء »[1] .

هذا يعني أنه كان يتنبأ بالمستقبل الذي ينتظر القوم بعد مقتله .

لقد اتخذ أبو عبد الله في يوم عاشوراء من خيمة أهل البيت نقطة مركزية لإدارة المعركة ، إذ كان يهاجم العسكر منها ، فيتراجعون متقهقرين ، وكانت المبارزة في البداية قد أخذت شكل المبارزة الفردية ، ولكنه عليه السلام لم يترك أحداً يعود منها سالماً إلى معسكر العدو ، الأمر الذي أثار الرعب والفزع في قلب العدو حتى صاح عمر بن سعد بالجند قائلاً : ماذا تفعلون ؟ « والله نفسُ أبيه بين جنبيه وهذا ابن قتّال العرب . . . » .

نعم فهذا هو ابن علي بن أبي طالب الذي قاتل العرب وقتلهم ، وعمر بن سعد إنما أراد بقوله ذلك تحريك النزعات القبلية ضد الحسين .

فردّ جماعته يسألونه ما العمل إذن ؟

فقال لهم : ليس من المصلحة أنْ نقاتلهُ قتالاً فردياً ، ووجهاً لوجه ، لأنه بهذه الطريقة سوف لن يبقي أحداً منكم على قيد الحياة .

وعليه لا بد من الهجوم الشامل عليه ومن كل جانب ، وهكذا صار عليه السلام يقاتل بكل اتجاه ، وحيثما كان يضرب ، كانت العساكر تفرُّ منه وتنهزم ، لكنه كان حريصاً ألاّ يبتعد عن المخيّم حيث الحرم والأطفال .

إنها غيرة الحسين كما هي شجاعته ، وصبره ، ورضاه، بما هو رضا الله ،

---

(١) مقتل المقرم ص ٣٤٨ .

وإخلاصه له سبحانه وتعالى ،لكنها الغيرة الربانيـة التي لم تكن تسمح لـه أن يرى العدو يقترب من خيام الحرم ، وهو لا يزال على قيد الحياة .

ولذلك تراه أصدر تعليماته المشدّدة لهم بعدم الخـروج من الخيام أبـداً ، إنه الكذب بعينه القـول بأن أهـل البيت كانـوا يخرجـون بين الحـين ، والحين ، وهم يُنادون العطش . . . العطش !

مـرةً واحدة فقط خـرجوا من الخيـام عندمـا عاد فـرس أبي عبـد الله بـدون صاحبه ، ووقتها أيضاً لم يكونوا يعرفون حقيقة الأمر ، إذ تصـوروا حين سماعهم لصهيل الفرس أنّ أبا عبد الله قد عاد يُودّعهم للمرة الثالثة .

يُقال إنّ هذا الفـرس كان فـرساً مـدرّباً عـلى هذه الحـالات ، ولم تكن هذه حالة فرس أبي عبد الله وحـده، بل إنّ خيل العدو أيضاً كانت مدرّبة كذلـك على مثل هذه الحـالات ، فعندمـا كان صـاحب الفرس يسقط صريعـاً ، كان الفـرس يحسُّ الواقعة .

لذلك عندما سقط أبو عبد الله صريع الموت ، قام فرسه بتلطيخ شعـر رقبته بدم الحسين ، ولمّا تأكد من رحيله عليه السـلام ، اتجه نحو خيام الحرم .

لقد كان في الحقيقة بمثابة الرسول الذي ينقل خبر الواقعة ، وظنـاً من الحرم بأن أبا عبد الله قد عاد ليودّعهم ثالثة ، خرجوا من الخيام ، ولكنهم عندمـا رأوا ما رأوا ، لم يبقَ أمامهم سوى الإحاطة بالفرس ، والبكاء والنواح .

على كل حال لم يكن الحسين (ع) ليُجيزهم بالخروج من الخيام وهو على قيد الحياة ، لكنه كان كما ذكرنا ، قـد اتخذ النقـطة المركـزية لإدارة المعـركة قـريبةً من خيام الحـرم ، حتىٰ يُسـمعهم صوتـه ، مـا دام حيـاً ، حتىٰ يمنحهم الـطمأنينـة والاستقرار .

ويُقال إنّه كلما كـان يعود إلى تلك النقـطة ، كان يُنـادي بأعـلى صوتـه (لا أعـرف عندمـا أقول بصـوت عال كيف كـان يـدور ذلـك اللسـان الجـاف داخـل الحلق) ، وبكل ما أُوتي من قوة : « لا حول ، ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم » .

إلهي ! إنّ كل ما كان يملكه الحُسين من قوة روحية ، وجسمية ، إنما كانت من عندك ، نعم ، فعندما كان يسمع أهل البيت صوت الحُسين كان السرور يدخل قلوبهم ، بأنه لا يزال حياً ، ثم كانت استراحة بسيطة ، ثم يعود العساكر لُيحيطوا به من جديد ، ويُشدّدوا الحصار ، أكثر فأكثر ، ويرموه بالنبال ، والسهام ، ثم يُعاود الحُسين الهجوم ، وهكذا دواليك فبين كرٍ وفرٍ كان القتال يدور على أشده .

لا بد أنكم سمعتم كيف بدأ عمر بن سعد الحرب يوم العاشر من محرم ، وكيف أن أبا عبد الله لم يسمح لأصحابه بأنْ يكونوا هم البادئين بالحرب . . وهذا تقليد كان يُتّبع من قبل آل البيت في إدارة الحروب مع الفِرق المُسلمة في الظاهر ، وهو التقليد الذي احترمَ من قبل الحسين (ع) كما روعي من قبلُ من قِبل الإمام علي (ع) . حيث كان يقول إنني لن أكون البادىء في الحرب ، وعندما سيشرعون في حربنا عندها سنردُ عليهم .

كذلك حال أبي عبد الله الحسين (ع) فهو لم يكن البادىء في الحرب ، لكن عمر بن سعد ، ومن أجل الحصول على رضا عبيد الله بن زياد ، طلب القوس والسهم ، ولمّا كان أبوه معروفاً في صدر الإسلام بأنه من الرُماة الماهرين ، وربما كان هو أيضاً ، فقد رمى سهماً نحو خيام حرم الحُسين ، ثم نادى صائحاً : أيها الناس ! اشهدوا لي عند الأمير ، بأنّي أول من رمى سهماً نحو مخيم الحسين .

نعم إنّ حرب اليوم العاشر من محرم ، قد بدأت بسهم واحدٍ ، ولا بد من القول بأنها قد خُتمت بسهم آخر وهو الأخير ، إنه ذلك السهم المسموم الذي أصاب الصدر الحُسيني المبارك : « فأصابه سَهمٌ مُحدّد مسموم » .

وكان قد نفذ عميقاً للغاية ، بحيث إنّه عليه السلام كلّما حاول إخراجه لم يتمكن ، حتى إنه كما يُروى ، فقد خرج من الجهة الأخرى من بدن الحسين (ع) ، ومعه سقط الحسين عن فرسه ، ولم يبق من قوته ، وحركته الكثير ، وما هي إلاّ بُرهةً حتى انتهت فصول الكر ، والفر ، لدى الحسين .

يقول الرواة : إنّ الحسين بن علي (ع) كان له عدد من الأبناء كانوا قد



شهدوا المعركة جميعاً إلى جانب أبي عبد الله ، وكان القاسم أحدهم ، كما كان للحسن (ع) إبن آخر، كان قد بلغ عشر سنوات من عمره، في اليوم العاشر من محرم ، وهو آخر أبناء الحسن (ع) .

وربما كان هذا الصبي لا يتذكر شيئاً من حياة أبيه ، ذلك أنه لم يكن لديه سوى بضعة أشهر من العمر ، عندما رحل أبوه فهو إذاً قد كبر ، وتربى في بيت الحسين (ع) .

وكان الحسين رؤوفاً ، وحنوناً للغاية ، على أولاد الإمام الحسن، وربما أكثر من حنانه ، ورأفته ، بأولاده ، من حيث إنهم كانوا يتامى ، لا أب لهم .

كان هذا الصبي يدعى عبد الله ، وكان متعلقاً بأبي عبد الله كثيراً ، وكان الحُسين قد أوكل أمر رعاية الأطفال إلى زينب ، سلام الله عليها ، وهي لم تتوانَ لحظةً عن رعايتهم ، والاهتمام بشؤونهم .

وعلى حين غرّة لاحظت زينب أنّ عبد الله الصغير قد غادر الخيمة ، وهو يتجه لرؤية عمه الحسين بن علي (ع) ، فركضت زينب خلفه لتُمسك به فصرخ الصبي : « والله لا أُفارقُ عمّي » .

وكانت بالفعل لحظات مصيرية ، فالطفل يعدو ، وزينب تعدو وراءه .

« السلامُ عليكَ يا أبا عبد الله ، أشهدُ أنك قد أمرتَ بالمعروف ، ونهيت عن المنكر ، وجاهدت في الله حق جهاده » .

كان الطفل قد اقترب من أبي عبد الله ، عندما حقت به زينب ، وهمّت لتأخذه ، وتُعيده إلى الخيمة ، فأشار عليها عليه السلام ، بأن تعود إلى المخيم ، وتترك الطفل بين يدي عمه .

أمّا الصبي ، فقد ألقى بنفسه في هذه الأثناء في حُضن عمه الحسين (ع) ، [إنه الحُسين بعالمه الخاص] ، وفيما الطفل وعمه في تلك الحالة ، اقترب أحد الأعداء ، وأراد أن يضرب أبا عبد الله بضربة بالسيف ، وما أن رفع سيفه ليضرب به ، حتى صاح به الطفل : « يا بن الزانية أتُريد أن تقتل عمي ! » وما

كان من الطفل إلاّ أن مد يده ليمنع الضربة عن عمه فنزل السيف على يده ، فقطعها ، فنادى الصبي : يا عمّاه انظر ماذا فعلوا بي ! . . .

« أشهدُ أنك قد أمرتَ بالمعروف ، ونهيت عن المنكر ، وجاهدت في الله حق جهاده ، حتى أتاك اليقين » .

ولا حول ، ولا قوة ، إلاّ بالله العلي العظيم ، وصلى الله على محمدٍ وآله الطاهرين ، باسمكَ العظيم الأعظم ، الأعز الأجل الأكرم ، يا الله . . .

اللهم ارزقنا جميعاً حُسن العاقبة ، وعرّفنا بالقرآن وبالإسلام .

اللهم ادفع عنّا هذا الكسل ، وهذا التراخي ، وهذا التردد المستحكم في أرواحنا نحن المسلمين .

اللهم امنحنا الغيرة ، وارزقنا الوحدة ، والاتفاق ، وأكرمنا بروح التآخي والتضامن .

اللهم ارفع شر الكفار ، وإسرائيل ، والصهيونية ، عن رؤوس المسلمين ، ووفقنا للنضال ضد العدو الذي يُهدّد كيان الإسلام والقرآن .

اللهم اغفر لموتانا من الأولين والآخرين ، في هذا اليوم العزيز .



المحاضرة السابعة
تأثيرات قيام أهل بيت الامام بواجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، بعد واقعة كربلاء

بسم الله الرحمن الرحيم(*)

الحمد لله رب العالمين، باريء الخلائق أجمعين، والصلاة والسلام على عبد الله، ورسوله، وحبيبه، وصفيه، وحافظ سره، ومبلّغ رسالاته، سيدنا ونبيّنا ومولانا، أبي القاسم محمد، وآله الطيبين، الطاهرين، المعصومين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿ التَّائِبونَ، العَابِدونَ، الحَامِدونَ، السَّائِحونَ، الراكعون، السَّاجِدونَ، الآمِرونَ بالمعروف، والنَّاهُونَ عن المنكر، والحَافِظُونَ لحدود الله، وبَشِّر المؤمنين ﴾(١).

إنَّ بحثي الليلة هو تتمة لأبحاثي الستة السابقة، ومما تم بيانه في المحاضرات السابقة، يتضح لنا أنه لا بد من إحياء مبدأ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ونُحيي أنفسنا أيضاً من خلال هذا المبدأ.

جاء في إحدى خطب أمير المؤمنين علي (ع)، وهو يتحدث عن التقوى، وكما يصطلح عليه المناطقة بشبه الدور، فقد قال عليه السلام: « ألا فصونوها

(*) ألقيت هذه المحاضرة بتاريخ ٢٦ محرم الحرام ١٣٩٠ هـ.

(١) سورة التوبة: الآية ١١١.

وتصوّنوا بها »[1] أي أيها الناس ! صونوا التقوى ، واحفظوها ، وبذلك تكونون قد صنتم أنفسكم بواسطة صيانتكم للتقوى .

وفي الظاهر ، فإنّ الأمر يوحي بوجود الدور ، فهل مطلوب منّا أن نصون التقوى ، أم أنّ التقوى يجب أن تصوننا ؟

والجواب : إنّ كلا الحالتين صحيحتان، وهو دور ، لكنه ليس الدور المُحال ، ذلك أننا نصون التقوى ، ونحافظ عليها بشكل من الأشكال ، وهي بدورها أيضاً تصوننا ، وتحفظنا بشكل آخر .

علينا إذاً أن نصون التقوى ، ومطلوب من التقوى أن تصوننا ، وهي قادرة على ذلك .

والحالة نفسها ، تنطبق على الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فعلينا واجبُ إحياء هذا المبدأ ، ومطلوب منه أنْ يُحيينا في المقابل ، وهذا ما يحصل بالفعل .

لقد تطرقنا في الجلسات السابقة ، إلى عامل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، من زاوية مقدار تأثيره على النهضة الحسينية ، وأنه كان بمثابة المُحرك ، والباعث ، والوازع الداخلي للحركة الحسينية .

لكنه يبقى أن نتطرق لموضوع حجم ، أو مقدار ، ما تمّ من فعل ، للأمر بالمعروف ، أو نهي عن المنكر ، في النهضة الحسينية .

إن الوجود المقدس للحسين بن علي (ع) ، بحد ذاته في هذه النهضة ، يُعتبر عملياً، حضوراً مباشراً للآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر، الأول في هذه الواقعة ، ولكن ثم من يأتي بعده ، بعد الواقعة مباشرةً ، وربما يأخذ طابع الحجم الأوسع في ترجمة هذا الأصل والمبدأ ، وهم أهل بيته عليهم السلام ، وذلك بعد شهادته عليه السلام مباشرةً ، أو على الأقل ابتداءً من اليوم الثاني عشر ، من محرم ، حيث تحوّل أهل بيته إلى مجموعة عمل فاعلة ، لمبدأ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وظلّوا كذلك إلى نهاية المطاف .

---

(1) نهج البلاغة الخطبة رقم ١٨٩ .

فهم عليهم السلام لم يظهروا لحظةً كمجموعة منكسرة ، إذ إنهم كانوا ، مثلهم مثل أبي عبد الله (ع) ، لا يرون خواتيم الأعمال في بقاء الإنسان حياً على قيد الحياة ، أو ميّتاً ، وبالتالي لم تكن أمنيتهم في رؤية الحسين حياً ، وقد صعد سُلّم السلطة ، أو متنعّماً بحياةٍ آمنة ، في زاوية من زوايا الدنيا ، والآن وقد قُتل ، فعلى الدُنيا السلام .

كلّا أبداً ، فهم ظلّوا يتابعون المسيرة الحسينية في نفس السياق .

إنّ مقتل أبي عبد الله ، كان بالنسبة لهم ، في أحد جوانبه ، بدايةً للنشاط والفعل ، وليس خاتمة المطاف للمسيرة ، فما أجمل حالة أهل بيت النبوة ، بعد شهادة الحسين . وكم هو مُلفت للنظر وضعهم ذاك .

وفي الحقيقة فإنّ الإنسان عندما يُحلّل ويُدقق في تلك الصورة تراه يقف حائراً ، ومتعجباً ، أمام تلك العظمة ، وذلك الجمال ، جمال الهيبة والعظمة ، ولا يجد أمامه من رد فعل تجاه تلك القوة ، وتلك الطاقة الروحية ، وذلك الإيمان ، واليقين ، وتلك الشجاعة الروحية ، سوى أن يخرّ متواضعاً مُنبهراً . . .

لقد قاموا بالتبليغ للقضية الحسينية حتىٰ اللحظة الأخيرة من حياتهم ، ونهوا عن المنكر ، وأمروا بالمعروف ، ودعوا إلى الإسلام ، حتىٰ الرمق الأخير .

أقول لم يكن أحدٌ في كل بلاد الشام يكن الحُب لعلي (ع) ، ولا حتى يعرف من هو علي ؟ ولا من هم أهل بيت النبي ؟ أي إنّ أحداً لم يتعرف حتىٰ ذلك الوقت على أهل البيت ، وإن كان أحد قد عرفهم بشيءٍ ، فقد عرفهم بصورة بالغة السوء .

فتصوروا إذاً مدى اهمية عمل أهل بيت النبوة بعد الواقعة ؟ سأذكر لكم مثالاً واحداً فقط ، ومن ثم أعود للحديث عن القضايا الأخرى .

كلنا يعرف كيف كان الوضع في يوم عاشوراء ، وكيف أمضىٰ أهل بيت النبي ليلة الحادي عشر من محرم .

وفي اليوم الحادي عشر من محرم ، يأتي جلادو ابن زياد ، ويُحمّلون آل

البيت ، فوق جمال غير مجهزة ، ويتحركون بهم فوراً نحو الكوفة ، وهكذا يقضون ليلة الثاني عشر من محرم ، حتى الصباح في الطريق ، وهم يُعانون من الآلام الروحية ، والجسمية البالغة .

وصباح اليوم التالي يصبحون على أبواب الكوفة .

ولم يكن العدو ليُمهلهم قليلاً ، بل أدخلهم إلى المدينة ، في ذلك الصباح مباشرةً ، وتوجه بهم على الفور إلى دار الإمارة ، حيث كان يجلس ابن زياد .

وكما هي الصورة التي أُريد عكسها على الرأي العام ، تصبح القافلة عبارة عن مجموعة من الأسرى ، التي تضم عدداً من النساء ، إضافة إلى رجل واحد عليل ، ولقب العليل هذا الذي يُنسب إلى الإمام السجاد (ع) لا نسمعه إلاّ في أوساطنا نحن الإيرانيين !

ولا أدري هنا ما الذي حصل حتى جئنا نحن الإيرانيين بهذه التسمية ، ونقول الإمام زين العابدين العليل ! في حين أننا لم نسمع في اللغة العربية ، أن نُسب مثل هذا اللقب إلى علي بن الحسين (ع) ، فيقال مثلاً « الإمام المريض » ، أو « المراض » .

ويبدو أن هذا اللقب ، قد لقّبه به الإيرانيون من عندهم ، وسبب ذلك عائدٌ بالطبع إلى أنه كان عليه السلام مريضاً جداً في يوم عاشوراء ، (وكل إنسان يمرض في حياته ، ومن هو الآمن من الأمراض في حياته ؟) ، وقد كان السجّاد على فراش المرض آنذاك ، ولم يكن باستطاعته التحرك بسهولة ، وكانت المعركة بالنسبة إليه ، تحتاج إلى جهد كبير ، بل إنه كان لا يتحرك إلاّ بمساعدة العصا .

وفي مثل هذه الأحوال بالذات أمروا بتحريك القافلة وفيها الإمام زين العابدين أسيراً من أسرى الحرب .

لقد أجلس الإمام زين العابدين على جمل ٍ ذي مقعد خشبي ، خالٍ من رَحْل الحيوان الذي عادةً ما يوضع فوق ظهر الجمل ، ولمّا كان الإمام مريضاً ، فقد تصوروا أنه ربما لن يستطيع المحافظة على توازن جسمه ، فقد ربطوا رجليه بإحكام هذا بالإضافة إلى أنهم وضعوا الأغلال في عنقه ، وبهذه الهيئة أدخلوهم

مدينة الكوفة ، إلى جانب المعاناة الروحية ، والتعنيف الأدبي ، والجسمي الذي كان في أقصى الحدود .

كلنا يعرف بالطبع أنّ السجين الذي يُريدون استنطاقه ، وسحب الاعترافات منه ، عادةً ما يُعرضونه إلى ما يُحطّم أعصابه ، ويُقوّض إرادته ، كأن يمنعوا الطعام عنه لمدة أربع وعشرين ساعة ، أو ثمان وأربعين ، مضافاً إلى تعريضه لأنواع العذاب ، والتعنيف الروحي ، وغالباً ما يستسلم السجين في مثل هذه الحالة ، ويُصمّم على الاعتراف بكل شيء .

وعليه يمكنكم تصور وضع أسرى آل البيت بعد كل تلك المعاناة الروحية ، والجسمية ، وقد أُدخلوا مباشرةً على مجلس ابن زياد !

تدخل زينب سلامُ الله عليها ذلك المجلس الأميري ، وهي مرفوعة الهامة ، وحسب تعبير البعض : « وَحَفّ بها إماؤها » ، نعم واصطلاح الإماء هنا ، ليس بالمعنىٰ المجازي ، إذْ إنّ جميع النساء اللاتي اشتركن في معركة الطف ، ورافقن زينب إلى الكوفة ، يعترفن بالسيادة ، والزعامة ، والقيادة ، للعقيلة زينب ، ويعتبرن أنفسهن بمثابة الإماء ، وقد احْطْنَ بزينب من كل جانب .

تدخل العقيلة زينب مجلس دار الإمارة من دون أن تُسلّم على الأمير ، فهي لم تكترث للأمير ومقامه ، لكن ابن زياد الذي أحسّ بروح المقاومة العالية لدى زينب ، انزعج كثيراً ، فهو يعرف جيداً ، أنّ عدم سلامها يعني أنها تُريد بذلك أن تقول له : إنّ إرادتنا نحن أهل البيت لا تزال حيةً لم تمُتْ ، ولسنا نكترث بمقامك وموقعك ، ولا تزال روح الحسين بن علي في أبداننا ، وهي تُنادي : « هيهات منّا الذلة ! » ، و« لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل ، ولا أفرُّ فرار العبيد ، أو لا أُقرُّ إقرار العبيد »[1] .

لقد تضايق ابن زياد كثيراً ، من عدم اكتراث « زينب » به ، فهو يعرف من هذه المرأة ، فكل التقارير كانت تصله ، وعندما رأى امرأة محترمة تحيط بها

---

(١) إرشاد الشيخ المفيد ص ٢٣٥ .

النساء ، من كل جانب ، فإنه لابد قد عرف جيداً من تكون تلك المرأة ، لأنه أُخبر بالتأكيد عن نوعية الأسرى القادمين ، ولكن رغم ذلك تساءل : « من هذه المُتكبِّرة ؟ أو : من هذه المتكرِّة ؟ » [وردت في حالتين] ، فلم يُجبه أحد . فعاود السؤال ثانيةً وكان يُريد أن يَرُدّ أحدهم من القافلة عليه ، وعندما كرر السؤال للمرة الثالثة ردّت عليه إحدى النساء : « هذه زينب ، بنتُ علي بن أبي طالب » .

فما كان من ابن زياد ـ هذا الرجل الدنيء ، الذي لا يملك ذرةً من شرف الرجولة والإنسانية ، فالطرف المقابل له ، إنسان صاحب مصيبة بذلك الحجم المعروف ، وكل من يملك ذرة شرف إنساني ، لا يُجيز لنفسه أن يزيد جراحات صاحب المصيبة المذكورة ، هذا من جانب .

ومن جانب آخر فإنّ صاحب المُصاب امرأة ، والامرأة لا توجّه لها الإهانات ، ولا يتم التعرُّض لها بأيّ شكل كان ، في أي قانون حربي في العالم ، وكل من يملك ذرة من ذلك الشرف الإنساني ، ليس له إلّا ان يأخذ المرأة أسيرة حرب ، مع المحافظة على قوانين الأدب والاحترام المرعيّة تجاه المرأة ـ إلّا ان شرع بتوجيه أبشع الألفاظ البذيئة والمُهينة ومما قاله :

« . . الحمد الله الذي فضحكم وأكذب أُحدوثتكم . . »

لكن زينب (ع) رَدّت عليه على الفور بكل جرأة وشهامة : « الحمد لله الذي أكرمنا بالشهادة ! » ، نعم الحمد لله الذي أكرم أخي بتاج الشهادة ، والحمد لله الذي جعلنا من آل بيت النبوة ، والطهارة ، إلى أن قالت :

« إنما يُفتضح الفاسق ، ويَكذبُ الفاجرُ ، وهو غيرُنا » .

فالفضيحة من نصيب الفسقة ، ونحن لم نقل الكذب يوماً ، ولم نُساهم في خلق حادثة مزيفة واحدة ، والفجر ، والفسوق ، قد صدر من عند غيرنا ، أي من عندك ، فأنت الفاسق ، وأنت الكذّاب ـ أي ابن زياد ـ .

هذا المقدار من الشهامة ، والجرأة ، والشجاعة ، والإيمان العملي ! إنه الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وكل هذا في المرحلة الأولى ، وليس إلّا

درجة واحدة من درجات العمل ، فالقصة مع آل البيت وممارستهم ، لهذا المبدأ ، طويلة .

فهناك أقوال زين العابدين (ع) ، وهناك حديث إحدى بنات الإمام الحسين (ع) ، ومن ثم خطاب العقيلة زينب في سوق الكوفة ! ، وذلك الكلام الرفيع لزين العابدين (ع) ، وتلك الأحاديث ، والأقوال ، والتبليغ ، الذي مارسها آل البيت في الطريق إلى الكوفة ، وفي الطريق إلى قصر الإمارة ، ومن ثم إلى قصر يزيد في الشام ، وتعاملهم مع الناس ، والعابدون الذين كانوا يستوقفون القافلة في الطريق ، وعلى رأس كل تلك الخُطب ، تقف ـ برأيي ـ تلك الخطبة الغرّاء لزينب عليها السلام ، في قصر يزيد بن معاوية .

فزينب هناك ، كان قد مضى عليها أربع وعشرون ساعة ، أو ثمان وأربعون ، بل شهر كامل ، وهي في أسر أولئك الظلمة ، مع كل تلك المعاناة الروحية ، والجسمية ، التي يمكن أن تحدث للأسير ، طوال تلك المدة .

ولكن رغم ذلك كله ، انظروا ماذا فعلت زينب في مجلس يزيد ؟!

وعلى هذا الأساس ، لا بد من النظر إلى النهضة الحسينية ، من زاوية كونها نهضة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر أيضاً ، ومن ثم لا بد من دراسة الآثار المترتبة على هذا الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، لا سيما في بلاد الشام ، التي انقلبت انقلاباً شاملاً بعد ورود آل البيت إليها .

المسألة الأخرى التي أردت تبيانها لكم هنا هي : إنّ فقهاءنا ذكروا موضوعين في باب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، لا بد لي من توضيحهما لكم .

أولهما : هو أن الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، يحصل فقط عندما يحتمل الإنسان حصول الفائدة والأثر المطلوبين من الفعل . فما معنى هذه الجملة ؟

فالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ليس قانوناً تعبُّدياً ، مثل واجبي الصلاة والصوم ، الذي له حكمته ، وفلسفته ، وأثره الخاص به ، لكنه لا يخصنا

نحن البشر ، أي إننا لا ننتظر حصول الأثر ، أو لمسه ، حتى نقوم بذلك الواجب ، وفي حال عدم حصوله ، لا نُمارس الواجب المذكور .

كلّا فنحن قد قيل لنا : يجب الصلاة في كل الأحوال ، ومن ثم فإنه ليس في عهدتنا أن نرىٰ ، أو نلمس حصول الأثر ، أو عدم حصوله ، وليس أمامنا سوى أداء ذلك الواجب بقواعده المعروفة ، وما يخص حصول الأثر ، أو عدم حصوله ، يبقىٰ خارج نطاق المنطق البشري .

فإذا كان هذا هو الأمر بالنسبة للواجب التعبدي ، فهو ليس كذلك بالنسبة للأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فهنا ينبغي على البشر أن يُدير الأمر ، ويُطبّقه بالمنطق البشري الملموس ، أي لا بد من حساب النتائج المترتبة على حصول ذلك العمل .

فالإنسان هنا يبذل جهداً ، وطاقة معينة ، عندما يقوم بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وبالتالي لا بد له من إجراء الحسابات اللازمة ، وحصر مقدار النتائج الحاصلة ، التي تؤدي للوصول إلى الهدف المرسوم ، تماماً مثل التاجر الذي يستثمر أمواله في التجارة ، ويُريد من وراء ذلك أن يعرف ـ على الأقل ضمن دائرة الاحتمالات ـ ، هل ستضيف العملية التجارية ربحاً مُعيناً ، يُضاف إلى رأس ماله الذي وضعه في العملية ؟

وهذا أمرٌ منطقي للغاية ، فنحن لو علمنا أننا نمارس عمل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، في مجال معين ، كأن نقوم بصرف مجهود مالي ، أو بشري ، أو كحد أدنىٰ ، مجهود وقتي ، في اتجاه معين ، لكنّا نعرفُ سلفاً ، انّ ذلك الجهد لن يعود علينا بأية نتيجة تُذكر ، بل ربما يعود علينا بنتيجة معاكسة ، فهل ينبغي علينا بذل ذلك الجهد حقاً ؟ بالطبع لا ، وهذا كلام منطقي وصحيح ، وهذا المنطق مُضاد لمنطق الخوارج .

ففي فقه الخوارج ، يُعتبر الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، عملاً تعبّدياً محضاً ، أي إنّه لا يحق للإنسان أن يُدخل حسابات المنطق في هذا العمل ، إذ ينبغي على الإنسان حسب فقههم ، أن يُمارس الأمر بالمعروف ،

والنهي عن المنكر ، بصورة عمياء حتى ولو تيقّن أنّه لن يحصل على شيء مُثمر ، نتيجة عمله ، أو استثماره لذلك الجُهد .

فهم يقولون إنّ الأمر لا يُخصنا نحن البشر ، فالله قد أمرنا بممارسة فعل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، في كل الظروف والأحوال .

لكن أئمتنا قالوا لنا إنّ هذا لا يجوز ، وهو عمل خاطىء حتماً ، وإنّ الله ، سبحانه وتعالى ، لم يأمرنا بممارسة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، بهذه الطريقة .

فالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، بحاجة إلى الحساب ، والتدبير ، والفكر ، والمنطق ، بالتأكيد ، والعلماء الذين حققوا ، ودققوا في القضايا الاجتماعية ، قالوا بأن سبب انقراض الخوارج ، إنما يعود في الواقع إلى أنهم أنكروا حسابات المنطق في ممارسة واجب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

فقد كان يأتي الواحد منهم دون سلاح ، أو تجهيزات ، أمام أحد الطغاة الجبابرة ، ويقول ما عنده ، مع يقينه الكامل بعدم حصول أي أثر يُذكر لحديثه ، ذلك الأمر الذي كان يعني القضاء على النفس دون نتيجة ، أي كما يُصطلح عليه اليوم ، فإنهم يعملون بدون تكتيك ، لا يعملون للمنطق أي حساب يُذكر في أعمالهم .

لقد كانوا يرمون بأنفسهم في قاع الوادي ، الأمر الذي أدى إلى انقراضهم .

لكن أئمتنا ، عليهم السلام ، قالوا : بأنّ هذا العمل خطأ ، وما « التقية » التي تسمعون بها في فقهنا ، سوى استخدام التكتيك في ممارسة واجب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

و« التقية » من مادة « وقى » أي المحافظة ، وماذا يعني ذلك ؟ إنه يعني أنّ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ما هو إلاّ نضال ، وفي النضال لا بد للإنسان من استخدام الوسائل الدفاعية اللازمة ، أي : اضرب ولكن حاول أن لا تُضرب .

بينما يقول الخوارج : إنّ الجهاد واجب ، ولمّا كان كذلك فلماذا السلاح ، ولماذا الدرع ، والمتراس إذاً ، ما دمتُ سأذهبُ إلى الجنة في حالُ الموت ؟ إذاً سألقي بنفسي في قلب معسكر العدو ، حتىٰ أموت ، وأدخل الجنة !!

وهذا أمرٌ لا يجوز في فقهنا ، فالذي يُستثمر هنا هو قوة الإسلام ، والواحد منّا عبارة عن لبنة من لبنات البناء الإسلامي ، وقوة من قوى وطاقات الإسلام الكبرىٰ .

وعليه لا بد لنا من النضال ، والمبارزة ، ولكن مع السعي في تقليل الخسائر قدر الممكن ، بينما لو أنك دخلت ميدان المبارزة ، دون سلاح ، وقد قُتلت في هذه الأثناء بسبب إهمالك هذا ، فإنّك تكون قد أهدرت طاقة الإسلام .

فالقاعدة أن ندخل ساحة القتال ، ولكن مع تجنُّب القتل قدر الإمكان، أي القضاء على العدو مع المحافظة على النفس ، كلما أمكن ، هذا هو معنىٰ الموضوع الأول ، الذي قال به فقهاؤنا ، وهذا كلام منطقي للغاية .

أما الموضوع الثاني الذي يراد بحثه في باب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وهو ما ورد منه في الأخبار والروايات ، التي تُشكل قاعدة من قواعد فقهنا إنه : « إنما يجب على القوي المُطاع »[1] . أي إنّ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، إنما يجب على من مَلَكَ القدرة على الفعل والأداء .

ومعنى ذلك : إنّ الإنسان العاجز عن الفعل ، لا يتوجب عليه فعل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وهذا الأمر بدوره مرتبط بالموضوع السابق أيضاً ، إنّ المفروض بفعل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، أن يؤدي إلى نتائج مثمرة ، ذلك أنّ القاعدة هي الحفاظ على القوة الذاتية ، والاستزادة بنتائج جديدة ، في حين أن حالة العجز تعني فقدان القوة الذاتية ، بالإضافة إلى عدم التوصل ، أو الحصول على نتائج مثمرة .

لكن قد يرتكب البعض هنا خطأً فادحاً إذا ما ذهب إلى القول :

---

(١) فروع الكافي ج ٥ ص ٥٩ .

ما دمتُ غير قادر على تنفيذ الواجب الفلاني ، ولمّا كان الإسلام يأمرني بعدم الفعل في حالة العجز عن التنفيذ ، إذن دعني أذهب وشأني وما لي وهذه القضية !

ويأتي آخر ليقول : إنّ الإسلام قد أمر بفعل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، في حالة وجود احتمال النجاح ، ولمّا كنت لا أحتمل النجاح في هذه المهمة ، لذا يسقط عني هذا الواجب .

وهذا خطأ كبير . فالاحتمال المطروح هنا ، غير الاحتمال الذي يرد ذكره في باب الطهارات ، والنجاسات .

فلو كنت تجهل حتمية طهارة ، أو نجاسة شيء ما ، لكنك احتملت أن يكون طاهراً ، فالشارع هنا يُجيز لك أن تعتبره طاهراً وكفىٰ ، ومعنىٰ الاحتمال في هذه الحالة هو الاحتمال الذهني المعروف ، أي إنك حيثما حصل لك الشك في طهارة ، أو نجاسة شيء ما ، فإن احتملت أنه طاهر فاحمل على الطهارة وكفىٰ ، كأن يُرسل إليك دواء من الخارج ، وأنت لا تعرف بالضبط ، وغير متيقن من نجاسته ، فتحتمل النجاسة فيه بنسبة (٩٩٪) ، لكنك غير متيقن من ذلك تماماً ، إذ تحتمل أن يكون طاهراً ، ولو نسبة (١٪) فيكون عند ذلك هذا الاحتمال ، كافياً لك باعتباره طاهراً ، ومن ثم الاستفادة منه .

ولا حاجة بعد ذلك ، وغير مطلوب مني أن أذهب ، وأحقق في طهارته ، أو نجاسته أبداً ، فأنا لستُ مُكلَّفاً على الإطلاق بالقيام بمثل هذه المهمة ، ويكفيني ذلك الاحتمال الذهني ، وكما يقول المثل العلمي يكفي العلم الموضوعي ، الاحتمال الموضوعي ، فذلك الاحتمال يصبح بالنسبة لك ، موضوع الحكم وليس أمامك أيّ تكليف آخر .

بينما الأمر في حالة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، لا يعني أبداً الجلوس في الدار ، والقول باحتمال وجود النجاح ، أو عدم وجوده ، فالمسألة ليست مسألة طهارات ، ونجاسات ، بل المطلوب منّا في هذه الحالة ، السعي ، وبذل الجهود ، والتحقيق في سُبل النجاح ، وإمكانيات الوصول إلى النتائج المثمرة .

ومَنْ لا يُحقّق في الأمر ، وهو جاهل بما سيؤول إليه فعل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ليس له عذر يُجيز له ترك الواجب ، كما أن من يقول :

إنني لستُ بقادر ، والإسلام قد أوجب الأمر مع وجود الاستطاعة والقدرة ، وبالتالي فأنا معذور عن القيام بالتكليف ، هو الآخر لا يُقبل عُذره ، فمطلوب منه أن يذهب ، ويبحث عن القدرة ، والاستطاعة ، ويمتلكها ، وهذا الشرط شرط وجود ، وليس شرط وجوب .

أي إنّ الشارع يقول : ما دمت عاجزاً ، فلستُ مُكلفاً بأداء المهمة ، إذ إنك سوف لن تصل إلى نتيجة ، لكنه قال أيضاً بأنّه ينبغي عليك العمل ، من أجل كسب تلك الاستطاعة ، ورفع ذلك العجز ، حتى تتمكن من الحصول على النتائج المرجوة .

وهنا سأضرب لكم مثالاً على ذلك :

توجد في الفقه مسألة ، يصطلح عليها الفقهاء عنوانها « قبول الولاية لدى السلطان الجائر » ، أو « تولي المناصب في جهاز حكام الجور » ، وهي مسألة كانت تُطرح بحدّة ، لا سيما في زمن الأئمة عليهم السلام ، فكانوا يأتون إليهم ، ويسألون : « يا بن رسول الله ! إن هؤلاء الخلفاء (العباسيين وقبلهم الأمويين) ، من حُكام الجور والظلم ، فهل يحق لنا أن نتقبل تولي المناصب الحكومية في دولتهم أم لا ؟ »

ورأي الإسلام هو في عدم جواز العمل في جهاز هؤلاء الحكام ، لكن أئمتنا ، وبعد أن يوضحوا هذا الأمر الكلي ، يُضيفون قائلين : بأنّ من يتمكن من تولّي منصب في حكومة هؤلاء ، ويحتمل أن يتحوّل ذلك المنصب إلى أداة قوة ، في سبيل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فيجب عليه بالتأكيد تقبُّل ذلك المنصب .

وهذه مسألة مطروحة في كتبنا الفقهية ، ونجدها في فقه المحقق (الحلّي) وفي كتابات الشهيدين (الشهيد الأول والشهيد الثاني) ، كل ما هنالك أنّ البعض يقول فيها : « استُحِبَّتْ » بينما يقول البعض الآخر : « وَجَبَتْ » أي إنهم

يقولون بأنّ هذا العمل الذي هو مساعدة الظالم ، وإعانته في حكمه (كتولي (علي بن يقطين) الوزارة في حكومة (هارون الرشيد) الظالم الغاصب) أمر واجب ، أو تكليف شرعي ، أي إنّ هذا العمل ، الذي هو بحد ذاته عمل حرام ، إذا ما تحوّل إلى وسيلة تستطيع بواسطتها تقوية قدراتك ، وطاقاتك في سبيل القيام بمهمة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، يصبح ليس فقط حلالاً لك ، بل واجباً عليك .

يقول الإمام موسى بن جعفر (ع) واصفاً محمد بن إسماعيل بن بزيع ، وعلي بن يقطين ، الشخصين الشيعيين اللذين كانا يعملان في جهاز حكم خلفاء الجور العباسيين ، بأنهما نجوم الله في الأرض ، بالرغم من انهما قد قبلا العمل في جهاز السلطة الظالمة ، لكن هدفهما كان يتمثل في خدمة المثل الإلهية ، وليس حباً بالجاه والسلطة ، أو أملاً في تحقيق المنفعة الشخصية ، أو بهدف كسب المال والثروة ، وبكلمة واحدة كان الدافع الحقيقي لهما ، تحقيق التقدم للإسلام .

فهل رأيتم ! كم هو مهم أمر اكتساب القدرة ، واستحصال الاستطاعة ، من أجل القيام بواجب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ؟ وكم هو واجب بحيث إن الإسلام يقبل لنا ارتكاب عمل حرام مئة بالمئة ، من أجل تنفيذ ذلك الواجب الإلهي . أيْ إنّ هذا العمل ، الذي هو في ذاته عمل حرام ، إذا كان الهدف من ورائه الوصول إلى مكاسب سلطوية ،ولا يتحقق من ورائه ، أي عمل يمت إلى الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، بأية صلة ، ولا خير يخرج منه للإسلام ، هذا العمل نفسه يتحول إلى عمل حلال إذا ما كان الولوج إليه بهدف خدمة الإسلام ، بل يصبح عند ذاك واجباً بنظر البعض ، أو مستحباً بنظر البعض الآخر من الفقهاء ، كما هو رأي المحقق (الحلّي) في كتاب « الشرائع » .

على أية حال ، فالحد الأدنى هو تحوّله من عمل حرام إلى عمل مستحب ، ومن هنا لا بد أن نفهم بأنّ مسألة الاستطاعة المطروحة في هذا الباب ، ليست بمعنى مصادفة وجود الاستطاعة ، فإذا ما صادف وجودها قمنا بالأمر بالمعروف ، وفي حال عدم تصادف وجودها يسقط التكليف ! .

الدليل الأخر ، على عدم صحة هذه النظرية ، التي تقول بأنّه إذا ما صادف وجود الاستطاعة ، يصبح عمل بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر واجبا ، وفي حال عدمها يسقط التكليف ، وبالتالي فإنّ تحصيل الاستطاعة أمر ليس واجباً ، هو في العودة إلى الإسلام ، لمعرفة القيمة التي يضعها الإسلام لمبدأ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وهل يمكن للإسلام أساساً أن يضع مثل هذا الأصل ، وهذه الوظيفة الإسلامية ، تحت رحمة الصدف ، والظروف الموضوعية ، ويصبح أمر هذا التكليف الإلهي مرهوناً باحتمال وجود الاستطاعة بالصدفة ، وفي حال عدم وجودها ، يسقط مثل هذا التكليف عن رقبة المسلمين ، من دون أن يُطلب منهم السعي وراء تحصيل تلك الاستطاعة ؟!

إنكم إذا أردتم معرفة مقام الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وأهميته في الإسلام ، أدعوكم لمطالعة تلك الرواية المفصلة في هذا الباب ، والواردة في كتاب (الكافي)[1] ، وهي من الروايات الشهيرة ، والمحكمة السند ، والمتواتر ذكرها ، في كتب الفقه والحديث المعتبرة كافة .

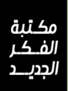
وإليكم بعض المقاطع من تلك الرواية ، حيث تبدأ الرواية بالحديث عن ظهور جماعة من الناس في آخر الزمان ، تصفهم الرواية بالرياء ، رغم قراءتهم للقرآن والدعاء ، لكنهم « يتنسّكون » بتعبير الحديث ، أي إنهم يُريدون ، تملقاً ورياءً ، إظهار طابع القدسية في شخصيتهم ، ومن ثم يُضيف الحديث : « حدثاء سُفهاء » أي حمقىٰ . . .

والشيء الوحيد الذي لا يكترثون له هو : « . . . لا يوجبون أمراً بمعروف ، ولا نهياً عن مُنكر ، إلاّ إذا أمِنوا الضرر . . . » ، « . . . . ويطلبون لأنفسهم الرُخص والمعاذير . . » من أجل التخلص من أداء الواجب .

ومن ثم : « يُقبِلون على الصلاة ، والصيام ، وما لا يُكلّفهم في نفسٍ ولا مال . . . » ، بل وحتىٰ إنهم مستعدون لترك أهم الفرائض وذلك بقوله : « كما رفضوا أسمىٰ الفرائض وأشرفها . . . »

---

(١) فروع الكافي ج ٥ ص ٥٥ .



فما هي تلك الفريضة الأسمى ، والأشرف ؟ يقول الحديث : « إنّ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فريضةٌ عظيمة بها تُقام الفرائض » . أي إنّه لا بد من الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، حتى يكون هناك أداء حقيقي للصلاة ، ويكون هناك أداء للزكاة ، وأداء للحج ، وأداء للخمس ، وللمعاملات ، والقانون ، والأخلاق .

وفي مكان آخر من الرواية يقول الراوي : « . . . إنّ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، سبيلُ الأنبياء . . . . » . . . « منهاجُ الصُلحاء ، بها تُقام الفرائض ، وتأمن المذاهب . . . » ، وبها تُفتح الطرق ، ويصبح الكسبُ حلالاً ، وتُردُّ المظالم ، وتعمر الأرض .

من هنا يمكنكم إدراك الإطار الذي وضعه الشارع المقدس، للأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . إنّه إطار عمارة الأرض ، فوالله إنّ الإنسان ليُجَنُّ أحياناً عندما يُتابع تطورات الأوضاع الراهنة، ويُقارن ذلك بتاريخنا الإسلامي المجيد، فأين كُنا ، وأين أصبحنا اليوم ؟!

إنني أوصيكم هنا ، بمطالعة كتاب « الأحكام السلطانية » للماوردي ، الذي يُعتبر بحق من أهم الكتب الإسلامية ، لا سيما وأنّ الأوروبيين والمستشرقين يولونه اهتماماً بالغاً .

إنّ هذا الكتاب ، يشرح لنا الأنظمة الاجتماعية الواردة في الإسلام ، والتي كانت قائمة ـ في بلادنا ـ قبل حوالي الألف عام .

فانظروا لتلك الأنظمة التي كانت قائمة في عالم الإسلام ، آنذاك ، ومعنى الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، في تلك الأزمنة ، والآثار المترتبة على أدائه .

إنّ الأهم من ذلك الكتاب ، هو كتاب « معالم القُربة في أحكام الحِسبة » ، والذي يبدو لحسن الحظ أنّ أحد المستشرقين الأوروبيين ، هو الذي أخرجه من إحدى المكتبات التركية ، وطبعه ، ونشره ، [مرة أخرى لا بد لنا هنا من الترحم على أولئك الأوروبيين الذين يترددون على المكتبات ، فيخرجون مخطوطاتنا النفيسة ، ويطبعونها ، وينشرونها بينما نظل نحن غير أهل لمثل هذه المهمات] .

لقد تم تدوين هذا الكتاب ، في القرن التاسع للهجرة . و« الحِسبة » هنا تعني نفس الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وهو ما اصطلح عليه بهذا المعنى منذ القرن الثاني للهجرة .

واصطلاح المُحتسب الذي كثيراً ما ورد ذكره في أشعارنا في اللغة الفارسية ، إنما قصد به الأمر بالمعروف ، والناهي عن المنكر ، وتلك التشكيلات التي كانت موجودة في البلاد الإسلامية آنذاك ، والتي كانت تُسمى بالتشكيلات الحِسْبية ، والاحتسابية ، إنّما كان الأفراد المشرفون عليها يُطلق عليهم مُصطلح : « المُحتسبة » أي هم المسؤولون عن الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وهو ، كما ذكرنا ، ورد ذكره كثيراً في شعر شعراء أهل فارس أمثال (مولوي) و(سعدي) و(حافظ) . . .

على أية حال ، فإنّ الإنسان عندما يُطالع هذا الكتاب ، وما يحتويه من تفسير لمفهوم الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، يرىٰ أنه يشمل في الواقع مختلف معالم الحياة . فكل الأعمال الموكلة اليوم إلى البلديات ، في المدن ، والأرياف ، إنما كانت في نطاق مفهوم الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، كذلك المهمات الموكلة اليوم إلى الشرطة ، والدرك ، هي الأخرى كانت في نطاق مفهوم الاحتساب .

ففي الكتاب المذكور ، ورد مثلاً : أنّ من واجبات المحتسب ، عندما يمر من أمام أحد البقّالين ، ويرى أنّه يبيع اللبن في أوانٍ مكشوفة ، الأمر الذي يُعرّض اللبن إلى مضار وقوف الحشرات عليه ، هو العمل فوراً على تغطية تلك الأواني ، كذلك ملاحظة نظافة البقّال البائع ، ومراقبة ملابسه التي ينبغي عليه تبديلها ، أو غسلها بين يومٍ وآخر ، إضافةً إلى الواجبات المُلقاة على المُحتسب ، في مراقبة نظافة الحمامات ، وسير أعمال المشرفين على المساجد ، ونظام الصيانة ، والنظافة ، والرعاية لهذه المرافق ، والأماكن العامة .

وعندما نُراجع اليوم هذه الفصول من تاريخنا نرى الواحد منا يقول : إلهي أحقاً كانت أيامُنا كذلك ، وقد آلت أوضاعنا اليوم إلى ما هي عليه من حالة

مُزرية ؟! وهل هي حقاً تلك الصورة التي ترسمها لنا روايات (الكافي) ، وكتبنا الفقهية الأخرى كافة والتي تقول لنا بأنّ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، كانت أهميته بحيث إنّها : « . . . وتعمرُ الأرضُ ويُنتصف من الأعداء . . . » .

إذاً علينا أن نُحيي مبدأ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، حتى نتمكن من الوقوف بوجه العدو الصهيوني الغاصب ، وإذا كُنا عاجزين عن مواجهة العصابات الإرهابية الصهيونية الغاصبة في فلسطين ، فلنبحث عن جذور الموقف في القرون الأخيرة من تاريخنا ، عندما تركنا الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، الأمر الذي سلّط علينا أعداءنا .

وإذا أردنا فعلاً أن يستوي أمرنا ، فلا بد لنا من العودة إلى هذا الركن الذي يؤدي إلى : « . . . ويستقيم الأمرُ . . . » .

وأخيراً تقول الرواية : « فأنكِروا بقلوبكم؛ ، والفظوا بألسنتكم ، وصُكّوا بها جباهَهُمْ ، ولا تخافوا في الله لومة لائم ، فإن اتّعظُوا، وإلى الحق رَجَعوا فلا سبيل عليهم ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ، ويبغون في الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذابٌ أليم ﴾ »[1] .

والآن هل يمكن التصور بأنّ فريضة لها كل هذا المقام ، وهذه القيمة في الإسلام ، يُقال حول تطبيقها بأنّها تصبح واجبةً فقط إذا ما صادف يوماً ، وحصل أن توفّرت لك الاستطاعة والقوة على التطبيق ، وإلاّ فالتكليف يسقط عنك في غير ذلك ؟!

إنّ سقوط التكليف في مثل هذه الوظيفة يعني سقوط الإسلام ، ذلك أنّ الأمر بالمعروف الذي يُعرّفه لنا الإسلام ، بمثابة العمود ، والدّعامة الأساسية للصرح الإسلامي العظيم ، فكيف إذاً يأتي الإسلام ليقول لنا : إنّه إذا ما صادف ورأيت أنّ باستطاعتك حفظ الإسلام فيها ، وأمّا في حالة عدم استطاعتك ، فلا تكترث ونم خالي البال !

---

(١) سورة الشورى : الآية ٤٢ . من الكافي ٥/٥٥ .

الأمر نفسه ينطبق على موضوع احتمال وجود الأثر والفائدة ، فالواحد منّا لا يمكنه الجلوس داخل جدران أربعة ، والقول بأنه لا يحتمل وجود أثر ملموس من وراء العمل الفلاني مثلاً .

ليس من حقك أن تحتمل وجود الأثر أو تحتمل عدمه ، فأنت لم تُطالع ولم تدرس الظروف المحيطة ، ولا تملك تصوراً حول ما يجري حولك ، ولا حتى تدري ما هو طريق الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ولا سبق لك أن درست علم النفس حتى تعرف كيف يمكن الدخول إلى روح البشر ، والتأثير عليهم ، كما أنك لم تدرس علم الاجتماع ، ولا تعرف شيئاً من هذا القبيل ، حتى تُريد أن تُجيز لنفسك وضع احتمالات لحصول الأثر والفائدة ، أو عدم حصولها .

إن علم النفس وعلم الاجتماع هما ركنا هذا الأصل الأساسيان ، وهما القدرة والمعرفة . وكلاهما لا بد من تحصيله واكتسابه ولا شيء غير ذلك .

إنّكم لا بد تقرأون في جرائدنا التي تتحدث عن وجود أكثر من ثلاثمئة وثمانين (٣٨٠) جمعية ، لجمع الإعانات ، والتبرعات للعدو الصهيوني في بلاد عدوة الشعوب أمريكا .

وأنا هنا أُقدّر هذا الموقف لهذه الأمة الواعية ، فهؤلاء ينشطون ويعملون من أجل مصالحهم ، والأمة الواعية هذا هو طريقها تماماً ، وكل جماعة من الناس في أي مكان تجمعوا ، أو تواجدوا ، عليهم أن يجلسوا ويتدارسوا أمرهم ، وينشطوا ويجمعوا إمكاناتهم ، وأفكارهم ، ويُفكّروا في عواقب أمورهم .

إنّ الأمر يحتاج إلى معرفة ، وتحصيل المعرفة أمر واجب ، والأمر بحاجة إلى قدرة واستطاعة ، وتحصيل القدرة أمرٌ واجب كذلك .

مرة أخرى أعودُ إلى الموضوع الذي تطرقتُ إليه في البداية ، وهو موضوع التحقيق في عنصر الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، في النهضة الحسينية ، وكيف استطاع أهل بيت الإمام استغلال الفرصة الملائمة للقيام بهذه الوظيفة ، إلى الحد الأعلى للاستفادة ، فرحم الله المرحوم (آيتي) رضوان الله عليه فما أعظمه من رجل جليل القدر ! وما أتقاه من عالم كبير افتقدناه جميعاً ! لقد ترك

هذا الرجل العظيم أثراً منه باسم كتاب « دراسة تاريخ عاشوراء » وهو كتاب أظن أنّ الغالبية العظمى منكم قد رأوه .

ومن لم يرهُ أطلبُ منه أن يقتنيه ويطالعه ، والكتاب عبارة عن تجميع الخطبه التي سبق له وأن أذاعها في المذياع ، وقد تم جمعها في كتاب بعد موته ، وإذا لم نقل بأنّ هذا الكتاب يُعتبر أفضل كتاب تم تدوينه باللغة الفارسية ، في هذا المجال ، فإننا نستطيع بالتأكيد القول بأنّه واحدٌ من الكتب الممتازة في هذا المجال .

وهو كتاب إذا لم أستطع التأكيد بأنه من الدرجة الأولى ، من زاوية التحليل ، لكنني أستطيع القطع بأنّه كتاب لا نظير له من زاوية موضوعاته المُدعمة بالدليل والبرهان التاريخيين .

في هذا الكتاب ، يؤكد المؤلف ، على أنّ تاريخ كربلاء إنّما أحياه وخلّدهُ الأسرى ، أيْ إنّ الأسرى هم الذين تمكنوا من المحافظة على هذا التاريخ ، وإن جهاز الحكم الأموي قد ارتكب خطأً بالغاً في عملية أسر أهل البيت ، والانتقال بهم من ساحة المعركة إلى الكوفة ، ومن ثم إلى الشام .

ولو لم يرتكبوا مثل هذا الخطأ ، لكان بإمكانهم ربما دفن تاريخ ، وقصة هذه النهضة ، أو على الأقل الحد من تأثيراتها لكنهم هيأوا الفرصة السانحة بأيديهم أمام أهل بيت النبي ، ليقوموا بدور المُسجِّل ، والمدوّن لهذه الواقعة الكبرى ، ولم يكن يخطر في بال جهاز الحكم الأموي أصلاً ، بأنّ هؤلاء الصبية ، والنساء المُروَّعين ، والمفجوعين ، بتلك الواقعة المأساوية ، سيتمكنون من استغلال تلك الفُرصة ، أقصى الاستغلال ، ومن كان يتصور أساساً أنّ شيئاً من هذا سيحصل ! ولكننا رأينا كيف قاموا عليهم السلام بدورهم التبليغي على أحسن وجه !

الزمان هو يوم الجمعة ، والمكان هو الشام ، والمناسبة صلاة الجمعة ، ويزيد نفسه لا بد له وأن يشارك فيها ، وربما كانت إمامة الصلاة أيضاً ، قد عُهدت له [وليس عندي يقين طبعاً بهذا الخصوص] لكن على أية حال ،

فالخطيب ينبغي له أن يُلقي أولاً خطابين مُفيدين جداً ، وقيمين تماماً ، ومن ثم يشرع في الصلاة .

وهاتان الخطبتان أساساً يُعمل بهما كبديل عن ركعتين من صلاة الظهر ، تسقطان لتتحوّل الصلاة إلى صلاة من ركعتين .

وهكذا صعد ذلك الخطيب المروّج لأمر السلطان ، والمفروض على الأمة فرضاً ، وقال كل ما هو مطلوب منه أنْ يقول حيث تحدّث عن عظمة كل من يزيد ومعاوية ، وألصق بهما كل الصفات الجيدة ، والخيّرة الممكنة ، ومن ثم عرّج على ذكر علي (ع) ، والإمام الحسين .

وبعد توزيع السباب واللعن والشتائم عليهما اتهمهما بالخروج على دين الله (والعياذ بالله) ، وأنهما فعلا كذا وكذا . . .

وفي هذه الأثناء ينهض زين العابدين (ع) ، ويُدوي صوته في الآفاق ، موجّهاً كلامه إلى الخطيب قائلاً : « أيها الخطيب اشتريت مرضاة المخلوق بسخط الخالق » ، ثم وجه كلامه إلى يزيد طالباً منه أن يجيز له صعود ذلك المقعد الخشبي ، (لاحظ أنه لم يستخدم تعبير المنبر ، وهو أمر عجيب فعلاً ! فأهل البيت كانوا دقيقين ومُقيّدين بشدة بالالتزام بتناسب المصطلحات والتعابير ، فمثلاً لم يقل الإمام في مجلس يزيد : يا أمير المؤمنين ، عندما أراد مخاطبة يزيد بل ناداه بالخليفة ، كما أنه لم يُناده بأبي خالد ! بل يا يزيد !

وزينب هي الأخرى فعلت الشيء نفسه ، وهنا في هذه الحالة لم يطلب الصعود إلى المنبر ، فالمنبر هنا فقد دوره كمنبر في الشام ، وضمن خلافة يزيد ، وتحوّل إلى مقعد خشبي ، بدرجات ثلاث ، يجلس فوقه خطيب مرتزق ، يخطبُ بتلك الترّهات المعروفة .

وعليه فإنّ المنبر لم يَعُد منبراً ، بل صار أخشاباً ، نعم فالإمام يطلب صعود تلك الأخشاب ليتكلم إلى الناس .

ويزيد يرفض الموافقة ، لكن الحاشية المُحيطة ، ومن زاوية كون علي بن الحسين حجازي السحنة ، واللسان ، ولمّا كان أهل الحجاز معروفين بخطابهم

الحلو واللطيف ، فقد طلبت الحاشية من يزيد ، منح الموافقة لهذا الحجازي ، ليستمعوا إلى خطابه .

ثم جاء إليه ابنه وطلب منه هو الآخر السماح لهذا الشاب الحجازي بالخطاب ، حتى يسمع نوع الخطاب الحجازي ، وبعد ضغط شديد من الحاشية ، وإصرار من أطراف عديدة ، اضطر يزيد للموافقة لأنّ رفضه المتزايد كان يعني الخوف والعجز .

ولكن انظروا إلى زين العابدين ، الذي كان في ذلك الوقت مريضاً من جهة ، لكنه كان يتشافى ويتعافى شيئاً فشيئاً ، وبالتالي لم يعد فيما بعد يختلف عن كونه إماماً مثل سائر الأئمة . وأسير حرب من جهةٍ أخرى ، ومن ثم من أهل المنبر ، إضافةً إلى كونه قد قضى أربعين يوماً وليلةٍ ، وهو في الطريق بين الطف والشام ، مُكبلاً بالأغلال والقيود ، لكنه رغم ذلك اعتلى المنبر ، وخطب بالقوم خطبةً أقام لها الدنيا ، ولم يُقعدها ؟!

فما كان من يزيد إلاّ أن فقد صوابه لشدة الصدمة ، وانبهار الجماعة ، وصار يقول بينه وبين نفسه : الآن سيحمل عليّ الناس ويقتلونني ، فتوسّل بحيلة الأذان إذ كان قد آن وقت الأذان ، فصاح فجأةً بالمؤذن أنْ هيّا كبّر إلى الصلاة ، فقد حان موعدها .

ارتفع صوت المؤذن بالتكبير ، فسكت زين العابدين (ع) ، وقال المؤذن : « الله أكبر الله أكبر » ، ثم أكمل الإمام كلامه بنداء « الله أكبر ، الله أكبر » ثم أكمل المؤذن « أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله » ، ثم أكمل المؤذن متابعاً أذانه حتى بلغ قوله : « أشهد أن محمداً رسول الله » ، وحين بلغ هذا الحدّ من أذانه صاح به زين العابدين (ع) ، فأسكته ، ثم التفت بوجهه مخاطباً يزيد بقوله :

يا يزيد ! أتعرف من هو هذا الذي يردُ اسمه هنا ، وتتم الشهادة برسالته ؟

أيها الناس ! أتعرفون من نحن الذين جيء بنا إلى هنا أسرى ؟ ومن هو أبونا الذي استشهد في واقعة الطف ؟

ومن هو ذلك الذي سنهدون باسمه هنا في الأذان ؟

وحتى قبل حديث الإمام لم يكن الناس يعرفون ماذا هم فاعلون .

أنتم لا بد قد سمعتم أنّ يزيد قد أمر فيها بعد بإخراج آل بيت النبي من تلك الخربة التي كانوا قد وضعوا فيها أول الأمر ، ثم أمر بإرسالهم مُعززين مُكرمين برفقة (النعمان بن البشير) ، وهو الأمير السابق للكوفة ، المعتدل الصيت ، والسمعة ، والسلوك ، مع التأكيد على ضرورة معاملتهم بكل عطف وحنان ، حتى الوصول بهم إلى المدينة .

ولكن هل تعرفون السبب الكامن وراء ذلك ؟ فهل يُعقل أنّ يزيد قد تحوّل إلى رجل شريف مثلاً ؟ او انّ نفسية يزيد قد تغيّرت ؟ أبداً ، كل ما هنالك أن الأجواء ، والأوضاع المُحيطة بيزيد ، قد تحوّلت .

وأنتم لا بد سمعتم أنّ يزيد صار يلعن ابن زياد ، ويقول بأنّ الذنب ذنب ابن زياد ، وأنّه صار ينكر بأنّه قد أصدر الأوامر له بقتل الحسين (ع) ، وأنّ ابن زياد ، إنما ارتكب فعلته تلك من عنده !

فهل تعلمون سبب ذلك التحوّل في موقف يزيد ؟

إنّ السبب هو أنّ زين العابدين وزينب عليهما السلام كانا قد قلبا أوضاع الشام ، وأحوالها رأساً على عقب .

ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم



القسم الخامس

شعارات عاشوراء

بسم الله الرحمن الرحيم(*)

الحمد لله رب العالمين ، باريء الخلائق أجمعين ، والصلاة والسلام على عبد الله ، ورسوله، وحبيبه ، وصفيه ، وحافظ سره ، ومبلّغ رسالاته ، سيدنا ونبينا ومولانا أبي القاسم محمد ، وآله الطيبين ، الطاهرين ، المعصومين .

أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم :

﴿ يا أيُّها الذين آمنوا اسْتجيبوا لله وللرّسُولِ إذا دعَاكُمْ لِمَا يُحيِيكُمْ ﴾(1) .

عنوان محاضرتي اليوم هو « شعارات عاشوراء » ، وسأتحدث لكم في هذا المجال من زاويتين مختلفتين ، لكنهما مرتبطتان الواحدة منهما بالأخرى .

الأولى تتمثل في الشعارات التي رفعها شخص الإمام أبي عبد الله الحسين (ع) ، وأهل بيته ، وأصحابه في يوم عاشوراء .

والثانية حول تحوُّل عاشوراء الواقعة ، والقضية ، بالنسبة لنا نحن الشيعة ، إلى شعار دائم في حياتنا .

(*) ألقيت هذه المحاضرة في يوم عاشوراء بتاريخ ١٩٧٥م تقريباً وذلك في مسجد جامع نارمك بطهران .

(1) سورة الأنفال : الآية ٢٣ .

أولاً وقبل كل شيء ، لا بد وأن اوضح لكم كلمة « شعار » وخلفيتها :
فكلمة شعار في الأصل تأتي من الشعر ، أو النثر الذي كان يُقرأ في الحروب ، إذ كانت كل جماعة تدخل ميدان المعركة ، تردد مجموعة أشعار خاصة بها دون غيرها، وكانت الحروب إذ ذاك تجري بشكل مبارزة فردية بين العساكر ، وعندما كانت مجموعتان من العساكر تشتبكان في الميدان، يكون الجميع مسلحين ، ومدرعين، بشكل كامل تقريباً ، ابتداءً من الخوذة على الرأس ، والممتدة غطاءً للوجه حتى الأنف ، ومن ثم الملابس الحديدية التي كانت تغطي سائر أنحاء الجسم ، انتهاءً بالجزمة ، مما يعني أنّ الفرد الواحد لم يكن يظهر منه سوى عينيه تقريباً .

ولذلك فإنّ العساكر لم تكن تعرف بعضها البعض جيداً في ميدان المعركة من خلال النظرة الخارجية إلّا نادراً ، عكس الحالة الطبيعية خارج الميدان ، حيث الألبسة المختلفة ، وبروز الوجه ، والقسم العلوي من الجسم ، الأمر الذي كان يُسهل المعرفة حتى من بُعد .

إنّ اللباس العسكري المُوَحد للمحاربين كافة ، كان يجعل ليس فقط تمييز عناصر الجيش الواحد عن بعضها البعض ، أمراً صعباً ، بل غالباً ما كان الواحد من عناصر أحد المعسكرين لا يعرف العساكر المحيطة به ، هل من معسكره ، أم من معسكر الطرف الآخر ، ولهذا كان يحدث أحياناً ان يضرب أحدهم رفيقاً له ظناً منه أنه قد ضرب أحد أفراد العدو .

من هنا كان لكل قوم أو معسكر شعارهم الخاص بهم ، الذي يتمثل في جملة ، أو بيت شعر ، كان يُردده أفراد ذلك المعسكر في ميادين المبارزة ، لكي يُميّزوا أنفسهم مثلاً بأنهم من معسكر « ألف » ، في حين أنّ معسكر « ب » مثلاً كانوا يُرددون شعاراً آخر .

وهذه الفكرة كانت تُفيد ، على الأقل ، في عدم وقوع العساكر بخطأ ضرب أحد رفاقهم ، بدلاً من ضرب العدو .

وفي بعض الأحيان ، كان الشعار يأخذ طابعاً أكثر خصوصيّة ، وذلك عندما كان الجُند يُضيفون شعاراً خاصاً ، يُعرّفون من خلاله بانفسهم ، إضافةً

إلى الشعار العام الذي كانوا يردِّدونه لتمييز أنفسهم عن معسكر العدو .

ولمّا كان العربي يتميز بقوة حسّه الشعري ، وكون نظم الشعر للعربي من الأمور اليسيرة ، فإنه غالباً ما كان الواحد منهم ، يُعرِّف عن نفسه ببيت ، أو بيتين من الرَّجز الشعري .

وكما كان يحدث أحياناً كانْ يبرز إلى الميدان فارس يطلبُ بواسطة الشعر فارساً يُنازله من المعسكر الآخر ، فيبرز إليه المُبارز المُنافس مُردداً أبياتاً شعرية ، من الوزن نفسه ، لكن هذا اللون من التنافس الشعري كان أصعب نوعاً ما من اللون السابق .

إنكم لا بد قد سمعتم بقصة طلب النبي الأكرم (ص) من أصحابه أن يحفروا خندقاً حول المدينة للحؤول دون تسلل الأعداء إلى داخلها ، وأنّه على الرُّغم من ذلك ، فقد تمكّن بعض أفراد العدو ، من اختراق الخندق من ناحية بعض الثغرات ، والعبور إلى الجهة الأخرى ، حيث معسكر النبي (ص) ومن بين أولئك كان « عمرو بن ود العامري » ، القارس الذي كان مشهوراً بالشجاعة ، وكان يُضرب به المثل في الفروسية والباس .

وكان هذا الفارس قد تقدم بالفعل نحو المسلمين ، ودنا من معسكرهم وهو يُنادي « ألا رَجُل ، ألا رَجُل » ؟ ولم يتجرأ أحد من جيش النبي (ص) أن يرد عليه [لأنهم كانوا يعرفون جميعاً أنّ تحدّي هذا الرجل ، ومواجهته كانت تعني الموت المحتّم] ، ما عدا ذلك الفتى الذي كان قد بلغ العشرين لتوه ، نهض من مكانه وقال : يا رسول الله ! أتأذن لي أن أُبارز هذا ؟ لكن النبي (ص) طلب إليه الجلوس .

فكرّر الفارس نداءه : « ألا رَجل ، ألا رَجُل !» مرتين ، وثلاثة ، ولم يبرز إليه أحد سوى علي بن أبي طالب ، الأمر الذي وضع كرامة المسلمين في خطر .

فنهض عندها عمر بن الخطاب ، يطلب العذر للمسلمين ، ويقول :

يا رسول الله ! إنّ أحداً لم ينهض لمبارزة هذا الرجل ، لأنه فارس لا يُهزم ، وإنني شخصياً سبق لي أن شهدت له موقفاً عندما كنا ذات مرة في قافلة واحدة ،

وحصل أن واجهنا عصابةً من قُطّاع الطرق ، فبرز إليهم وحده، وقاتلهم دون درع ، بل اكتفى يومها باتخاذ مقعد الجمل درعاً له ، وهزمهم ، فكيف بنا الآن ونحن نبرز لمثل هذا الرجل ؟!

في هذه الأثناء أراد « عمرو بن عبد ود » أن يُحقّر المسلمين ويجرح مشاعرهم أكثر فأكثر فصار يُردّد هذين البيتين من الشعر :

« ولقد بُححتُ من النـدا ء بجمعكم « هل من مُبارز ! »
ووقفتُ إذْ وقف المُشجّعُ موقف القِرن المُناجز »

هنا لم يَعد يحتمل الموقف ، فأجاز النبي لعلي ، أن يبرز لهذا الرجل ، فنهض علي على الفور ، وردّ عليه بنفس الوزن قائلاً :

« ولقد أتاك مُجيبُ صوتك غيرُ عاجزْ . . »

وتعرفون بقية القصة ، وكيف أنّ علياً قد هزم ذلك الفارس ، شر هزيمة ، الأمر الذي جعل رسول الله (ص) يقول يومها كما روي :

«لقد نهض الإسلام كلّه للكفر كله » أي إنّ المبارزة تلك كانت مُبارزة مصيرية !

على كل حال فإنّ من المسائل التي تتكرر كثيراً في يوم عاشوراء، هي مسألة الشعارات ، شعارات أبي عبد الله الحسين (ع) ، وأهله وأصحابه ، وتلك الشعارات لا سيما منها المتعلقة بأبي عبد الله نفسه كانت تتعدى التعريف بالشخص ، من خلال رجز شعري معين ، لتأخذ طابع التعريف بالنهضة الحسينية ، وشرح أهدافها .

وهذا أمر مُهمّ للغاية في مثل هذه المواقع والظروف ، فقد حصل في التاريخ مراراً أن يجتمع الناس مثلاً لأمر معينّ ، وهدف مُحدّد ، ولكنهم ، وبعد تفرّقهم ، تراهم يسمعون عن أمر اجتماعهم ذاك أخباراً مغايرة تماماً لما اجتمعوا من أجله .

ففي أوائل النهضة الدستورية ـ في إيران – حصل الكثير من هذا القبيل ، فأغلب الناس لم يكونوا يعرفون شيئاً عن النهضة الدستورية ، فكانوا يجمعونهم

تحت لواء موضوعات أخرى ، لكنهم بعد أن يتفرّقوا كانوا يسمعون أنباء اجتماعاتهم تلك ، بهذا النحو أو ذاك .

والسبب هو أن الجمهور لم يكن مُدركاً ، وواعياً ، بالقدر الذي يستطيع فيه أن يُشخص ، ويُحدّد بنفسه ، أهداف اجتماعه .

إنَّ أبا عبد الله (ع) أطلق شعارات كثيرة في يوم عاشوراء بيّن من خلالها روح نهضته ، وحدّد بالضبط الهدف الذي دفعه للمجيء إلى تلك الديار ، والقبول بإراقة دمه حتى القطرة الأخيرة ، وعدم التسليم ، والمضي بالحرب حتى نهاياتها .

لكن تلك الشعارات ، للأسف ، قد نُسيت من قبلنا نحن الشيعة ، بل إننا استبدلناها بشعارات أخرى من صنديّاتنا ليس بإمكانها عكس روح نهضة الحسين (ع) ، ولا تبيانها .

إنَّ أئمتنا قد أكدوا الواحد بعد الآخر على ضرورة إحياء هذه المناسبة العظيمة ـ عاشوراء ـ ، وأنه لا يجوز نسيان هذه المصيبة ، فهي مدرسة خالدة لا بد لنا من التمسك بها .

وإنَّ على شيعتنا أن يُحيوا هذه المناسبة العظيمة في كل عام يمر فيه علينا محرّم ، وعاشوراء .

إن عنوان عاشوراء أصبح شعار الشيعة ، وعلينا إذاً عندما نواجه أحداً من أهل السنة ، أو حتىٰ ونحن نقف أمام أصحاب الأديان الأخرىٰ كالمسيحية ، أو اليهودية ، أو أمام المُلحدين الذين سيسألوننا جميعاً : ماذا تريدون أنتم الشيعة في تاسوعاء وعاشوراء ، عندما تُعطّلون كل أعمالكم ، وتُنظّمون المسيرات ، وتلطمون على الصدور ، وتقيمون المآتم البكائية ؟ .

وماذا تُريدون القول من خلال كل ذلك ؟ ولا بد أن يكون لدينا ما نقوله أمام هذه التساؤلات .

إنَّ أبا عبد الله لم يَقُم من أجل أن يُقتل دون أن يقول ما يُريد ، وما

يهدف ، من وراء ذلك القيام ، إنه قال ما يُريد ، وشرح أهداف نهضته ، وحدّد الغاية من وراء قيامه .

فلا بد لنا إذاً أن نرى ما هي شعارات الحسين بن علي (ع) في يوم عاشوراء .

إنها الشعارات التي أحيت الإسلام ، وأحيت التشيع ، وزلزلت أساس حكم الخلافة الأموية ، تلك الخلافة التي لو لم تكن ثورة الحُسين (ع) ، لبقيت ربما لألف عام مهيمنة على مصير البلاد الإسلامية ، ولم يكن باستطاعة بني العبّاس ، أن يحكموا لمدة خمسمئة عام ، بعد أن انتزعوا الحكم من بني أمية بفضل ذلك الاهتزاز الذي أوجدته واقعة الطف ، في أركانها ، كما يقول الكاتب (عبد الله العلايلي) ، وغيره من أهل القلم .

نعم فأهداف الحكم الأموي كانت تتمثل في العودة إلى أوضاع ما قبل الإسلام ، وإحياء الجاهلية تحت ستار الإسلام ، وشعاراته الظاهرية ، غير أنّ شعارات أبي عبد الله ، مزّقت ذلك الستار الكاذب ، وانتصرت عليه .

إننا نشهد بروز نوعين من الشعارات ، في يوم عاشوراء ، فهناك الشعارات التي كانت تعرّف عن شخصية المبارز ، وتكتفي بذلك ، ولكن إلى جانبها رُفعت شعارات كانت بالإضافة إلى تعريفهما للشخص ، تتضمن تعريفاً للفكر ، والإحساس ، والشعور ، والغاية التي كان يسعىْ إليها الشخص المُبارز ، من وراء ذلك القتال .

وكلا النوعين من الشعارات ، برزا بكثرة في يوم عاشوراء .

وإذا أردنا الحديث عن الشعارات التي رفعها أبو عبد الله الحسين (ع) في ذلك اليوم فإنه لا يسعنا المجال هنا لتفصيلها ، فهي قصة طويلة لا يمكن اختصارها في محاضرة واحدة .

إنّ أبا عبد الله الحسين (ع) ، كان يفتخر في ذلك اليوم أن يُعلن بوضوح أنه ينهج نهج أبيه علي المرتضى (ع) .

صحيح أنّه كان يفتخر بجدّه رسول الله (ص) ، لكنه كان يفتخر بأبيه علي

المرتضى بشكل خاص ، في الوقت الذي كان فيه الطرف المقابل يُشهر عداءه لعلي ، ويدّعي بأنه جزء من أمة النبي .

ولذلك فإنّ الإمام الحسين (ع) ، تراه يسعىٰ لإعلان انتمائه لعلي المرتضىٰ (ع) ، بشكل رسمي وواضح .

إنّ أبيات الشعر التي كان يُرددها أبو عبد الله (ع) في يوم عاشوراء كثيرة ومختلفة ، وقد نُظِّمت بأوزان متعددة ، ومنها ما كان من نظم الحسين (ع) نفسه ، ومنها ما كان يستشهد بها عليه السلام وهي لشعراء آخرين ، نظموها في مناسبات أخرى كاستشهاده بشعر « فروة بن مُسيك » الحماسي المؤثّر .

إنّ أحد الأبيات التي كان يُرددها أبو عبد الله في يوم عاشوراء ، والذي صار بمثابة الشعار العام له ، هذا البيت :

الموت أولىٰ من ركوب العار ، والعارُ أولى من دُخول النار[1]

هذا الشعار الحسيني ينبغي أن يُطلق عليه شعار الحُرية ، والعزة ، والشرف ، أي إنّ المسلم الحقيقي يُفضّل باستمرار أن يموت ، على أن يخضع لحياة الذل .

يا جماهير العالم في كل مكان ! أتعرفون لماذا قاتل الحُسين حتى آخر قطرة من دمه ، ودم أحبّائه وأصحابه ؟

لأنّ الحُسين قد تربىٰ في حجر النبي وعلي ، وشرب حليب الزهراء البتول [إنه تعبير الحسين نفسه] .

في تلك اللحظات الحرجة ، من يوم عاشوراء ، حيث انعدم كل أملٍ في الظاهر ، وكل من كان بوضع الحُسين ، لم يكن أمامه سوى الاستسلام .

نعم في تلك اللحظات بالذات ، ترى الحُسين يخطب خطبته النارية تلك ، المليئة بالحماس والغيرة ، وكأنّ اللهيب يخرج من فم الحسين (ع) ، وهو يقول :

---

(1) مقتل المُقرم ص ٣٤٥ .

« الا وإنّ الدّعي ابن الدعي ، قد ركّز بين اثنتين ، بين السّلّة والذّلّة ، وهيهات منّا الذلّة » .

نعم فابن زياد ذلك السفاك الذي يقطرُ الدم من سيفه ، والذي سبق لأبيه أن أرهب أهل الكوفة ، وأرعبهم قبل نحو من عشرين عاماً ؛ ما إنْ سمع أهلها بتولية يزيد أمارة الكوفة له ، حتىٰ فروا إلى داخل بيوتهم ، وهم يرتجفون رُعباً ، لما يعرفونه من دموية لدى الأمير الجديد وأبيه .

لقد تفرق الجمع من حول مسلم ، بمجرد وصول ابن زياد إلى الكوفة ، بسبب شدة الرعب الذي كان قد أوجده أبوه في قلوب أهل الكوفة ، في مثل تلك الظروف المليئة بالرُعب ، ترى الحُسين بن علي (ع) يخاطب أهل الكوفة ، واصفاً الأمير الجديد :

« ألا وإنّ الدعي ابن الدعي » ، أيْ إنّ ابن الزانية ، هذا الذي هو أميركم، وقائدكم «قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة» [الأستاذ المُطهري يبكي] اتدرون ما الذي يقترحه عليّ ؟ إنه يقول إنّ على الحسين أن يستسلم ذليلاً ، خانعاً ، لإرادتي ، أو فلينتظر السيف .

ولذلك قولوا لأميركم إنّ الحُسين يقول له : « هيهات منّا الذلّة » فالحسين لن يذِل ولن يركع ؟! [بُكاء الأستاذ الشهيد] فهل تصوّر انني مثله ؟ كلاّ ، « يأبىٰ الله ذلك لنا ، ورسولُهُ ، والمؤمنون وحجورٌ طابت وطَهُرَت » [بكاء الأستاذ يُسمع هنا كذلك]

إنّ الله لن يقبل هكذا ذلّة للحُسين ! الا تعرفون من أنا ؟ وهذا الدعي ابن الدعي الا يعرف بأي حضن كبر الحسين وترعرع ؟!

إنني ترعرعت في حضن النبي ، وفي حضن علي المرتضى ، وشربت الحليب من ثدي فاطمة الزهراء [بكاء الأستاذ] فهل مَنْ رضع من ثدي فاطمة ، يقبل بالذل والأسر ، بين يدي ابن زياد ؟! هيهات منّا الذلة ؟!

كانت هذه هي طبيعة الشعارات الحسينية في يوم عاشوراء ، أيها الأخوة ، أصحاب المآتم الحسينية اليوم ، يا مَنْ تبحثون عن شعار لمسيراتكم .

ومن هنا ينبغي علينا أن نُطابق شعاراتنا الراهنة مع شعارات الحسين (ع) .

إنَّ عطش الحُسين ، وعطش أهله ، وأصحابه ، ليست مسألة بسيطة عابرة في قصة النهضة ، فالجو حارٌ للغاية (كانت وقائع المعركة في فصل الصيف ، ومن المعروف أن صيف العراق شديد الحرارة) ، وقد تمكّن العدو من قطع المياه عن آل بيت النبي لمدة ثلاثة أيام ، ويبدو أنهم قد شربوا قليلاً من الماء فقط في ليلة العاشر من محرم ، وذلك من الكمية المُخزّنة في الخيام ، حيث قال لهم أبو عبد الله : إنها آخر ما تبقى من قرب الماء .

أضِف إلى ذلك أنَّ الجسم عندما ينزف ، فإنه يصبح بحاجة ماسة إلى الماء ، وبشكل ملحوظ ، فالله سبحانه وتعالى خلق الأبدان بصورة ، سرعان ما تبرُز إلى الوجود حاجاتها ، ونواقصها ، فالجرحىْ الذين تنزف أبدانهم ، تراهم سرعان ما يُصابون بعطش شديد ، يظهر جلياً عليهم ، فيطلبون الماء الذي تحتاجه أبدانهم ، ليُمكنهم من إعادة صنع الدم من جديد ، والتعويض عمّا فقد في النزيف .

وعلى هذا يُمكننا تصور الموقف في ذلك اليوم المشهود ، يقول الراوي : « يحول بينه وبين السماء العطش » . أي إنَّ شدة عطش أبي عبد الله كانت بالدرجة التي لم يكن يستطيع معها النظر إلى السماء ، وهذا أمر ليس بالبسيط على الإنسان !!

لكنني ومع ذلك ، ورغم البحث الكثير في المقاتل الحسينية ، (بقدر استطاعتي) لم اجد فيها تلك الجملة المعروفة التي تُنقل عن لسان الحُسين (ع) على أنه صار يطلبُ من الناس قائلاً : « اسقوني شربةً من الماء ! »

فالحسين ليس بالإنسان الذي يطلب من أولئك الناس شربةً من الماء ، مهما كانت الظروف التي كان يمرُ بها ، نعم وجدتُ ما يُشير إلى أنه عليه السلام وهو يُحارب ويُبارز الأعداء . . . « وهو يطلب الماء » ، والقرائن هنا كلها تدلُ على أنَّ المقصود بهذه الجملة أنّه كان يبغي شق الطريق إلى الشريعة ، والوصول إلى الماء ؛ في النتيجة ، وهذا يختلف عن طلب الماء من العدو .

إنّ عظمة أبي عبد الله شيء ، ونحن شيء آخر ، دعونا نجعل شعاراتنا التي نرفعها في المسيرات و ـ اللطميات ـ الحسينية ، فعلاً ، شعارات حسينية .

إنّ البكاء ، والحُزن ، والنواح على الحُسين أمر جيد للغاية ، فالأئمة الأطهار كانوا يطلبون على الدوام ، من الشعراء ، وأصحاب المقامات ، ومدّاحي أهل البيت ، أن يقرأوا الشعر ، ويُذكّروا العالم بمصائب أهل البيت ، وكان الأئمة بالمقابل يبكون ، ويذرفون الدموع الغزيرة .

إنّ النواح ، واللطم ، والضرب بالسلاسل ، كل هذه الأعمال ، أوافق عليها شخصياً ، لكنني أقول شرط أن تكون شعاراتنا في هذا المجال ، شعارات حسينية ، وليس شعارات نابعة من عندياتنا ، كأن نرفع شعار : « يا علي الأكبر يا بُني أين شبابك . . » ، إذ إنّ هذه الشعارات ليست من الحُسين (ع) في شيء .

فشعارات الحُسين من نوع آخر متميز ، فأنت تراه يُنادي مرةً : « ألا ترون أنّ الحق لا يُعمل به ، وأن الباطل لا يُتناهى عنه ، ليرغب المؤمنُ في لقاء الله مُحقّاً » .

ولم يَقُل هنا : الحسين أو الإمام ، بل ليرغب المؤمن بالمُطلق ، أو يقول في أخرى : « لا أرى الموت إلاّ سعادةً ، والحياة مع الظالمين إلاّ برما » . إنّ كل جملة أو عبارة من عباراته ينبغي لنا أن نَخُطها بالذهب ونوزّعها في كل أنحاء العالم ، ورغم ذلك فمثل هذا قليل أيضاً .

إنّ شعارات الحُسين (ع) ، كانت شعارات إحيائية ، أيْ شعارات تنبع منها الحياة . ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا اسْتجيبُوا لله وللرّسول إذا دَعَاكُمْ لِمَا يُحيِيكُمْ ﴾ .

إنّ أبا عبد الله رجلٌ مُصلح ، وهذا التعبير تعبير الحسين (ع) نفسه ، إذ كان يقول : « إني لم أخرُج أشِراً ، ولا بطراً ، ولا مُفسداً ، ولا ظالماً ، وإنما خرجتُ لِطَلب الإصلاح في أُمّة جدي ، أريد أن آمر بالمعروف ، وأنهى عن المنكر ، وأسيرُ بسيرة جدي وأبي » .

هذا ما ورد في رسالة الحسين (ع) التي اعتبرت بمثابة « الوصية » إلى أخيه

محمد بن الحنفية ، الذي لم يكن باستطاعته مرافقة أخيه الحسين في القافلة ، بسبب الشلل الذي كان قد أصاب أطرافه العُليا آنذاك .

نعم لقد جاءت وصيته عليه السلام لِتُعطي الجواب الواضح ، والقاطع ، حول أهداف ثورته المباركة .

لقد كُتبت الوصية في المدينة المنورة ، أي منذ الانطلاقة الأولى حتىٰ يعرف العالم أجمع أهداف التحرك الحسيني الذي لخّصه عليه السلام ، في ضرورة الإصلاح في أمة جده ، وإحياء سيرته صلى الله عليه وآله ، تلك السيرة التي كادت أن تموت لولا قيامه عليه السلام .

ومن هنا نستطيع إدراك معنىٰ إصرار الأئمة عليهم السلام ، وتأكيدهم علينا ، لضرورة إحياء عاشوراء وتخليدها ، ومعنىٰ الثواب والأجر العظيم الذي ينتظر كل من يُساهم في عزاء أبي عبد الله .

فهل يعقل إذاً ، بأنهم قد أرادوا منّا إقامة عزاء يشبه العزاء الذي نُقيمه بمناسبة موت فرد من أفراد عائلتنا ، بالطبع لا ، فموتنا لا يُرافقه أهدافٌ وقيمٌ عُليا ، بينما المُراد من قول الأئمة ، بضرورة إحياء عاشوراء ، وتخليدها ، هو تخليد تلك المدرسة ، التي كان يُمثلها الحسين بن علي ، ذلك الرمز والقوة الخالدة .

وإذا كان الحسين بن علي بشخصه ، لم يَعُد موجوداً بيننا ، فإنّ المطلوب أن يفتح الناس أعينهم ، وينهضوا في كل عام ، ومع طلوع كل مُحرم ، ليسمعوا نداء الحسين يرنُ في آذانهم : « ألا ترون أن الحق لا يعمل به ، وأنّ الباطل لا يُتناهى عنه ؟

وليرغب المؤمن في لقاء الله مُحقّاً » ، وذلك من أجل أن نُحيي ونُحرّك بصدق في أوساط شيعتنا إرادة الحياة ، والرغبة الجامحة لجهة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وإصلاح مفاسد أمور المسلمين .

وعليه إذا ما سُئلنا عمّا نُريد قوله من خلال النداءات التي نُطلقها باسم الحُسين ، في يوم عاشوراء ، وضربنا على الرؤوس ، ولطمنا على الصدور ، فإننا

نستطيع القول بأننا نُريد تكرار حديث سادتنا وأئمتنا .

نُريد أن نُجدّد الحياة في المُحيط الذي حولنا ، ونُعلن : ﴿ يا أيُّها الّذين آمنُوا اسْتجيبُوا لله وللرّسُولِ إذا دَعاكُم لِما يُحييكم ﴾ .

نعم فعاشوراء بالنسبة لنا ينبغي أن تكون يوم الإحياء ، وتطهير الأنفس في الكوثر الحسيني ويجب أن تكون عاشوراء لنا مناسبة ، لنتعلم منها مبادىء الإسلام . وأسس الدين وبعث روح الحياة فينا .

فنحن نرفض أن ننسىٰ واجب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، كما لا نُريد لحسّ الشهادة ، والجهاد ، والتضحية في سبيل الحق ، أنّ يبتعد عنا ، ولا لروح الفداء في سبيل الحق ، أن تموت فينا .

هذه هي فلسفة عاشوراء الحقيقية ، لا كما يُريدها البعض أن تكون بأنْ نرتكب الذنوب ، ثم تأتي المناسبة ، فنشترك فيها ، حتىٰ تغفر لنا ذنوبنا !

إن الذنوب لتغفر في الواقع ، عندما تُجبل أرواحنا مع روح الحسين بن علي .

إن ذنوبنا تُغفر لنا قطعاً إذا ما جُبلت روحنا وتوحدت مع روح الحُسين ، ولكن علامة الغُفران لا تتأكد إلاّ بعدم العودة إليها مُجدداً .

أمّا أن نرتكب الذنوب ، ثم نحضر مجلس الحُسين ، ونخرج منه ، فنرتكب الذنوب مرة أخرى ، فمعنى ذلك ، أنّ روحنا ، لم تتحد حقاً مع روح الحسين بن علي .

إنّ شعارات أبي عبد الله هي شعارات إحياء الإسلام . ولذلك نراه عليه السلام يتساءل عن سبب احتكار البعض لبيت مال المسلمين ؟ وعن سبب تحليلهم لحرام الله ، وتحريمهم لحلاله ، وتقسيمهم للناس إلى فقير لا يجد قوته ، وغني مُتخم مُصاب ببطنة تمنعه من الحركة ؟

وفي الطريق إلى العراق ، وبحضور جيش الحُر ، يخطب بالمعسكرين ، ويُذكرّهم بحديث رسول الله (ص) الذي يقول فيه إنه « من رأى سُلطاناً

جائراً . . . . » ولم يُغيّر فيه من شيء ، ويسكت على ذلك الظلم فإنه « كان حقاً على الله أن يُدخله مدخله » إلى أن يقول (ع) : « ألا وإني أحقّ من غيري . . . » .

فهذه هي إذاً ، مدرسة عاشوراء ،ومضمون شعارات عاشوراء ، وهكذا يجب أن تكون شعاراتنا في المجالس ، والمسيرات ، والمآتم الحسينية ، شعارات إحيائية ، وحماسية ، وليست شعارات مُخدِّرة ، ومُميتة للشعور .

لأنها إنْ كانت كذلك ، لن تصبح دون أجرٍ أو ثواب فحسب ، بل إنها تُبعدنا عن الحسين (ع) .

إنّ سكب الدمع على الحسين (ع) فيه أجرٌ وثواب كثير ، ولكن شرط أنّ نفهم الحسين كما هو ، وأن يدخل قلوبنا على حقيقته . « إنّ للحسين محبةً مكنونةً في قلوب المؤمنين » ذلك أنّ الحسين تجسيد حي للإيمان .

إنّ الشعارات التي كان يرفعها أصحاب أبي عبد الله في يوم عاشوراء كانت بالفعل شعارات عجيبة ! وواقعة كربلاء ، إنما توالت وقائعها بشكل تجعل الإنسان يتصور أنها إنما أُعدّت ، وأُخرجت إخراجاً ، لتبقىٰ خالدة أبد الدهر ، وهو أمرٌ عجيب ومُلفت للنظر ! فأحياناً كان أبو عبد الله الحسين (ع) يرفع شعاراً يُعرِّف فيه عن نفسه بقوله :

أنا الحُسين بن علي ... آليت أن لا أنثني
أحمي عيالات أبي ... أمضي على دين النبي[1]

وكانت شعاراته مختلفة ألحانها فهو عندما كان مثلاً يتوسط ميدان الحرب وحده، كان يرفع شعاراً طويلاً يقول فيه :

أنا ابن علي الطُهر ، من آل هاشم ... كفاني بهذا مفخراً حين أفخرُ[2]

في حين إنّه عندما كان يحمل على العدو مهاجماً تراهُ يُنشد :

---

(١) مقتل المقرم ص ٣٤٥ .

(٢) منتهى الآمال ج ١ ص ٢٨٢ .

الموت أولى من ركوب العار . . . . . .

أو :

أنا الحُسين بن علي . . . . .

إنّ الشجاعة ، وقوة القلب اللتان أبداهما الحسين (ع) في يوم عاشوراء ، أنست العالم كل الشجعان ، وهذا الكلام هو باعتراف العدو نفسه . يقول الراوي :

« والله ما رأيت مكسوراً قط ، قد قُتل أهل بيته ، وولدُهُ ، وأصحابُهُ ، اربط جاشاً منهُ » .

كان أبو عبد الله ، قد اختار نقطة وسطية قرب خيام آل البيت ، وجعلها قيادة أركان عملياته ، منها كانت انطلاقته ، وإليها عودته . لكن التواريخ كافة تقطع ، وتؤكّد أنّ ما من أحد يتجرأ أنْ يدخل معركة مواجهة مباشرةْ مع الحسين (ع) .

صحيح أنّ بعض الأنفار قد توجهوا لمبارزته عليه السلام ، في بداية المعركة ، إلاّ أنهم وقبل أنْ يصلوا إلى تلك النقطة ، كانت نهايتهم المحتومة هي الموت المؤكد ، ولذلك ترى عمر بن سعد ينتفض ويصيح قائلاً : لقِتال مَنْ تخرجون ؟! « إنّ نفس أبيه بين جنبيه » !!

نعم فهذا هو ابن علي بن أبي طالب ، وروح أبيه بين جنبيه .

وبسرعةٍ أُسدل الستار على معركة المواجهة ، لتبدأ معركة الجبناء ، والأنذال !

ثلاثون ألف نفر يُريدون الإجهاز على نفر واحد ، وذلك من بعيد ، وبواسطة النبال ، والسهام ، والحجارة !

لكنهم على الرغم من ذلك ، كانوا يفرون منه كما تفر الأغنام من الأسد ، عندما ينطلق نحوهم مؤثراً المواجهة المباشرة معهم، غير أنه عليه السلام، لم يكن

يُواصل الحملة ضدهم ، ويُلاحقهم في العُمق ، حتى لا يتعبد عن خيام آل البيت ، فغيرة الحسين (ع) لم تكن تسمح له أن يتعرّض حرمه للإهانة ، وهو على قيد الحياة .

فكلما كانوا يبتعدون ، ويفرون بعيداً ، كان يعودُ عليه السلام مُجدداً إلى تلك النقطة الوسطية ، التي جعلها مركز قيادة العمليات ، إنها النقطة التي كان يسمعه منها حرمه ، وإن كانوا لا يرونه ، حتى تطمئن زينب (ع) ، ومعها سُكينة ، والأطفال من آل البيت .

فحيث كان يقف كان يُنادي ، وهو في تلك الحالة ، من جفاف الفم واللسان : « لا حول ، ولا قوة ، إلا بالله العلي العظيم » . أي إنّ هذه القوة التي ترونها في الحُسين ليست من الحسين ، وما هي في الواقع إلاّ القوة الإلهية ، التي تُنفَخ في الحُسين .

إنه كان يرفع شعار التوحيد ، في نفس اللحظة التي كان يمنح فيها الطمأنينة ، لزينب ، وآل البيت ، بأنه لا زال على قيد الحياة ، لاسيما وأنّه كان قد أمرهم بعدم الخروج من الخيام ، ما دام هو على قيد الحياة .

يقول الراوي : إنّ الإمام وَدّع أهله ، وعياله مرتين . في المرة الأولى ودّعهم ، وانطلق نحو ساحة المواجهة ، وبينما هو قد أدرك شريعة الفرات ، وإذا بصوت يُناديه قائلاً : « يا حسين أتشرب الماء ؟ والعدو قد حمل على حرمك في الخيام »! فما كان منه عليه السلام ، إلاّ أن ترك الشريعة مُسرعاً نحو الخيام ، فاطمأنّ عليهم ، وكما يقول الراوي : « ثم وَدّع أهل بيته ثانياً » . وهو يُردد تلك العبارات النورانية قائلاً : « أهل بيتي . . . استعدوا للبلاء . . واعلموا أنّ الله حافظكم ، ومنجيكم من شر الأعداء ، ومُعذّب أعاديكم بأنواع البلاء » .

نعم فهو يُريد القول لأهل بيته بأنكم ستُأسرون ، ولكنكم لن تُذلوا أبداً ، فأسركم سيكون مظهراً من مظاهر العزة ، كذلك .

ولذا نرى زينب ترفض أخذ الصدقات ممن كانوا يُريدون توزيع الخبز ، والطعام على الأطفال الأسرى ، فصحيح أنّهم دخلوا الكوفة في قافلة الأسرى ،

لأنّهم حافظوا على العزة ، والكرامة ، التي بشّرهم بها سيدهم ، وقائدهم ، أبو عبد الله الحسين (ع) .

فالأسدُ قد يوضع في الأسر يوماً ، لكنه يبقى أسداً ، والثّعلب وإن كان حُراً طليقاً لكنه يظل ثعلباً .

نعم فقد ودّع الإمام أهل بيته للمّرة الثانية بتلك الخطبة ، وانطلق نحو ميدان الوغى ، ولكن سرعان ما سمع أهل البيت صهيل الفرس ، يقترب من الخيام ، إنّه صهيل جواد الحسين ، فظنّ أهل البيت أنّ الحسين (ع) قد عاد إليهم ليودعهم ثالثاً [صوت بكاء الأستاذ] .

لكنهم عندما خرجوا لاستقباله ، لم يروا سوى فرس أبي عبد الله دون صاحبه [صوت بكاء الأستاذ أعلى من ذي قبل] ، فتجمع الأهل ، وأحاطوا بالجواد من كل جانب ، وصار كل واحدٍ منهم يُحدّث الجواد بكلمات معينة .

وأمّا ابن الحُسين الصغير فقد قال للجواد : يا جواد أبي ! « هل سُقي أبي أمْ قُتِل عطشاناً » . [صوت بكاء الأستاذ] .

وفي هذه اللحظة ، يقع مشهد يحرق القلب المقدس ، للإمام صاحب الزمان ، يقول الراوي :

« وأسرع فرسُكَ شارداً ، مُحمحماً ، باكياً ، فلما رأت النساء جوادَكَ مخزيّاً ، وأبصَرْنَ سرجكَ ملوّياً ، خرجن من الخدور ، ناشرات الشعور ، على الخدود لاطمات »[1] إنّها كلمات من مأتم صاحب الزمان بشأن أبي عبد الله عليهما السلام .

سيّدي أبا عبد الله فأهل بيتك لم يخرجن من الخيام عملاً بتعليماتك ، إلاّ بعد أنْ رأين جوادَكَ من دون صاحب . [صوت بكاء الأستاذ] .

ولا حول ، ولا قوة ، إلاّ بالله العلي العظيم ، وصلّ الله على محمد ، وآله الطاهرين .

---

(١) بحار الأنوار ج ١٠١ ص ٢٤٠ .

نسألك اللهم ،وندعوك باسمك العظيم الأعظم ، الأعزّ الأجل الأكرم ، يا الله . . . . اللهم ارزقنا توفيق الطاعة ، وبُعد المعصية ، وصدق النية ، وعرفان الحُرمة ، وأكرِمنا بالهُدىٰ والاستقامة ، وسدِّد ألسنتنا بالصواب والحكمة ، واملأ قلوبنا بالعلم والمعرفة .

اللهم ! اجعل منّا حسينيين حقيقيين ، وعرّفنا بروح النهضة الحسينية ، واجعل أشعة تلك الروح الحسينية المقدّسة ، تنفذ إلى أعماق قلوبنا ، وأحينا بالروح الحسينية .

اللهم نوّر قلوبنا بنور معرفتك ، واجعل من قلوبنا موضع محبتك .

اللهم اجعلنا من جماعة نبيّك الحقيقيين ، ولا تحرمنا من رحمة الولاية الحقيقية لعلي أمير المؤمنين ، وأولاده الأئمة الطاهرين ، وارزقنا رضا الإمام صاحب العصر ، وعجّل في فرج مولانا الحجة صاحب الزمان .



القسم السادس

تحليل واقعة عاشوراء

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله ربّ العالمين ، باريء الخلائق أجمعين ، والصلاة والسلام على عبد الله ، ورسوله ، وحبيبه ، وصفيّه ، وحافظ سره ، ومُبلغ رسالاته ، سيدنا ونبينا ومولانا ، أبي القاسم محمد ، وعلى آله الطيبين ، الطاهرين ، المعصومين » .

إنّ واقعة عاشوراء ، كغيرها من كثير من وقائع هذا العالم التي لا يتسنى للمرء أن يُدركها على حقيقتها في زمانها ، بل إن فلاسفة التاريخ يعتقدون أنه ليس هناك أية حادثة تاريخية يُمكن تقيمها بكل دقة ، ومعرفة حقيقتها تمام المعرفة في زمانها .

إذ لا بد من مرور فترة طويلة ، على وقوع الحدث ، وبروز ردود الفعل كافة ، والتعليقات المتعلقة به ، حتىٰ يصبح بالإمكان معرفة حقيقة ذلك الحدث بشكل أفضل .

والأمر نفسه ينطبق أيضاً ، ويصدق على الشخصيات التاريخية ، فالشخصيات التاريخية نادراً ما تراها تحوز على التقدير المناسب لها ، وهي على قيد الحياة ، بل إنّ قيمتها غالباً ما يتم اكتشافها شيئاً فشيئاً بعد مماتها ، وتظهر القيمة الحقيقية لعظمتها تدريجياً وبعد مرور عشرات السنين على رحيلها .

والأشخاص البارزون في زمان حياتهم ، غالباً ما يتم نسيانهم بعد موتهم ، في حين إنّ كثيرين ممن لم يكونوا معروفين في حياتهم ، تراهم تأخذ شهرتهم ، وشخصيتهم بالصعود بعد مماتهم ، ويُعرفون على حقيقتهم ، أفضل مما كانوا يُعرفون قبل موتهم .

فقد يكون هناك مثلاً عالمان ، يعيشان في عصر واحد ، أحدهما أهم من الآخر ، وأجلُّ من حيث الشهرة العلمية ، بعشر مرات ، ولكن التاريخ يكشف فيها بعد ، ويُظهر أنَّ الذي كان يقلُّ شهرةً عن الآخر بعشر مرات ، هو الأجلّ والأرفع .

ولديّ في هذا المجال أمثلة من التاريخ ، كثيرة ، يمكن الحديث عنها . وخير مثال على ذلك ما يقوله علي (ع) عن نفسه في هذا المضمار .

ففي الحديث عن مولانا علي (ع) (في نهج البلاغة) ، وهو على فراش الموت ، أي في المدة الفاصلة بين الضربة ، والممات ، وهو من التعابير العجيبة جداً ، أنه قال : « غداً ترون أيامي ، ويكشف لكم عن سرائري »[1] ، أيّ إنكم لم تعرفوني في حياتي ، وستكشف لكم الأيام من أنا ، وماذا خفي من شخصيتي .

وهذا ما حصل بالفعل ! فالناس الذين جاؤوا بعد وفاة علي (ع) ، عرفوا علياً أفضل ممن عرفوه أيام حياته ، فمنْ عرف علياً على حقيقته في عصره وزمانه ؟ إنهم قلائل أولئك الذين عرفوه حق المعرفة ، وربما لم يتجاوز عدد أصابع اليدين .

يقول النبي محمد (ص) وهو يتحدث عن قيمة حديثه ، وكلامه في حجة الوداع ، (لاحظوا عظمة تلك الكلمات): نَضّر (نَضّرَ) الله عبداً ، سمع مقالتي فوعاها ، وبلّغها من لم يسمعها ، فرُبَّ حامل فقه غير فقيه ، ورُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه »[2] .

ومعنى الكلام هنا إنه عليكم بحفظ كلامي وحديثي ، وإبلاغه إلى الآخرين ، لأنكم قد لا تُدركون عمق ما أقول ، ولكن قد يُدركه ذلك الذي

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٤٧ .

(٢) أمالي الشيخ المفيد المجلس ٢٣ ص ١٨٦ .

تنقلونه إليه ، ويكون دوركم بمثابة الرسـول ، ثم إنكم قد تكـونون من المُدركين لقولي ، إلاّ أنَّ الذي تنقلون الكلام إليه يكون أكثر منكم فهماً وأعمقُ .

والهدف هو أنّ المطلوب حمل حـديثي ونقله إلى الآخرين ، عبر الأجيال لعلهم يفقهون قولي بشكل أعمق ، وأفضـل على مر الأيام .

فعلي (ع) يقول : إنَّ المستقبل سيعرفُ من هـو علي بن أبي طـالب ، أفضل من الزمن الحاضر ، والنبي (ص) قال كذلك : إنّ الناس في الأجيـال القادمـة ، ستدرك مقالتي أفضل من إدراك أهل زماني لها .

وهذا هو معنى أن قيمة الوقائع، لا يمكن تقييمها في زمان حدوثها، وإدراك أهميتها الحقيقية في عصر بـروزها ، بـل لا بد من مـرور الزمن عليهـا ، والمستقبل هوالكفيل بتقييم عمل الإنسان أو أثر من الآثار العلمية له .

العـلامـة (إقبـال الـلاهـوري) [وهـو الشـاعـر والفيلـسوف الإسـلامي المعروف] ، له بيت شعر شهير في هذا الخصوص ، يشبه إلى حد بعيد كلام الإمام علي (ع) الذي يقول فيه « غداً تعرفونني » (وهو القول الذي قاله الإمام ، وهو على وشك الرحيل من هذه الدنيا) ، يقول ما معناه :

« رُبَّ شاعر يولدُ بعد موته » ، وهنا يُريد (إقبال) بالشاعر : ليس كل من نظم بيتين من الشعر ، بل ذلك الشاعر المسؤول ، الذي يحمل رسالةً إلى البشرية مثـل (محمد إقبـال) نفسـه ، أو مـولـوي ، أو حـافظ ، وهم شعـراء الكلمـة ، والرسالة الإنسانية حيث إنّ الناس لم تُدرك رسالتهم بَعدُ بالرغم من مرور أكثر من خمسمئة عام على رحيلهم .

وليس حافظ إلاّ مثلاً حياً على ما نقول ، إذ تـرى النُقّاد يكتبـون عنه بـألف نوع ونوع من أشكال التحليل ، والتعبير ، من دون أن يكتشفوا أو يُدركوا رسالته الحقيقيـة . نعم فما أكـثر أولئك الشعـراء الذين يـولـدون بعـد موتهم ، وكثـير من العلماء والمفكرين الذين يولدون بعد موتهم !

« جـبران خليل جبران » ذلـك الكـاتب العـربي من الـطراز الأول ، وهـو اللبناني المولـد ، لكنـه أمريكي النشـأة ، والثقـافـة ، والتعليم ، ومن العـرب

المسيحيين الذين كتبوا بالعربية ، والإنجليزية ، وقد ذاع صيته كفنان ، وصاحب قلم بديع ، هذا الكاتب العبقري ، وبالرغم من مسيحيته ، فهو من عُشّاق علي بن أبي طالب (ع) .

والحقُّ يُقال إنّ هناك الكثيرين من عُشّاق علي في صفوف المسيحيين العرب ، وميخائيل نعمية واحد منهم ، وهناك جورج جرداق صاحب كتاب « علي بن أبي طالب صوت العدالة الإنسانية » الذي ظهر في مجلّد واحد ، ثم راجعه المؤلف وأضاف عليه حتىٰ طبع في ستة مجلدات ، وهو من أفضل الكتب التي كتبت في حق أمير المؤمنين (ع) .

وفي هذا المجال يقول جبران خليل جبران :

لا أدري ما هو السر في ظهور البعض في زمان قبل زمانهم ، وعلي من أولئك الأشخاص الذين ولدوا قبل زمانهم .

وجبران هنا يُريد القول بأنّ علياً إنما كان سابقاً لزمانه بكثير ، فالعصر الذي عاش فيه علي لم يكن عصر علي لكن الحقيقة هي ما قاله علي (ع) نفسه في هذا المضمار ، وهو أنّ مثل هؤلاء الأفراد وفي أي عصر ولدوا ، فإنهم لعصرهم سابقون .

فعلي (ع) حتى وإنْ ولد لمثل هذا العصر ، فإنه سيكون سابقاً لعصره : أي إنّ العظماء أمثال علي في أيّ عصر ولدوا ، لا يمكن لذلك العصر أن يسع عظمتهم ، ويُدرِكْ سر تفوقهم ، ويُعرفهم حق المعرفة .

فلا بد من مضي الوقت الكافي ، والزمن ، والمدة المديدة ، على رحيلهم ، حتىٰ يصبح بالإمكان إعادة تقييمهم من جديد ، أو كما يُصطلح عليه اليوم ، حتى يولدوا من جديد .

لقد قلنا إنّ هناك الكثير من الأمثلة في هذا المجال ، وعلى كل المستويات ، فهذا حافظ ـ الشاعر الإيراني الشهير ـ الذي سبق أنْ ذكرته لكم ، هل تتصورون أنّه قد عُرف في عصره ، وأخذ كل هذه الشهرة التي لديه الآن ؟ أبداً ليس كذلك .

ففي عصره ، لم يتقدم حتى أحد لجمع ديوانه ، وهو نفسه أيضا ، وبسبب التوجه العرفاني الخاص ، الذي كان يطبع شخصيته ، وبالرغم من إلحاح البعض عليه في جمع ديوان شعره ، فإنه لم يكن يرغب في ذلك .

إنّ (حافظ) رجل عالم قبل أن يكون شاعراً، ولهذا فهو يختلف عن (سعدي) أو (فردوسي) ، فهذان الرجلان من رجالات الشعر ، وقد نظم كل واحد منهما ما يقارب الثلاثين أو الأربعين ألف بيت من الشعر مثلاً .

لكن حافظ لم يكن يمتهن الشعر ، بقدر ما كان رجل علم ، وتدريس ، وتحقيق ، ورفيقه الذي جمع شعره في ديوان حافظ المعروف ، ذكر الكتب التي كان يُدرسها حافظ لتلاميذه ، لقد كان حافظ من حفّاظ القرآن ، ومفسّريه ، وكانت هذه هي صفته الأساسية ، وقد ورد ذكرها في بعض أبيات شعره .

وهو لم يكن يكتفي بقراءته للقرآن ، وتفسيره له ، بل كان يحفظ القرآن ، ويجتهد في قراءته بالطرق المختلفة للقراءة ، والتجويد ، كقراءة عاصم ، والكسائي ، وغيرهم . . .

العالم الجليل « ملاّ صدر الشيرازي » الذي تلوح في الأفق اليوم ، بعض مظاهر المعرفة ، والاكتشاف لشخصيته ، وذلك بعد مرور أكثر من ثلاثمئة عام على وفاته [توفي في العام (١٠٥٠) هجري] ، لم يكن حتىٰ معترفاً به قبل حوالي المئة وخمسين عاماً في الحوزات العلمية ، ولم يكن أحد يدرسُ كتاباته ، سوى بعض التلاميذ المعدودين ، إلى أن ظهر بعض الحكماء والفلاسفة ، وأخذوا يُعيدون تقييم أفكاره ، ويكتشفون حجم عظمته ، شيئاً فشيئاً حتىٰ تقدم على ابن سينا وغيره .

في حين أنّ العالم الغربي مثلاً ، لا يزال حتىٰ اليوم ، في بداية الطريق لجهة اكتشاف كُنه هذا الفيلسوف العظيم .

وهذا كله يعني : إنّ العظماء من الناس ، لا يتم اكتشافهم في عصرهم الذي يعيشون فيه ، إذ نادراً ما تبرز إلى الوجود مظاهر عظمتهم ، وهم على قيد الحياة ، لكنه وبعد مُضي الوقت على رحيلهم ، ترى أنّه يأتي زمان يتم فيه

اكتشافهم ، مثل الكنز الذي يتم اكتشافه واستخراج من باطن الأرض .

المثال الآخر مثال « السيد جمال الدين » ، ففي هذا العالم اليوم ، لا يمر عليه أسبوع ، إلاّ ويُكتب فيه مقال ، حول شخصية السيد (جمال الدين أسد آبادي) ، والبلاد الإسلامية تفتخر كلها بالسيد جمال الدين .

فالإيرانيون يقولون بأنّه منهم ، والأفغان يقولون إنّه منهم ، والأتراك يقولون إنّه منهم ، لأنه مات في تركيا إلى أن انتصر الأفغان في النهاية ، حيث ذهبوا إلى تركيا وقاموا بنقل رُفاته من هُناك إلى بلادهم . هذا في الوقت الذي لم يكن فيه سيد جمال ينسب نفسه إلى إيران ، أو بلاد الأفغان ، أو الأتراك ، أو العرب (ولكن كما يبدو أنه كان من إيران) أو من مصر مثلاً ، أو لأي قطر آخر .

فالمصريون يفتخرون بالسيد جمال الدين ، ويقولونه إنه جاء إلى بلادنا ، ووجد فيها تربة صالحة لأفكاره ، وإنّ بعض علمائنا مثل (محمد عبده) قد انتسوا إلى حركته النهضوية، وإنّه استطاع أنْ يُشكل حزباً نهضوياً في بلادنا ، وإنّه إنما ذاع صيته من هناك ، وعليه فإننا نحن أحقُّ به من غيرنا .

ولكن السيد جمال هذا نفسه ، لم يكن يؤويه أحدٌ ، وحيثما كان يذهب ، كان يتم ترحيله : فعندما جاء إلى بلادنا إيران ، لا بد أنكم تعرفون قصة طرده وإبعاده بتلك الحالة المأساوية !

لقد ظل معتصماً ، ومتحصناً داخل الصحن الشريف ، حيث مدفن الشاه عبد العظيم ـ وهو شقيق الإمام الرضا (ع) ، المدفون في الري ، [جنوب العاصمة طهران] ، لكنهم ورغم أنّ العُرف لم يكن يسمح بذلك ، فإنهم اقتحموا الحضرة الشريفة ـ المزار ـ وأخرجوه بالقوة من هناك ، وأركبوه دابةً نقلته خارج الحدود الإيرانية ، في جو شتوي مُثلج ، وعبر الطرق الجبلية الوعرة ، من طريق غرب البلاد [همدان وكرمانشاه] .

وقد حصل كل هذا من دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة . بينما لا تجد أحداً اليوم ، إلا وهو يفتخر بأنّه قد قرأ مقالة للسيد جمال الدين .

إنّ السيد جمال الدين لم يتمّ اكتشاف شخصيته في حينه ، بالطبع كان هناك

عدد من المثقفين المصريين ، قد أحاطوا به ، وقدموا له الرعاية ، إلاّ أن الإنجليز سرعان ما قاموا بإبعاده ، ونفيه من مصر .

لقد أقام السيد كذلك في الهند ، وفي النجف ، بل إنه بدأ في الواقع وعاش حياته العلمية الأولى لمدة أربع سنوات في مدينة النجف ، وتتلمذ خلالها على يد كبار العلماء ، وتشرب الثقافة الإسلامية ، التي شكّلت العمود الأساس لفكره ونضاله [وهذه هي أهمية السيد جمال] .

لقد حضر في النجف دروس أستاذ الفقهاء الشيخ مرتضى الأنصاري المشهور بزهده ، وتقواه ، وعلمه ، وتحقيقه ، بالإضافة لكونه من رجالات الإسلام الكبار ، كما كان يحضر دروس الأخلاق ، والفلسفة ، والعرفان ، لدى رجل عظيم آخر ، هو الأخوند ملا حسينقلي الهمداني .

ولّما كان الوضع العام السائد آنذاك في محيط العراق ، هو محيط الدولة العثمانية ، فإنّه كان قد تعب منه ، وملّه كما أن أساتذته كانوا قد نصحوه بالهجرة ، بحثاً عن مكان يستطيع فيه تحقيق رغباته ، ونشر أفكاره .

إنّ أي نظرة متفحصةٍ إلى الماضي القريب، تستطيع التأكيد بأنّ النهضات كافة التي توالت وقائعها ، الواحدة بعد الأخرى ، في العالم الإسلامي ، إنما هي في الواقع نتيجة أتعاب هذا السيد . [ولا زلنا بعدُ في أول الطريق] ، أي إنّ البذور التي بذرها في حياته ، لم يثمر منها أي شيء في حياته ، لكنها أثمرت جميعاً بعد رحيله :

فالنهضة المصرية ، ونهضة الهند ، والنهضة المشروطة [الثورة الدستورية في إيران] ، وثورة التبغ ، كلها من ثمار جهود السيد جمال الدين ، كما أن الشيء الذي لم يُذكر ، ولم يُعط حقه حتى الساعة ، هو أن ثورة العراق من أجل الاستقلال ، والتي وقعت بعد الحركة الدستورية الإيرانية ، هي الأخرى من حصيلة جهود ذلك السيد العظيم .

ذلك أننا وبعد الفحص ، والتدقيق ، اكتشفنا أنّ القائمين على تلك النهضة ، كانوا من أصدقاء السيد جمال الدين .

ولهذا نقول إنّ الرجال العظام ، ومهما عرف من قدرهم ، فإنهم يبقون مجهولي الحال في عصرهم ، لكنهم سرعان ما يتم التعرف عليهم بعد رحيلهم ، أفضل من ذي قبل ، ويتم اكتشاف شخصيتهم الحقيقية أكثر فأكثر .

كذلك الأمر بالنسبة إلى الوقائع والأحداث التاريخية ، فأبعادها ، وجوانبها ، لا يمكن إدراكها جيداً ، وبدقةٍ ، إلاّ بعد مرور الزمان عليها ، وما أكثر الحوادث التي تمر عابرةً في زمان وقوعها ، إلاّ أنّ الأيام تكشف بالتدريج أبعاداً جديدة ، وجوانب أخرى مهمةً منها ، تظهر من خلالها عظمة تلك الواقعة التاريخية .

وواقعة عاشوراء هي من ذلك الصنف من الحوادث .

فقد يموت شخص ، ولا يُعرف حق المعرفة ، إلاّ بعد موته ، أو قد تُترك آثار عمل ما ، ولا يمكن إدراك قيمة ذلك الأثر ، إلاّ بعد مرور السنوات الطوال عليه .

وقد تقع حادثة اجتماعية معينة ، ولا يمكن معرفة الماهية الحقيقية ، وجوهر تلك الحادثة ، إلاّ بعد زمن طويل ، وفي بعض الحالات قد يطول الأمد ، ويتطلب الأمر أكثر من ألف عام ، حتىً يتم اكتشاف جوهر وماهية تلك الحادثة ، وحادثة عاشوراء هي من ذلك النوع من الحوادث .

هناك عبارة شهيرة للإمام الحسين (ع) كثيراً ما رددتها عن المنبر ، لكنني لم أكن قد فكرتُ كثيراً في معناها وعمقها حتىً الآن ، وهي العبارة التي وردت في وصية الإمام إلى أخيه محمد بن الحنفية ، وهو يُغادر المدينة المنورة ، التي لم يستطع مغادرتها ابن الحنفية ، بسبب الشلل الذي كان قد أقعده عن مشاركة شقيقه ، في قافلة العراق ، والوصية هنا لا تُعطي معنىً الوصية التقليدية التي نعرفها ، بل هي وصايا ، وتعليمات عامة ، أراد من خلالها الإمام شرح أهداف ثورته ، وتحركه ، حيث بدأها عليه السلام أولاً بالقول :

« إني لم أخرج أشِراً ، ولا بَطِراً ، ولا مُفسداً ، ولا ظالماً ، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي » .

نعم فهو يريد هنا دحض الاتهامات التي كان يعرف أنها ستوجه إليه بعد قيامه ، ثم يُضيف قائلاً : « أريد أن آمر بالمعروف ، وأنهى عن المنكر ، وأسيرُ بسيرة جدي وأبي » .

وهذه العبارة الثانية بحاجة إلى مزيد من التفصيل ، والبحث ، والمطالعة ، فهذه العبارة كان لها معنىً خاص في ذلك التاريخ ، فلماذا يؤكد الحسين(ع) ، وبعد أن يتحدث عن الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، بأنّه إنما أراد من قيامه أنْ يسير بسيرة جده وأبيه ؟

وهل كانت سيرة جده وأبيه غير سيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟!

والجواب هو نعم ، لم يكن يكفي القول الأول ، وكان لا بد له من التأكيد بالعبارة الثانية ، ولكن لا بد لي من العودة إلى ذلك التاريخ أولاً حتىٰ يمكن إدراك مفهوم تلك العبارة وأهميتها .

كلنا نعرف أنّ عمر عندما ضُرب ، وأحسّ أنّه راحل عن قريب، أقرّ بدعةً في الحكم ، عندما اتخذ طريقةً في تعيين الخليفة من بعده ، لم يعمل بها رسول الله (ص) ، ولا حتى الخليفة الأول أبو بكر !

أي إنه لم يعمل بالرأي الذي تقول به الشيعة ، والذي تؤيده مدارك السُّنَّة ، وأسانيدهم (حتى وإن لم يقبلوا بها عملياً) حيث تقول إنّ النبي (ص) إنما أوصى بالخلافة ، من بعده لعلي (ع) الذي سبق له أن عينه ، وعرّفه وصياً له ، على المسلمين من بعده .

ولا عمل بما يقول به أهل السُّنَّة اليوم حيث يقولون بأنّ النبي (ص) لم يُعيّن خليفةً له من بعده ، بل ترك الأمر للأمة تختار من تشاء خليفةً لها ، وذلك من خلال الشورى .

كما أنه لم يعمل بسيرة أبي بكر أيضاً ، الذي قام بتعيين عمر خليفةً على المسلمين من بعده .

وهذا يعني أنّ عمل أبي بكر لم يكن يتطابق مع رأي الشيعة ، ولا مع رأي



السنة ، فجاء عمر ليكون عمله غير مطابق لا لرأي الشيعة ، ولا لرأي السنة ، ولا لسيرة أبي بكر . إنه أقرّ بدعةً جديدةً ، عندما قام بانتخاب ستة أعضاء من اشهر صحابة النبي ، ليكوّنوا شورىٰ ، تنتخب الخليفة ، لكنها ليست تلك الشورىٰ المعروفة بالطريقة العادلة ، وإنما شورىٰ فوقية ، أي إنه اختار شورىٰ من أهل النخبة ،عيّنهم بنفسه ، وهم : علي عليه السلام (حين لا مناص ولا بد من انتخابه في مثل هذه الشورىٰ) ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ولم يكن أحد أشهر من هؤلاء في صحابة رسول الله (ص) .

ثم قال هو بنفسه ولمّا كان عدد أفراد هذه الشورى شفعاً (بينما يقتضي العُرف أن يكون عدد أفراد الشورى وتراً ، حتىٰ إذا ما حصل المرشح على (٥١٪) من الأراء يصبح فوزه مؤكداً) ، فإنه إذا ما تناصفت الأراء بين مُرشحين ، فإن الجهة التي سيكون فيها عثمان ستكون هي الجهة الفائزة ! انظر البدعة الجديدة هنا ، فإذا كان الأمر شورى حقاً فما معنىٰ هذا الحكم المُسبق إذاً ؟!

إن تركيبة أعضاء الشورى إنما اختيرت بشكل حتىٰ تؤمن لعمر ما كان يُريده ، وهو انتخاب عثمان للخلافة ، ذلك أنّ علياً (ع) لم يكن بمقدوره الحصول على أربعة أصوات من أصل ستة ، بل إنّ أعلى نسبة متوقعة كانت ستكون ثلاثة أصوات ، والذين لا يمكن لعثمان أن يكون بينهم ، لأنه منافس علي على الخلافة ، وبالتالي فإنّ عثمان كان هو المنتصر في كل الحالات .

وعمر كان يعرف ذلك جيداً ، فحساباته كانت ترىٰ أنّ علياً إمّا كان سيحظىٰ بصوتين ـ صوته وصوت الزبير بن العوام (حيث كان الزبير يقف إلى جانب علي آنذاك) ، أو بثلاثة أصوات ، في أحسن الأحوال ، وذلك باحتمال ميل رأي عبد الرحمن بن عوف ، إلى جانب علي (ع) .

من هنا يمكن إدراك معنى خطبة علي (ع) الذي يقول فيها كما جاء في نهج

البلاغة : « فصغا رجلٌ منهم لضغنه ، ومالَ الآخر لِصهره »[1] .

وحصل بالفعل ما كان يتوقعه عمر ، حيث منح الزبير صوته لعلي ، بينما منح طلحة صوته لعثمان ، لكنِ سعداً وقف على الحياد ، في حين صار صوت عبد الرحمن بن عوف ، هو بيضة القبان ، فإلى أي طرف كان سَيُعطي صوته ، كان ذلك الطرف هو الذي سيخرج منتصراً ، لهذا أراد الظهور بمظهر المُحايد .

وهنا فعلت وصيّة عمر فعلها ، إذ كان قد أمر قبل موته بحبس جماعة الشورى ثلاثة أيام في حُجرةٍ ، لا يخرجون منها إلاّ متحدي الرأي ، كما أمر بتعيين عددٍ من الحُراس ، يقفون على باب الحُجرة ، ومعهم صلاحية قتل أفراد الشورى ، إذا ما فشلوا في الوصول إلى رأي نهائي .

إنه لأمر عجيب حقاً ! بعد مرور ثلاثة أيام على العملية كان الجميع في الخارج ، ينتظر بفارغ الصبر نتيجة الخلوة المذكورة ، وكانت هناك جماعتان تنتظران نتائج الخلوة بشوق خاص :

بنو أُمية كانوا يُريدونها لعثمان .

وبنو هاشم ، وصُلحاء صحابة النبي ، من أمثال أبي ذر ، وعمّار ، وهم كُثر ، كانوا يميلون إلى علي (ع) ، وكانوا في أشد الشوق لسماع النتيجة لصالح علي (ع) .

لكن الإمام سبق وأن قال لأصحابه على انفراد ، بأنه يعرف نتائج مثل هذه الحركة سلفاً ، لكنه لا يستطيع ولا ينبغي له التراجع والانسحاب من العملية ، حتى لا يقولوا بأنّه إنما هو الذي تخلّف عن الحكم ، وأنه في حال رغبته فيه ، لكان الرأي قد اتفق حوله !!

لكن الذي حصل هو الآتي :

---

(١) نهج البلاغة ، الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشقية .

فعبد الرحمن بن عوف جاء لعلي (ع) وقال لـه : يا علي ! هل تعاهدني لـو منحتك البيعة ، بأن تحكم بكتاب الله ، وسُنة النبي ، وسيرة الشيخين ؟

فانظروا ، واسمعوا هنا ماذا كان موقف علي (ع) ، وهـو أمام هـذا المنعطف التاريخي ، في مثل هذا المنعطف ، والمفترق التاريخي ، فإن أي واحد كـان سيقول له : يا علي ! إنّ الأمر لا يحتمل كثيراً ، والوقت هو وقت الإمساك بالخلافة ، فإما أن تكون لبني أمية ، وإمّا أن تكون لـك ، وما عليـك إلاّ أن تُطلق تلك الكـذبة البيضاء (من أجل المصلحة العامة) ، فتضـمن الخلافة .

لكن علياً قال : إنني أقبـل بكتاب الله ، وسنـة رسول الله ، والسيرة التي أختارها أنا ، وليـس سيرة الشيخين .

فـذهب بعد ذلـك عبد الرحمن بن عـوف إلى عثمان ، وطـرح عليه نفس السؤال ، فرد عليه عثمان بالإيجاب !

لقد تكررت العملية ثلاث مرات ، وكان عبد الرحمن بن عوف يعرف علياً جيداً ، ويعرف أن علياً ليس ذلك الرجل الذي يقول له شيئاً ، كـأن يقبل بسـيرة الشيخين بالقول ، ومن ثم يتراجع بعد ذلك أثناء التطبيق .

وعليه فإنّ علياً قد ضحىٰ بالخلافة ، من أجل الموقف ، وقد كان جوابـه في المرات الثلاث هو نفسه : العمل بكتاب الله وسنة رسول الله والسيرة التي أختارهـا أنا بنفسي : أي باجتهادي ، واستنباطي ، الأمر الذي دفع عبد الرحمن بن عوف أن يتأكد من أنّ علياً غير مستعد للعمل بسيرة الشيخين ، فبايع عثمان .

وهكذا صار عثمان خليفة ، لكن عثمان هذا أدار ظهره حتى لعبد الرحمن بن عوف نفسه ، الأمر الذي دفـع بعبد الرحمن نفسه أن يُبـدي انزعـاجاً شـديداً من عثمان في سنوات حكمه الأخيرة ، ويقول : لا أرضى بأن يُصلي على جنازتي رجلٌ كعثمان !!

قد يقول قائل : لماذا أجاب عـلي (ع) بتلك الطريقـة ؟ لقد كـان بإمكـانه القول بأنّه يبايع على العمل بكتاب الله وسُنة رسوله ولم يكن بحاجة إلى القول بـأنه سيعمل بسيرته هو ، وكان يكفي أن يرفض العمل بسيرة الشيخـين ، ويقول إننـا

تملك كتاب الله وسنة رسول الله ، ولا وجود لشيء ثالث .

لكن علياً قبل بشيء ثالث، غير أنه ليس الشكل الذي انتخبه الشيخان ، فالطريقة التي عمل بها الشيخان كانت طريقة خاطئة ، بينما الشكل والطريقة التي اختارها علي (ع) هي طريقة النبي (ص) وهي طريقة ومنهج القيادة .

إنّ الكتاب والسنّة هما القانون ، ولا شك في أنّ القائد الذي يُريد أن يحكم شعباً ، يؤمن بعقيدة ما ، لا بد له قبل كل شيء أن يلتزم ، ويتعهد بالعمل بتعاليم تلك العقيدة ، ويكنُّ لها أشد الاحترام .

وفي هذه الحالة لا بد من العودة إلى الكتاب والسنة ، حيث تم تبيان تلك التعاليم ، ولكن الكتاب والسنة كما ذكرنا هما القانون العام ، وبالتالي فإنه لا بد للحاكم من اختيار وانتخاب الطريقة المناسبة للتنفيذ والتطبيق ، والطريقة المتّبعة في التطبيق ، والمنهج الذي يتم اختياره للحركة ، وقيادة الناس ، على قاعدة الكتاب والسنة ، يُطلق عليها « سيرة » .

« سيرة » في اللغة ، وفي اصطلاح علماء الأدب ، تأتي على وزن (فِعلة) ، وهناك في اللغة العربية فرق بين « فَعْلَة » و« فِعْلَة » حيث جاء في ألفية ابن مالك :

وفَعْلَةٌ لِمَرَّةٍ كَجَلْسَة وفِعْلَةٌ لِهَيئةٍ كَجِلْسَة

وعندما تستخدم العرب وزن « فَعْلَة » فإنما يكون المقصود هو القيام بالعمل لمرة واحدة ، في حين أنّ استخدام وزن « فِعْلة » عند العرب يعني القيام بالعمل بنوع وشكل خاص : أي إنّ وزن «فِعلة» يحمل في داخله معنىً وشكلاً خاصاً وكلمة « سيرة » تأتي من مادة سير : والسير يعني الحركة ، وعليه فإنّ السيرة تعني الحركة بشكل خاص ، والحركة بطريقة معيّنة .

والقائد هو ذلك الشخص القادر على دفع الناس للحركة من ورائه . صحيح أنه قد يوجد أيضاً حاكم يحافظ على سكون الناس ، وبقائهم جامدين ، لكنه لا يُسمى عند ذلك قائداً .

والقادة كلهم يُحركون الأمم والشعوب ، غير أنّ شكل الحركة ، ونوعهـا ، وتكتيكها، يختلف من واحدٍ لآخر .

إنّ النبي الأكرم محمداً(ص) يحمل مناصب ومقامات عديدة ، من طرف الله سبحانه وتعالى : إنه رسول الله إلى البشرية ، وهو بذلك ليس أكثر من رسول يحمل الرسالة ، وينقلها من عند الله إلى العالمين ، فتنزل الآية القرآنية على قلبه ، وهو يتلوها بعد ذلك على الناس : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عليهم آياته ، ويزكّيهم ، ويعلّمهم .. ﴾[1] وبهذا يكون النبي رسولاً ، ومُبلغاً ، ومُعلماً ، فهو يقوم بإبلاغ تعاليم الله إلى الناس ، ويُعلّمهم ما لم يكونوا يعلمون .

وعندما يعتبر فقهاء الأمة ، ومبلغوها أنهم ورثة الأنبياء في هذا المقام ، وخلفاؤهم ، فإنهم إنما يقصدون من وراء ذلك هذا الجانب فقط .

فالفقيه يرى أنّ هناك أحكاماً نزلت على قلب النبي من عند الله تعالى ، ومن واجبي أنْ أفقهها جيداً حتى أنقلها ، وأُبلّغها للناس .

المقام الآخر ، والشأن الثاني ، الذي هو من الشؤون الإلهية ، أيضاً ، والتي يُعيّنها الله ، سبحانه وتعالى ، للنبي هو : ما يسمى بشأن القضاء .

فالناس لا بد وأن يحصل فيما بينهم أنواع الخلافات الحقوقية ، ولا بد أن تقع فيما بينهم أنواع المشاجرات ، والمشاحنات الجزائية ، والجنائية ، الأمر الذي يتطلب تدخل القضاء ، والحكمية الشرعية .

إذاً إلى جانب ضرورة القانون ، لا بد من وجود أفراد يحكمون بين الناس، ويفصلون ، ويقطعون ، بشأن كل هذه الاختلافات ، وهذا هو الشأن القضائي ، وهذا الشأن هو من أقدس الشؤون في الدين الإسلامي .

فمن وجهة النظر الإسلامية يتعين على من يتصدى لأمر القضاء ، أن يكون إضافةً إلى كونه فقيهاً ومجتهداً ، حاملاً لصفة العدالة الناجزة ، والقاطعة .

وإنه لمن الحُرمة الشديدة أن يتصدى امرؤ لأمر القضاء ، وهو يعرف أنه لا

---

(١) سورة الجمعة : الآية ٢ .

يحمل صلاحية ذلك المقام ، ليقول النبي والأئمة بهذا الصدد : إنّ القضاء مقام لا يتصدى إليه إلاّ وصيّ ، اي إمام ، أو من قد عيّنه الإمام[1] .

وهذا الشأن الهام أيضاً هو من شأن النبي (ص) ، فالنبي لم يكن مجرد رسول فقط ، بل إنّ الله تعالى قد منحه حق الفصل ، والحكم في قضايا الناس ، وخلافاتهم ، ومشاجراتهم ، على قاعدة الأصول والمبادىء القضائية : قال تعالى : ﴿ فلا وَرَبِّكَ لا يؤمنونَ حتى يُحكِّموكَ فيما شَجَرَ بينهُمْ ثُمّ لا يجدُوا في أنفسِهِم حَرَجاً مما قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسليماً ﴾[2] .

المهمة الثالثة الموكلة للنبي ، من قبل الله سبحانه وتعالى ، هي مهمة قيادة الأمة : فالنبي هو نبي في نفس الوقت الذي هو إمام ، والإمام ليس نبياً ، لكن النبي إمام أيضاً .

كثيرون هم أولئك الذين يتصورون أنّ النبوة منفصلة عن الإمامة ، ومعلوم أنّ الإمامة تعني القيادة ، والإمام يعني القائد ، والأنبياء عندما يكونون من أنبياء الله المتميزين ، فإنهم يحملون مهمة الإمامة إلى جانب مهمة النبوة .

في زمن النبي محمد (ص) كان علي (ع) موجوداً إلى جانب النبي ، لكن قيادة الأمة ، وإمامتها ، كانت بيد من ؟ إنها كانت بيد النبي الأكرم (ص) .

إنّ الله سبحانه وتعالى قد منح الإمام والقائد اختيارات ، وصلاحيات واسعة ، تتناسب مع مهمة القيادة ومسؤولياتها ، وأقول هنا بلا تشبيه [بالطبع الأمثال تُضرب ولا تُقاس] فكما أنّ رئيس الجمهورية في بعض البلدان يأخذ صلاحيات واسعة من الكونجرس ، فإن الله سبحانه وتعالى ، ومن أجل تسهيل أمر قيادة الأمة ، قد منح قائد الأمة سلسلة واسعة من الاختيارات والصلاحيات [ذلك أنّ تطبيق القانون ، والعمل به في أزمنة مختلفة ، ليس عملاً سهلاً يقوم به أي فرد كان] ، وبذلك تكون يد النبي محمد (ص) قد تُركت طليقة في أمر التعيينات الحكومية ، وما شابه من ترتيبات إدارية ، كأن يُعين حاكماً على (مكة)

---

(1) من لا يحضره الفقيه ج ٣ ص ٥ .

(2) سورة النساء : الآية ٦٥ .

بعد الفتح ، أو يُعيِّن أميراً لهذه الغزوة ، أو تلك ، ولا يحتاج الأمر في كل مرةٍ أن ينزل جبرئيل عليه السلام ، ليُعطيه الأوامر بشأن تعيين الأشخاص والمراتب الحكومية .

بل إن مجمل هذه الأمور تُعتبر جزءاً من الصلاحيات الواسعة ، التي تُترك فيها الأمر للقائد ، كي ينتخب ، ويختار الأنسب ، في كل مرة ، ولكن بالطبع شرط أن لا يخرج عن الإطار العام للقانون ، والشريعة[1] . والاختيارات الموضوعة هنا للقائد تشبه إلى حد ما التكتيك ، والفكروية (الاستراتيجية) وسُبل اتخاد قيادات الجيوش المناسب منها في كل مرحلة ، والمبادرات المتعلقة في كل حالة .

فمثلاً عندما كان الحلفاء يواجهون دول المحور في مصر [الإسكندرية والعلمين] ، وكان وقتها (أيزنهاور) هو قائد جيوش الحلفاء ، فإنه وعلى الرغم من وجود التعليمات العامة ، والأسس الكلية التي كان لا بد له من الالتزام بها ، لكن كثيراً من القضايا والأمور كانت تتعلق في نفس الوقت بشخصيته ، وقدرته الخاصة على المبادرة ، واتخاذ القرار المُناسب لكل حالة ، وهكذا كانت حالة الطرف الآخر من المتحاربين .

والآن لنُعد إلى سؤال عبد الرحمن بن عوف ، وجواب علي (ع) ، له ونرى معناهما في هذا المضمار ؟

فعبد الرحمن قال لعلي (ع) : إنك يجب أن تتعهد لنا بالعمل بكتاب الله ، وسنة رسول الله (وهما القانون كما ذكرنا) ، والعمل بسيرة الشيخين أي أن يكون نهج القيادة المقبول لديك ، هو نهج الشيخين !

ولو كان علي (ع) قد قبل بنهج الشيخين في القيادة ، فإنه كان عليه مثلاً أن يقول ما قاله عمر بشأن المُتعة (الزواج المؤقت) على سبيل المثال ، ويقضي بتحريم ما كان قد حلّله رسول الله (ص) ، أو أن يُغيّر من أسلوب تقسيم بيت

---

(١) للاستزادة من هذه الموضوعات والتعمق في هذا المجال يرجى العودة لكتابات الشهيد في حقل [الإمامة والقيادة] و[الولاء والولاية] .

المال الذي كان يتبعه النبي (ص) ، وهو التقسيم بالسوية ، وينهج نهج عمر .

نعم كان عليه في تلك الحالة أن يتعهد بأن يعمل تماماً كما كان يعمل عمر ، الأمر الذي كان يعني القبول بالبدع التي أقرها عمر من حيث إنه قائد وأنّ للقائد حق التصرف ، واستحداث الإجراءات اللازمة .

وهذا الأمر كان يعني حصر علي (ع) في إطار مفهوم القيادة الخاص بعمر وأبي بكر ، وهو ما لم يكن يقبل به علي على الإطلاق ، لأن ذلك كان يعني والعياذ بالله أن يتصرف كما تصرف عثمان ، ويأمر بتشكيل أجهزة خاصة به ، ثم يعمل ما يشاء ، ومن يخالفه من الناس ، أو الصحابة ، يُرسل إليه الأجهزة لتأديبه وتعنيفه .

ولمّا كان علي (ع) يُريد العمل على أساس كتاب الله ، وسنة النبي ، فإنه لم يكن بمقدوره القبول بنهج الشيخين ، ولذلك أجاب بوضوح ، بأنه لا يقبل العمل بأسلوب ونهج قيادة الشيخين ، وكانت هذه كافية لعدم حصول البيعة من عبد الرحمن بن عوف .

إذاً أصبح واضحاً الآن بأنّ مسألة نهج القيادة ، أمرٌ يختلف عن مسألة الكتاب والسنة ، فالكتاب والسُّنّة يعنيان القانون ، بينما نهج القيادة أمرٌ لا علاقة له بنص القانون ، بل بكيفية قيادة الناس ، ومنهج الحكم ، أي بالخيارات والصلاحيات التي يملكها القائد ، والقرارات المُناسبة التي تتبع تلك الخيارات .

بعد كل هذا يتضح لنا معنى عبارة الإمام الحسين (ع) التي وردت في وصيته عليه السلام إلى أخيه محمد بن الحنفية حيث يقول فيها :

« أُريد أن آمر بالمعروف ، وأنهى عن المنكر ، وأسير بسيرة جدي وأبي » .

ففي ذلك الزمان كانت هناك بالإضافة إلى مسألة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، قضية أخرى بارزة الظهور في عالم الإسلام ، الا وهي مسألة مرور (٥٠ عاماً) على رحلة النبي إذ كان الزمان هو العام الستين للهجرة ، وكان الرسول(ص) قد مات في السنة الحادية عشرة للهجرة ، وطوال هذه الأعوام الخمسين لم يحكم فيها أحد على سيرة النبي سوى علي بن أبي طالب (ع) ، حيث حكم بين

العام السادس والثلاثين ، والواحد والأربعين للهجرة ، مع العلم أنّ الإمام علياً (ع) نفسه لم يستطيع أن يطبق سنة رسول الله (ص) في الخلق بالتمام ، والكمال ، بسبب كثرة التغييرات والبدع التي كان قد أوجدها في المجتمع الإسلامي ، كل مِنْ أبي بكر وعمر وعثمان ، وعدم إطاعة كثير من أعوانه ، وخيانة البعض منهم ، وحيثما كان يُريد تطبيق سنة رسول الله (ص) ، كانت الناس تصيح واعمراه ! واعمراه ! وها هي سُنة عمر تصبح في مهب الريح .

ولّما أراد عزل شُريح القاضي عن ولاية الكوفة ، قاموا ضده أيضاً ، وقالوا له إنّ هذا الرجل يحكم ويقضي فينا منذ أكثر من عشرين عاماً ، أي منذ أن عينه عمر فكيف تُريد اليوم أن تعزله ؟!

وعلى هذا الأساس ، فإنّ مرور خمسين عاماً على أمة الإسلام وهم بعيدون عن أيام الرسول (ص) كان يعني أنه بالإضافة إلى وجود مسألة كتاب الله وسُنة رسوله ، كان هناك قضية أخرى ، هي قضية نهج القيادة ، الذي تغير ، وتبدل ، خلال تلك السنين العجاف .

وعليه فإن قول الإمام الحسين (ع) الذي يقول فيه : « أسيرُ بسيرة جدي وأبي » إنما يُريد من وراء ذلك القول بأنّه لا يُريد السير بسيرة أبي بكر ، ولا سيرة عمر ، ولا سيرة عثمان ، ولا سيرة أيّ أحدٍ آخر .

من هنا فإننا نرى في قضية عاشوراء ملامح وعلامات أُخرى ، تُضيف إلى قضية الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ومسألة امتناعه عن البيعة ليزيد ، ومسألة الاستجابة لدعوة أهل الكوفة ، مسألة أخرى هي مسألة إرادة الحسين ، ورغبته في إحياء سيرة جده وأبيه .

لا بد أنكم سمعتم بقضية إصرار المأمون على الإمام الرضا (ع) ليتسلم ولاية العهد ، لكنه عليه السلام كان يرفض دائماً ، إلى أن توسل الخليفة العباسي بالقوة ، فاضطر الإمام للقبول ، مع وضع شروط هي بمثابة الرفض العملي لتلك الولاية ، الأمر الذي ساهم في فضح المأمون أكثر فأكثر .

لقد كان الخلفاء يؤدون فريضة صلاة العيدين ـ الفطر والأضحى ـ على



امتداد سنوات طويلة ، وهي الصلوات التي كان يُصليها النبي محمد (ص) أيضاً ، ولكن شتّان بين تلك الصلوات ، وصلوات هؤلاء الخلفاء ! فالطريقة والشكل الذي كانت تؤدى به الصلاة ، قد اختلفت من زمنٍ لآخر [وهو مثال جيد حول قضية السيرة ، فأداء الصلاة بحد ذاته جزء من الكتاب والسُّنة ، ولكن طريقة الأداء تُعتبر أمراً من السيرة] .

ومن المعلوم أنّ قصور الخلفاء ـ العباسيين ـ كانت شيئاً فشيئاً ، قد تحوّلت وتبدّلت إلى قصور تشبه بلاط الساسانيين والرومان :

فقصر الخليفة العباسي كان عبارة عن بلاط فخم ، وملابس الخليفة وأمراء جيشه ، كانت مرصّعة بأنواع النياشين الذهبية ، والفضية ، وعندما كان الخليفة يتوجه إلى أداء الصلاة كان يتحرك بشكل قافلة مليئة بمظاهر الكبر ، والزخرفة ، يغلب عليها طابع القوافل السُّلطانية القديمة ، إذ كان السلطان يركب جواداً عُلّقت في رقبته قلادة ذهبية ، أو فضية ، وأما هو فيحمل سيفاً مُزيّناً بالذهب ، ويتبعه تشكيلة نظامية ضخمة من المرافقة ، تماماً كما لو أنهم في استعراض للقوة العسكرية ، كل هذه الاستعدادات من أجل أن يتوجه الخليفة إلى المصلى العام ليُصلي ركعتين من الصلاة ، ثم يعود من حيث أتى .

ولمّا طلب المأمون من الإمام الرضا (ع) أن يُصلي بالمسلمين في أحد أعياد الفطر ، أجابه الإمام : ألم نتفق على أن تكون ولاية العهد بالنسبة لي ولاية فخرية !

لكن المأمون أصر عليه ، وأحرجه عندما قال له : وهل تأبى الصلاة بالناس ؟! أو هل الصلاة عملٌ فيه ظلم للناس ، أو يرتبط بعمل حكومي حتى تُشكل علينا أننا أدخلناك في شؤون الحكومة ؟

ثم تمنىٰ عليه أن يقبل هذا الطلب ولو لمرةٍ واحدة .

وهنا يُبادر الرضا (ع) إلى القبول ، لكنه يشرط على المأمون شرطاً بقوله كلاماً يشبه كلام الإمام الحسين (ع) ، وكلام الإمام علي (ع) عند مناقشات بيعة الشورىٰ بعد عمر ، إذْ قال : إنني سأصلي بالناس نزولاً عند رغبتكم ، ولكنني

سأصلي على طريقة جدي وأبي ، وليس بطريقتكم .

ورغم مهارة المأمون ، وحنكته ، لكنه وافق على هذا الشرط ، وقبله من الإمام الرضا (ع) وقال : عظيم جداً ، المهم أن تُصلي بالناس ، ولك أن تُصلي بالسيرة والطريقة التي تشاء ، وهو بذلك أراد أن يُعطي الانطباع لجمهور العامة من الناس ، أنّ الإمام قد رضي أخيراً عن البلاط وأقرّ مشروعية الخلافة .

وعندما حان يوم العيد ، وحانت ساعة الانطلاق للصلاة ، طلب الإمام من أصحابه وحاشيته أن يلبسوا لباساً عادياً جداً ، ويخرجوا حُفاةً ، ويرفعوا أكمام عباءاتهم ، ويرددوا الذكر الذي سيقوم بترديده الإمام الرضا (ع) طوال المسيرة .

وقال لهم : لا بدّ أن تكون حالتنا العامة مطبوعة بالخشوع ، والتذلل إلى الله ، لأننا في حالة توجه إلى الله الواحد لا شريك له . [فالإمام رجل الحقيقة ، ورجل العبادة ، ورجل المعرفة الربّانية ، وسبق أن اشرتُ سابقاً إلى أنّ العبادة والعشق الإلهي ، من أهم أركان الإسلام على الإطلاق] ، وشدّ عليه السلام عمامته ، كما كان يشدّها النبي (ص) ، وأمسك بعصا شبيهة بالعصا التي كان يحملها النبي ، وانطلق حافي القدمين تُحيط به حالة من الخشوع ، والتذلل لله الواحد القهّار ، وانطلق من داخل منزله ، وهو ينادي بصوت عالٍ : « الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر على ما هدانا ، وله الشُكر على ما أولانا » .

وبالمناسبة ، فمنذ سنوت مديدة ، والناس لم تَعُد تسمع مثل هذا الذكر ، فقد اختفت مثل هذه المظاهر عنها منذ زمنٍ طويل ، وأمّا أصحابه وحاشيته عليه السلام ، فإنهم عندما رأوا صاحبهم ، وهو بهذه الحالة الربّانية ، وقد أحاطت به هالة سماوية عجيبة ، وهو يسيرُ بكل خشوع أمامهم والدمع يجري من مآقيه ، اكتسبوا على الفور معنويات عالية ، وتحرّكوا يسيرون خلف الإمام بكل خشوع وتذلّل لله ، وهم يبكون ، ويُنادون مُرددين من ورائه : « الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر على ما هدانا ، ولهُ الشكر على ما أولانا » . وخرج الجمعُ الرباني من منزل الرضا (ع) وهو يُردد هذا الذكر .

في هذه الأثناء كان المأمون بالطبع قد أصدر تعليماته إلى قادة الجيوش ،

وأمراء الوحدات العسكرية بالالتحاق بقافلة علي بن موسى الرضا (ع) ، من أجل أداء صلاة العيد خلفه ، وهؤلاء بدورهم كانوا قد أعدّوا أنفسهم مثل كل مرة ، للمشاركة بقافلة تشبه قافلة المأمون .

فقد ارتدوا أفخر الثياب ، وركبوا الجياد الممتازة ، وحملوا سيوفهم المذهّبة المُرصّعة بالزينة ، واصطفوا على الطريق أمام بيت الإمام الرضا (ع) ، ينتظرون خروجه بهالةٍ دنيوية ، وسُلطانية رفيعة المقام ، وإذا بهم يرون ذلك المنظر الربّاني ، والخشوع الكامل لقائد المسيرة ، الذي يُفترض بهم أن يُصلوا خلفه ، الأمر الذي هزّ مشاعرهم ، وانتشرت الهمهمة بين صفوفهم إلى أنْ بدأوا يُسارعون إلى النزول عن جيادهم ، ثم شرعوا على الفور بشق جزماتهم وأحذيتهم التي لم يتمكنوا من خلعها بسهولة ، وهم في تلك الحالة المرتبكة ، وانخرط الجمع كلهُ خلف الإمام الرضا (ع) ، وساد في الجو شعور عام بالخشية والخشوع والتذلل لله ، وهيمن على الجميع نداء الله أكبر حتى دوى في سماء (مرو) كلها ، وصار الناس يتدفقون من كل حدبٍ وصوب ، يرمون بأنفسهم عن أسطح المنازل ، ويتدافعون للحاق بقافلة صلاة العيد .

إذاً الناس ، كل الناس ، خرجوا من بيوتهم ، واكتسبوا معنويات عالية ، وصاروا يُرددون من وراء الإمام ، إذ كلما كان يُنادي الإمام الله أكبر ، كانت «مرو» كلها تُنادي خلفه الله أكبر. لكن هذا الأمر أخاف بعض الجواسيس مما دفع بهم أن يُسرعوا إلى المأمون، وينقلوا له ما يحصل داخل المدينة ، ويقولون له إن الأمر إذا ما استمر على هذا المنوال ، فإنك لن تستطيع أن تحكم بعد الآن .

نعم فحكومة السلطان أصبحت في خطر ، ولذلك أمر جُنده على الفور أن يتوجهوا بسرعة، ويعتذروا للإمام الرضا(ع)، ويطلبوا منه بإلحاح العودة عن قرار الصلاة ، وأنّ السُلطان الخليفة لم يكن يقصد إزعاجك ، وكان الله يُحب المُحسنين !

هذا هو معنى النهج والسيرة ، فالمأمون أيضاً كان يعمل بكتاب الله وسنة رسوله [إذ إنّ صلاة العيد جزء من كتاب الله] لكن هذه الصلاة كانت قد تبدّلت في زمانه ، واتخذت شكلاً ، وقالباً أفقدها روحها ، وحقيقتها .

ولذلك ترى الإمام الرضا (ع) يقول له : سأعمل بالناس ، ولكن بسيرة جدي وأبي وليس بسيرة جدك وأبيك !

في زمن الإمام الحسين (ع) أيضاً كان نهج القيادة قد تغيّر كثيراً عن زمان رسول الله (ص) وكان البون بين العصرين قد أصبح شاسعاً كالمسافة ما بين الأرض والسماء .

في البداية عندما ينحرف الخط الموازي عن الخط الآخر لا يكون الفرق واسعاً ، لكنه كلما امتد الخطان تصبح المسافة الفاصلة بعد مدة واسعة وبعيدة للغاية ، فأين هيئة مركز العالم الإسلامي وصورته في زمن النبي الأكرم ، بل وحتى عصر أبي بكر وعمر منه في زمن الخليفة عثمان .

فالمخالفة الكبرى التي ارتكبها خليفة المسلمين ليست في عدم العمل بكتاب الله وسنة رسوله ، بل في تغييره لنهج القيادة ، والخلاف بين أبي ذر ومعاوية أيضاً كان في نهج القيادة .

لقد تغيرت الحال في زمن الإمام الحسين (ع) كثيراً ، ويكفي أن يُفكّر أحد في رؤية خليفة المسلمين ، وهذا الأمر كان يُحسه ويدركه جيداً الشيوخ والمسنون ، ممن أدركوا النبي ، بل وحتى أولئك الذين أدركوا عمراً وأبا بكر فقط ، لا سيما أولئك الذين أدركوا خلافة علي (ع) .

فإنهم عندما يأتون إلى مركز العالم الإسلامي ، سيرون شاباً يناهز عمره الثلاثين عاماً ، تربّع على عرش الخلافة يقال إنه وسيم الوجه ، طويل القد ، ظهرت في وجهه بعض الحبوب ، وهو شاب شاعري المسلك ، ينظم شعر الغزل والوصف ، وأغلب أشعاره في وصف كلبه ، أو جواده ، أو القرد الذي يُلازمه في تحركاته ، ومن يحاول الوصول إليه لا بد له أن يمر عبر سبعة حواجز أمنية ، ولم يكتفِ (جلالته) بذلك ، بل إنه قد وضع حرسه ومرافقيه على كل باب وحاجز ، ليُفتشوا الزائر بكل دقة وتعقيد ، قبل أن يصل إلى ساحة مجلسه .

وماذا يرى في ذلك المجلس ؟ إنه سيرى شاباً مُستلقياً على عرش ذهبي ، مُحاطاً بكل أجواء الجلال ، والهيبة السلطانية ، وإلى جواره وضع لزائريه وحاشيته

عدد من الكراسي المرصعة بـالذهب والفضـة ، وعلى هـذه الكراسي يجلس زوار القصر والسلطان ، من الأعيان والأشراف ، وسفراء البلاد الأجنبية .

وفوق أولئك جميعاً ، وإلى جانب الخليفة تماماً، يجلس ذلك القرد المُدلَّل لصاحب الجلالة ، وقد ألبسه السُلطان أفخر اللباس المرصع بالذهب .

أتستطيعون أن تتصوروا الحالة ؟! شخص كهذا يقول : أنا خليفة النبي ، ويـريـد كذلك أن يُطبق التعاليم الإلهية ، فيُصلي بهم صـلاة الجمعة ، وهـو إمام جماعتهم ، وخطيبهم ، ومُبلِّغهم ، وصاحب الوعظ والإرشاد للمسلمين !!

وهنا بالـذات بإمكـان المرء أن يُـدرك أهمية النهضـة الحسينية ، وكم كـانت لازمة ومفيدة لعالم الإسلام ، وكيف أنها استطاعت أن تُمزِّق الحُجب والستائر ، وتوقظ بعض العقول الغارقة في سباتها العميق .

في ذلـك العصر والـزمـان لم تكن وسـائـل الاتصـال الجـماهـيري قـد اكتشفت بعد ، وبالتالي فإن أهل المدينة مثلاً لم يكونوا يعرفون شيئاً عن مجريات الأوضاع في الشام ، وحركة المواصلات ، أو رحلات السفر بين المدينتين كانت قليلة ونادرة أيضاً ، ومَنْ كان يُسافر أيضاً لم يكن بـاستطاعتـه أن يعرف شيئاً عن أوضاع القصر ، والخلافة في الشام .

بعد واقعة الإمـام الحسين (ع) ، سمـع أهل المـدينة بخـبر مقتل ابن نبيهم فتعجبوا للأمر فأرسلوا وفداً منهم للتحقيق والاستطلاع إلى الشام، ليستخبروا عن أسباب مقتل الإمام الحسين، ولدى عودة الوفد إلى المدينة سألهم أهلها عن حقيقة الأوضاع ؟ فقالوا يكفي أن نقول لكم إننا وطوال مكوثنا في الشام كنا نتوسل إلى الله أن لا يُمطر علينا حجارةً من السماء[1] ، ونقول لكم إننا جئناكم من عند حاكم فاسق ، شارب للخمر ، لاعب للقمار ، ولا هم له سوى ملاعبة الحيوانات والقرود ، والاستمتاع بآلات اللهو ، والموسيقى ، والغناء ، وارتكاب الزنى حتى مع المحارم ، وأنتم في حِلٍ من بيعته .

---

(١) إشارة إلى غضب السماء على ما كان يجري من خروج على الدين في الشام - المترجم -.

وهكذا قامت المدينة ، وانتفضت انتفاضتها الدموية المعروفة[1] وما أكثر الذين انتفضوا بعد واقعة كربلاء .

نعم « رُبَّ شاعر يولد بعد موته » ، نعم إن الإمام الحسين (ع) ظل يُردد على الدوام حتى آخر لحظة من حياته : « وعلى الإسلام السلام ، إذْ قد بُليت الأمةُ براعٍ مثل يزيد »[2] .

ولكن لم يكن يفهمه أحد آنذاك ، لكنه باستشهاده هزّ العالم الإسلامي هزاً عنيفاً ، إذ تحركت جماهير الأمة ، وصارت تُفتّش عن الحقيقة ، وتبحث عنها عن قُرب ، وعندها أدركت أنّ ما كان يخفى عليها ، وما لم تكن تستطيع رؤيته في المرآة ، كان يراه الإمام الحسين بنظره الثاقب ، وإن كان من وراء الحُجب والأستار ، وعندها فقط صدّقوا ما كان يقوله الحسين ، واقتنعوا به ، وصاروا يقولون إنّ الحق معه .

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين ، نسألك اللهم ، وندعوك باسمك العظيم الأعظم ، الأعز الأجل الأكرم يا الله . . .

اللهم نوّر قلوبنا بنور الإيمان ، وعرّفنا بمعارف دينك وحقائق الإسلام .

اللهم وفقنا لاتباع كتاب الله ، وسنة رسول الله .

اللهم وفقنا إلى أن يكون نهجنا ، وتكون سيرتنا هي سيرة النبي وسيرة آل علي .

اللهم اجعل نوايانا ، وقلوبنا ، وأرواحنا ، صافيةً وخالصةً لك يا الله ، وارزق المسلمين اليقظة بعنايتك ولطفك يا الله .

اللهم اغفر لأمواتنا بلطفك ومغفرتك ، رحم الله من قرأ الفاتحة مع الصلوات .

---

(١) واقعة الحرّة ـ المترجم ـ

(٢) مقتل المقرم ص ١٤٦ .

القسم السابع

جوهر النهضة الحسينية

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ إحدى القضايا التي لا بد من طرحها للبحث في إطار مناقشة نهضة الإمام الحسين (ع) هي قضية ماهية هذه النهضة ؟

ذلك أنّ النهضات ، مثلها مثل الظواهر الطبيعية ، يختلف بعضها عن بعض في الجوهر ، والماهية . فالأشياء والظواهر الطبيعية سواء منها المعادن ، أو النباتات ، أو الحيوانات بأنواعها ،لكل منها ماهية ووضع خاص ، والحالة نفسها تنطبق على الثورات والحركات الاجتماعية .

إنّ شيئاً نُريد التعرف عليه ، لا بد لنا من معرفة العلل أو البواعث الفاعلة له ، أو التوصل بالعلل الغائية (بالرغم من أن العالم اليوم لا يعترف بالعلل الغائية كثيراً) ، أو الرجوع إلى العلل المادية للشيء ، أي معرفة الأجزاء والعناصر المكوّنة لذلك الشيء ، أو وهو الاحتمال الرابع العودة إلى علله الصورية ، أي البحث في الوضع ، والشكل ، والخصوصية العامة ، التي تطبع هيكله العام ، وصورته الكلية .

فإذا أردنا التعرف على حركة ما ، واكتشاف جوهر تلك الحركة وماهيتها ، لا بد لنا في البداية من معرفة العلل والدوافع التي أدّت إلى وقوع تلك الحادثة (معرفة العلل الفاعلة أو السببية) .

ومن ثم معرفة العلل الغائية للحدث ، أي تشخيص الهدف الذي تسعى تلك النهضة إلى تحقيقه ، ولا بد من التساؤل أولاً عن وجود الهدف أساساً أو عدم وجوده ، فإنْ كان موجوداً ، فما هو نوع ذلك الهدف ؟

وثالثاً : لا بد من معرفة العناصر ، والمحتوى ، والمضمون ، الذي تتشكل منه تلك النهضة ، أي العمليات ، والنشاطات ، التي حصلت في سياق الحدث .

ورابعاً اكتشاف الشكل العام والصورة الكلية التي اتخذته الحركة في المجموع .

إنّ أحد الأسئلة المطروحة للبحث والمناقشة بخصوص النهضة الحسينية هو فيما إذا كانت هذه الثورة والحركة من نوع الحركات العفوية الانفجارية ؟ وهل هي نوع من أنواع التحرك الانفعالي وغير المحسوب ؟ كأن يتم إشعال النار القوية تحت قدر من الماء مثلاً إلى أن يبدأ الماء الذي في داخله في التبخر ، وعندما تُسد كل الثغرات التي من الممكن أن يخرج منها البخار ، يصبح الوضع قابلاً للانفجار في أية لحظة ، أو مثل حالة البعض من أفراد المجتمع الذين يمرون بظروف صعبة واستثنائية للغاية (سواء أكانت العوامل آنية ، أو نتيجة تراكمات زمنية بعيدة ، خلقت نفسية مليئة بالعقد والمعاناة) ، تجعلهم يفقدون أعصابهم فجأةً ، وينفجرون بالكلام والحديث عن كل شيء ،من دون أن يكون هناك أي تصميم أو إرادة مسبقة لديهم بالحديث والكلام .

هذا النوع من الانفعال يُقال له انفجار ، وكثير من الثورات والانتفاضات هي في الواقع نوع من أنواع الانفجار المخزون .

إنّ أحد الفروق الموجودة اليوم بين مدرسة الإسلام والمدارس المادية المّتبعة في العصر الراهن هي اعتماد هذه المناهج المادية على مبادىء الفلسفة الديالكتيكية الخاصة ، التي تُطالب جماعاتها بضرورة تشديد التناقضات الاجتماعية ، وخلق حالة من المعاناة الشديدة بين الناس ، وتعميق الخلافات بين الطبقات الاجتماعية ، أكثر فأكثر ، بل وحتى الوقوف بوجه الاصلاحات الوافعية

المطروحة ، من أجل الوصول بالمجتمع إلى حالة الثورة والانفجار المطلوبين (أي الثورة العفوية) .

إنّ الإسلام لا يؤيّد الثورة الانفجارية ، ولا يعتقد بها بأيّ قدر كان ، والثورة التي يدعو إليها الإسلام عبارة عن ثورة واعية تماماً ، أساسها التصميم ، والإرادة الواعية والاختيار الحر .

والآن كيف كانت ثورة الإمام الحسين (ع) ؟ هل كانت ثورة انفجارية ، أو ظاهرة انفجار ؟ أم كانت عملاً غير واعٍ ؟ وهل كانت حصيلة الضغوط المتزايدة التي توالت على الناس ، وعلى أصحاب الإمام ، منذ صعود معاوية إلى السلطة ، حتى مجيء عصر يزيد ، الأمر الذي أدى إلى فقدان الناس ، والإمام الحسين ، لصبرهم ، وانفجارهم بشكل عشوائي ، واندفاعهم للقيام مهما كانت النتائج ؟!

العياذُ بالله ! فأحاديث الإمام الحسين وخُطبه ـ ليس فقط تلك التي أوردها أثناء تحرّكه ، بل ومنذ اليوم الذي توفي فيه معاوية ـ إضافة إلى الرسائل المتبادلة بينه وبين معاوية ، والخطب التي ألقاها عليه السلام في المواقع المختلفة ، لا سيما تلك الخطبة الشهيرة التي ألقاها في منى ، وهو يُحدّث جمعاً من صحابة النبي ، والتي تروى عنه في « تحف العقول » وهي خطبة مفصلة وغرّاء ، كل ذلك يدل على أن هذه النهضة كانت نهضة واعية تماماً ، وهي ثورة بالفعل ، لكنها ليست انفجاراً ، نعم ثورة إسلامية وليست انفجاراً انفعالياً .

ومن جملة خصوصيات الإمام الحسين (ع) أنه كان لا يقبل أن يرى تحرك أصحابه فرداً فرداً ، يقوم بأي شكل من الأشكال على قاعدة الانفجار والانفعال ، لذلك تراه لم يترك فرصةً إلاّ واستغلّها ليعرض على أصحابه إمكانية التحرر من قيد البيعة ، إذ كان يواجههم دائماً بالأخطار المُحيطة بالتحرك ، وحتى الليلة الأخيرة وهي ليلة عاشوراء ، تراه يُحدثهم بلغة خاصة ، ورقيقة ، ويُكرّر عرضه عليهم بتحرير ذمتهم ، من قيد البيعة حيث يقول :

« أما بعد ، فإني لا أعلم أصحاباً أصلح مُنكم ، ولا أهل بيت أبرّ ، ولا أفضل من أهل بيتي ، فجزاكم الله جميعاً عني خيراً ، وهذا الليل قد غشيكم ، فاتخذوه جملاً ، وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي ، وتفرقوا في سواد

هذا الليل ، وذروني وهؤلاء القوم ، فإنهم لا يُريدون غيري » .

فلماذا يُحدثهم الإمام بهذه الطريقة ؟ فالقيادة التي تُريد استغلال عذابات الناس ومعاناتهم ، لا تُكلمهم بمثل هذا الكلام ، إذ كان بإمكانه أن يُحرجهم من خلال تذكيرهم بالتكليف الشرعي فقط .

بالطبع كان هناك تكليف شرعي مطلوب أن يتحمله الأصحاب والأهل ، والإمام بدوره لم يغفل هذا الجانب ، لكنه كان يُريدهم أن يقوموا بهذا التكليف والواجب الشرعي ، بمنتهى الحرية ، والمعرفة ، والوعي ، وإنه أراد أن يُذكّرهم بأنّ العدو لا يُحاصرهم ، وأنهم غير مجبرين على النزول إلى ساحة الميدان ، وأن الطُرق مفتوحة لمن يُريد استخدام الليل والظلام ستاراً لتركه ساحة الوغى ، وأن الصديق أيضاً لا يُجبرهم على البقاء ، ولو كانوا يفكرون بالبيعة فها هو يُحررهم من ذمتها ، وبكلام الإمام هذا لم يبق أمامهم في الواقع سوى الاختيار ، والاختيار الحُر .

كان عليهم إذاً أن يختاروا الإمام من دون أيّ إحساس بالإجبار ، سواء جاء من طرف العدو ، أو من طرف الصديق ، وأن يتم هذا الاختيار بمنتهى المعرفة والحرية .

وهذا هو الذي يمنح كل تلك الأهمية والقيمة لشهداء كربلاء ، وإلاّ فها هو طارق بن زياد يعبر مضيق جبل طارق ، أثناء حربه مع (إسبانيا) وبمجرد أن يعبر المضيق ، يأمر قادة جيشه أن يُتلفوا كل المواد الغذائية التي بين يديهم ، ولا يحتفظوا منها سوى بمقدار أربع وعشرين ساعة ، ويُغرقوا السفن المتوقفة على ساحل البحر ، ثم يتوجه بالخطاب لأصحابه ، وهو يُشير بيديه إلى البحر الواسع ، ويقول لهم :

أيها الناس ! العدو من أمامكم ، والبحر من ورائكم ، ولا خيار لكم إلاّ الحرب ، فإنْ تراجعتم غرقتم في البحر ، وإن تكاسلتم مُتم جوعاً ، وبالتالي فإن خياركم الوحيد ، وطريق خلاصكم ، هو في مهاجمة العدو ، والقضاء عليه ، وغذاؤكم في جبهة العدو ، وبين يديه ! !

أي إنه وضع الجُند كافة في الزاوية الحرجة ، فماذا عساه فاعلاً ذلك

الجندي ، إن لم يُقاتل العدو ، حتى آخر قطرة من دمه ؟

لكن الإمام الحسين لم يفعل بأصحابه كما فعل طارق بن زياد بجنده ، بل عاملهم عكس تلك المعاملة ، فهو لم يَقُلْ لهم أينما وليتم وجوهكم فأنتم مُحاصرون من قبل العدو ، ولا سبيل لكم للفرار ، وبالتالي أنتم مضطرون للقتال إلى جانبي ما دمتم ستُقتلون ، إلاّ أنّ شهادة من هذا النوع لن تكون نافعة ، وهذا الأسلوب هو أسلوب رجال السياسة والحكم ، بينما نهج الإمام يقول لهم : لا البحر من ورائكم ، ولا العدو من أمامكم ، وليس هناك أي إجبار ، لا من طرف الصديق ، ولا من جانب العدو ، في عملية الانتخاب ، والاختيار ، وأنتم أحرار فيما تنتخبون .

لا بد لنا إذاً أن نعرف بأنّ ثورة الإمام الحسين هي ثورة واعية ، كان يُدرك أهدافها جميع من اشترك فيها هو مع أهل بيته وأنصاره ، وليست انفجاراً عفوياً .

والثورة الواعية يمكن لها أن تحمل في طياتها ماهيّات مختلفة ومتعددة ، وفي الحقيقة فإن العوامل المؤثرة في تكوين النهضة الحسينية ، متعددة ، الأمر الذي جعل ثورة الحسين ثورة ذات أبعاد مختلفة ، وسمات متعددة ، وليست ثورة البعد الواحد .

إن أحد الفوارق الموجودة بين الظواهر الاجتماعية ، والظواهر الطبيعية ، كون الظاهرة الطبيعية ، لا يمكن لها أن تكون متعددة الماهيات ، بل لا بد لها أن تحمل ماهية واحدة ، فعنصر الفلز الواحد لا يمكن له مثلاً أن يحمل ماهية الذهب ، وماهية النحاس ، في آن واحد ، بينما الظواهر الاجتماعية يُمكن لها أن تحمل ماهيات متعددة في داخلها .

انظر إلى الإنسان نفسه ستجده أعجوبة ويمكن أن تلاحظ فيه هذا التعدد في الماهيات وما يقوله « سارتر » وآخرون من أنّ وجود الإنسان نفسه مُتقدّم على ماهيّته أمرٌ صحيح ، لا جدال فيه ، ولكن هذا الموضوع له تكملة لا بد منها ، وهي أنّ هذا الإنسان ـ الوحدة النموذجية ـ يمكن أن يحمل عدّة ماهيات في تكوينه ، فهو قد يحمل ماهية ملاك ، في نفس الوقت الذي يحمل فيه ماهية

خنزير ، إلى جانب ماهية نمر ، وقصة الإنسان قصة عظيمة في الثقافة ، والمعارف الإسلامية .

وعليه فالظاهرة الاجتماعية يمكن أن تكون متعددة الماهيات وثورة الإمام الحسين في الواقع واحدة من هذه الظاهرات الاجتماعية المتعددة الماهيات ، ذلك أنّ العوامل المؤثرة في نشوئها متعددة .

فقد تكون الثورة مثلاً ، ذات ماهية انفعالية ، أيّ أن تكون حركتها في سياق ردة فعل تجاه فعل معين ، وهنا قد يكون رد الفعل سلبياً ، وقد يكون رد الفعل إيجابياً ، وهذا الأمر يرتبط بالفعل الآخر .

وتكون الثورة ذات ماهية ابتدائية ، وكلّ هذه الماهيات موجودة بشكل أو بآخر في ثورة الحسين (ع) ، ولهذا نقول إنّ النهضة الحسينية نهضة متعددة الماهيات . فكيف ذلك ؟

إنّ أحد العوامل الذي يمكن اعتباره العامل الأول في القضية (من الناحية الزمنية) ، هو عامل طلب البيعة :

فالإمام الحسين (ع) في المدينة ، ومعاوية الذي كان يُريد أن يثبت ولاية العهد لابنه يزيد في الشام قبل أن يفاجئه الموت ، يأتي إلى المدينة ليأخذ البيعة لابنه من الحسين ، وإعطاء البيعة في هذه الحالة كانت تعني ليس فقط المصادقة على خلافة شخص يزيد ، بل كانت تعني أيضاً إضفاء المشروعية على السُنّة الجديدة التي سنها معاوية في عهده ، حيث صار الخليفة السابق يُعينّ الخليفة اللاحق . وهذا مُناف لفكر السُنّة ، الذين يقولون : بترك الأمر للناس حتى ينتخبوا الخليفة الجديد ، كما أنه مناف لفكر الشيعة ، الذين يقولون بالنص الموجود من قبل النبي الأكرم في تعيين علي (ع) خليفةً له من بعده .

وفي النهاية صار الخليفة يُعينّ ابنه ولياً للعهد ليخلف أباه في خلافة المُسلمين .

وعلى هذا الأساس كانت البيعة لا تعني المصادقة على خلافة رجل فاسد

مثل يزيد فحسب ، بل إضفاء المشروعية على السُنّة الجديدة التي أراد معاوية إرساء أسسها لأول مرة في عهده .

وفي مثل هذه الحالة نقول : إنهم طلبوا من الإمام الحسين البيعة ، وهذا يعني أنهم شرعوا بتقديم طلب البيعة أولاً ، فبادلهم الإمام الحسين (ع) برد فعل معاكس وكان سلبياً .

فرفض البيعة من قبل الحسين إذاً ،يُعتبر عملاً سلبياً ، وهو من سنخ التقوىٰ ، أي تماماً كما لو واجه أي إنسان في حياته عدداً من المُغريات المختلفة ، كمُغريات الشهوة ، والمقام ، أو غرائز الخوف والرعب ، لكنه يواجهها جميعاً بالنفي ، فيكون بذلك قد مارس التقوىٰ .

فأولئك القوم طالبوا الإمام بالبيعة فرد عليهم الإمام بالنفي ، فهددوه بالقتل ، فقال لهم :

إنني على استعداد لأن أُقتل لكني لن أُعطيكم هذه البيعة .

إلى هنا يمكن اعتبار ماهية النهضة عكسية،وذلك من خلال إبراز رد الفعل السلبي في مقابل المطلب غير المشروع ، وبتعبير آخر نقول إنها تأخذ طابع ماهية التقوىٰ ، وهي الماهية التي تقوم على القسم الأول من فلسفة : لا إله إلاّ الله . وهي لا إله ، وذلك في مقابل مطلب لا مشروع ، وعليه تكون كلمة (لا) هنا تُساوي التقوىٰ .

لكن هذا العامل لم يكن العامل الوحيد المؤثر في النهضة الحسينية ، فقد كان هناك عامل آخر أيضاً ، والذي أعطى بدوره ماهية عكسية للنهضة الحسينية ، لكنها هذه المرة ماهية عكسية إيجابية وليست سلبية .

بعد رحيل معاوية يبدأ أهل الكوفة الذين عايشوا ، ولمسوا ، قبل حوالي عشرين عاماً ، حكومة علي (ع) التي دامت أكثر من أربع سنوات ، والتي لا بد أنها قد تركت آثارها التربوية ، والتعليمية ، ولم تُمح آثارها تماماً (بالرغم من أن التصفيات كانت طوال عهد معاوية مستمرة ضد جماعة علي ، وأنصاره ، والتي

نـالت الوجهـاء من أهل الكـوفة ، أمثـال حجر بن عـدي الكندي ، وعمـرو بن الحمق الخُزاعي ، ورشيد الهَجري ، وميثم التمّار ، لكنهم على الرغم من ذلـك ، لم يتمكنوا من تفريغ هذه المدينة من فكر علي ، وحُب علي) .

نعم ينتبه أهل الكوفة إلى أنفسهم بعـد موت معـاوية ، ويشرعـون بتجميع قواهم ، ويقولون إن الفرصة صارت سانحة ، ولا بد من استثمارها ، ومنع يـزيد من استلام السلطة بعد أبيـه ، فنحن نملك الحسين بن عـلي ، وهو إمـامنا الحق ، ومـا علينا سوى إعداد أنفسنـا ، ودعوة الحسـين للمجيء إلى الكـوفـة ، ووعـده بالنُصرة ، وإذا لم نتمكن من استلام السلطة تمـاماً فـإن الحد الأدنى الممكن ، هـو تشكيل جبهة معارضة قوية ، قاعدتها الكوفـة ، تكون المقـدمة الأولى عـلى طريق العودة بالخلافة إلى النهج الصحيح ، وإحياء الخلافة الإسلامية .

إنّ الحالة هنا هي حالة دعوة موجهة من قبـل أناس يقـولون فيهـا إنهم على استعـداد لبذل الغـالي والنفيس من أجل إمـامهم ، ويُضيفون بـأنّ أشجارهم قـد بدأت تُعطي ثمارها ، والمقصود هنا طبعاً ليـس تصويراً لفصل الـربيع ، وأنّ كـل شيء كان على ما يُرام ، كما يتصور البعض ، بل إنّ المقصود أنّ مجتمع الكوفـة قد أثمر الزرع فيـه ، ذلك الزرع الذي زُرع منذ خـلافة عـلي ، وها هـو الآن مُستعدٌ لاستقبالك وتقديم النُصرة لك .

الكـوفـة في الـواقـع كـانت معسكـراً أُسّـس وبُني في زمن الخليفـة عمـر بن الخطاب ، وكانت المنطقة قبل ذلك يُطلق عليها اسم « الحيرة » ، وقد أشرف عـلى بنائها في حينه سعد بن أبي وقّـاص ، ثم بدأ الجنـد الذين كـانوا يُعسـكـرون هناك ببناء المسـاكن لهم ، حتى أصبحت مدينة الكوفة ، ولذلك يمكن اعتـبارها من ناحية معينة ، من أقوى مُدن العالم آنذاك ، إذا عرفنا مكانتها الأهلية ، والعسكرية .

إنّ أهل تلك المدينة يدعون الإمام الحسين للقدوم إليهم ، والداعون ليسوا بقلائل ، فقد وصل عدد الرسائل التي وصلت الحسـين حوالي ثـمانية عشر ألفـاً ، حيث وقّع على بعضها حوالي المئـة شخص ، الأمر الـذي يدفعنـا للتأكيـد على أن الذين دعوا الحُسين للقدوم إلى الكوفة ، ربما يبلغون المئة ألف شخص .

فما هو رد الفعل المتوقع من الإمام في مثل هذه الحالة ؟

فالحجة قد تمّت عليه ، ولا بد وأن يكون إيجابياً ، وماهية العمل لا بد أن تكون ماهية التعاون ، أي إنّ الحالة هنا تعبير عن قيام للمسلمين قد حصل وكل ما هو مطلوب أنْ ينهض الإمامِ لدعمهم ، وفي مثل هذه الحالة يصبح رد الفعل المتوقع من الإمام ليس منفياً وقائماً على ماهية التقوىٰ ، بل يصبح ذا ماهية إيجابية .

فالحاصل هو عمل وتحرك ، شرع به الأخرون ، والمطلوب من الإمام الحُسين أن يُلبي بإيجاب دعوة هؤلاء المتحركين . فما هي وظيفته وما هو تكليفه هنا ؟

في الحالة الأولى كان التكليف هو قول ـ لا ـ ففي مقابل البيعة التي أرادوها منه كان عليه واجب قول ـ لا ـ وبالتالي تطهير نفسه ، وعدم الولوج في متاهات السُلطان ، وكان بإمكان الإمام الحسين (ع) مثلاً أن يقوم بذلك التكليف ، من خلال قبوله اقتراح ابن عباس القاضي بالتوجه إلى جبال اليمن ، التي كانت كفيلةً بمنع عساكر يزيد من الوصول إليه ، وبالتالي التحلل من واجب البيعة ليزيد ، الذي كان يلحُ عليها .

نعم تلك البيعة التي كان يلاحقه يزيد للحصول عليها ، وانتزاعها منه ، بينما حسُّ التقوىٰ ، وواجب الإمامة ،كانا يفرضان عليه عدم إعطائها ، وهذا ما كان يتحقق بالتأكيد بواسطة القبول باقتراح ابن عباس ، والذهاب إلى جبال اليمن .

لكن القضية هنا هي قضية الدعوة الموجهة إليه من قبل أهل الكوفة ، وهي وظيفة جديدة حمّلهُ إيّاها مئة ألف مسلم من أهل الكوفة ، لرسلوا تواقيعهم إليه مثبتةً في ثمانية عشر ألف كتاب ، أي إنهم قد أتموا الحجة عليه .

لقد كان واضحاً منذ البداية أنّ الإمام الحسين (ع) لم يكن يرى الاستعداد في أهل الكوفة للثورة ، فهم أناسٌ مترددون ومرعوبون ، لكنه في الوقتّ نفسه كان مسؤولاً أمام التاريخ ، فلو أن الإمام لم يعر اهمية لدعوة أهل الكوفة له ، فقد كنا نحن الجالسين هنا نتساءل بالتأكيد عن سبب عدم تلبيته لدعوتهم .

لقد حصل انّ أبا سلمة الخلّال ، الذي كان يُطلق عليه وزير آل محمد في زمن الخلافة العباسية ، اختلف مع الخليفة العباسي ـ والذي لم يُمهله كثيراً حيث إنّه سرعان ما قتلهُ ـ فقام بكتابة رسالتين إحداهما إلى الإمام جعفر الصادق (ع) ، والأخرى إلى عبد الله المحض ، يدعوهما في آن واحد إلى التعاون معه ، للقضاء على الخليفة ، وأنه على استعداد لأن يتحول هو وأبو مسلم لصالحهما ، بعد أن كانا يعملان لصالح الخلافة العباسية .

ولكن أولاً : فقد كتب إلى طرفين مختلفين ، يدعوهما إلى التعاون معه ، مما يعني أنه لم يُخلص النية تماماً .

وثانياً : فإنه ما كتب هذه الرسائل إلاّ بعد أن ساءت الأحوال بينه وبين الخليفة العباسي ، فما كان من الإمام جعفر الصادق (ع) ، وبعد أن قرأ الرسالة إلاّ أن أحرقها في النار ، أمام عيني الرسول ، وإذ سأله الرسول عن جواب الرسالة ؟ قال له هذا هو الجواب .

وقبل أن يرجع الرسول كان الخليفة ، قد قتل أبا سلمة، ومع ذلك نجد اليوم الكثيرين من الناس يتساءلون عن سبب عدم تجاوب الإمام مع دعوة أبي سلمة ، في حين أنّ أبا سلمة لم يكن سوىٰ عنصر واحد ، ثم إنه لم يكن خالص النية مع الإمام .

وثالثاً : فقد كان إقدامه متأخراً جداً ، وهو ما أدركه الخليفة العباسي الذي عرف جيداً نوايا أبي سلمة ، وما أمهله ، بل سارع إلى قتله بأسرع ما يمكن .

فماذا كان يكون والحالة هذه لو أنّ ثمانية عشر ألف كتاب ، وصلت إلى الإمام الحسين (ع) ، في مكة والمدينة (لا سيما في مكة) ، ولم يكن الإمام قد أجابهم ، بل أهمل دعوتهم ، فهل كان التاريخ سيرحم الإمام الحسين (ع) ولا يلومه ؟

أم إنه كان سيُقال للحسين :

لو أنك أجبت دعوتهم ، وذهبت ، لكنت قد اجتثثت جذور يزيد واليزيديين .

وإنّ الكوفة التي كانت معسكر المسلمين ، والحاضنة للرجال الشجعان .

الكوفة التي حكمها وعاش فيها علي (ع) لسنوات خمس ، والتي لم تزل حافظةً لدروس علي ، ولم يزل اليتامى والأرامل الذين رعاهم علي ، وحماهم .

تلك المدينة التي كانت لا تزال تحملُ في أمواجها وسمائها ، صوت علي ، تركها الإمام الحسين وحدها تتلوى ، لأنه جَبُن وخاف ، ولم يجرؤ على الذهاب إليها ، وإجابة دعوة أهلها ، ولو أنه قد فعل لكان العالم الإسلامي اليوم يعيش الثورة .

لهذا فإن التكليف الشرعي كان يستوجب أن يَرُد الحسين على دعوة أهل الكوفة بالإيجاب ، ما داموا قد أعلنوا استعدادهم للنُصرة ، ودعوه للقدوم إليها .

إذاً ، كيف تعامل الإمام الحسين مع هذا التكليف ؟

استجاب لدعوة أهل الكوفة له ، وعقد العزم للتوجه نحو الكوفة ، وإذ بأهل الكوفة ينقضون البيعة مع مسلم !! فهل يرجع الحُسين من حيث أتىٰ ؟ ويذهب إلى المدينة ، أو أي مكان آخر في انتظار ما يحصل ؟

فمن زاوية هذا العامل ، كان عمل الحسين (ع) عبارة عن رد فعل إيجابي تجاه الدعوة الموجهة له ، أي إنّ التكليف كان يقضي بإعطاء جواب إيجابي ، ما دامت جماعة الدعوة ثابتة ومصممة على دعوتها .

أمّا في حال تراجعها فإنّ التكليف بالإجابة يسقط وهكذا كان .

والآن أي العاملين كان له الأسبقية في الحركة الحسينية؟ فهل امتنع الإمام الحسين عن مبايعة يزيد أولاً ، ومن ثم دعاه أهل الكوفة بسبب امتناعه عن البيعة ، أو لنقل إنّ الدعوة وصلته من الناحية الزمنية ، بعد مرور شهر على امتناعه عن المبايعة ؟ أم أنّ القضية كانت بالعكس ؟ أي إنّ الذي حصل أنّ أهل الكوفة قد دعوه أولاً ، ولمّا رأى الإمام الحسين أنّ دعوة أهل الكوفة قد وصلته ، وبالتالي فإنّ عليه الإجابة لهذه الدعوة ، ومن الطبيعي في هذه الحالة أن الذي يترشح لمثل تلك المهمة الكبرى ، لا يبقى عنده مجال ، ولا معنى لمبايعة الخليفة .

وعليه يكون عدم مبايعة الحسين ليزيد قد جاء نتيجة لإجابته دعوة أهل الكوفة له للقدوم إليهم !

فأيّ الحالتين هي التي تؤكدها الوقائع التاريخية ؟

إنّ التاريخ يؤكد صحة الأولى بالطبع .

والسبب هو أنّ المطالبة بالبيعة ليزيد ، قد حصلت منذ اليوم الأول الذي مات فيه معاوية ، بل إنّ معاوية كان قد ذهب بنفسه إلى المدينة من أجل تمهيد الطريق لخلافة ابنه من بعده ، وقد توسّل وقتها بمختلف الحيل حتىٰ يأخذ البيعة من الإمام الحسين ، وعدد آخر من وجهاء المدينة آنذاك ، إلّا أنهم جميعاً كانوا قد ردّوه رداً عنيفاً .

فمسألة المطالبة بالبيعة ، ورفض الحسين لها ، متقدمة زمنياً على دعوة أهل الكوفة ، ويزيد نفسه كما أسلفنا كان قد أرسل رسولاً مستعجلاً إلى المدينة حاملاً رسالة نبأ وفاة معاوية بيد ، ورسالة المطالبة بالبيعة في اليد الأخرى ، وسلمهما إلى والي المدينة طالباً منه العمل بكل ما أوتي من وسائل الحيل لأخذ البيعة من الحسين (ع) .

وكما جاء في الرسالة : « خُذ الحُسين بالبيعة أخذاً شديداً » .

والشيء نفسه حصل مع سائر الشخصيات الأخرى في المدينة ، هذا في الوقت الذي ربما لم يكن فيه أهل الكوفة قد سمعوا بموت معاوية بعد .

إضافة إلى ذلك فإنّ التاريخ يُسجّل لنا الوقائع على الشكل التالي :

مع موت معاوية تأتي المطالبة للحسين بالبيعة ، فيرفض الحسين ، وتتكرر المطالبة مرةً بالترغيب ، وأخرى بالترهيب ، وتستمر المماطلة عدة أيام ، إلى أن يُقرر الإمام الخروج من المدينة .

في السابع والعشرين من شهر رجب يُغادر الإمام الحسين المدينة المنورة ، ويصل مكة في الثالث من شهر شعبان .

بينما تصل كتب دعوة أهل الكوفة للإمام الحسين في الخامس عشر من شهر رمضان .

أي إنّ المدة الزمنيّ الفاصلة بين مطالبة الإمام الحسين بالبيعة ، ووصول كتب أهل الكوفة بين يديه ، بلغت شهراً ونصف الشهر ، وكان قد مضى في حينه أربعون يوماً ، على إقامة الإمام في مكة .

وعليه فإنّ المسألة لم تبدأ بدعوة أهل الكوفة للإمام ، ورد الإمام الإيجابي ، الأمر الذي جعل الإمام ملتزماً بإجابة الدعوة لأهل الكوفة ، وبالتالي كان من المفروض عليه الامتناع عن مبايعة يزيد ، بعد أن أعطىٰ كلمته لأهل الكوفة ، وصار مرشح الخلافة الكوفية .

كلاّ لم يكن الأمر كذلك ، فهو قد امتنع عن مبايعة يزيد حتىٰ قبل أن يطرق سمعه شيء من دعوة أهل الكوفة له ، وقد قال في حينه :

إنني لن أُبايع حتىٰ وإن تعسّر عليّ حصول أيّ ملجأ ، أو مأوىً ، في أقطار الأرض جميعاً .

أي إنه لو سُدت كل المنافذ والأبواب أمامي على طول الكرة الأرضية وعرضها ، لن أرضخ لهذه المبايعة .

العامل الثالث الذي بينه التاريخ لنا مثل العاملين السابقين هو عامل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وهو الشعار الذي تحرّك في إطاره الإمام الحسين(ع) منذ اليوم الأول ، وهو في المدينة المنورة :

فالقضية ليست قضية أنهم طالبوه بالبيعة ، ولمّا كان قد رفضها ، فعليه حصل التمرد ، وقامت الثورة ، بل إنهم حتىٰ لو لم يُطالبوه بالبيعة ، فإنه كان سيقوم ضد الحكم عملاً بالواجب الشرعي ، أداء فريضة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

والشيء نفسه ينطبق على مسألة الدعوة الكوفية ، فهو لم يقم وينتفض بسبب دعوة أهل الكوفة له ، بل إنّ قيامه ، وتحركه ، سبقا دعوة أهل الكوفة له بما يقرب من شهرين من الزمن .

فمنذ اليوم الأول لتحركه كان يقول عليه السلام بأنّ المنكرات قد شاعت على امتداد عالم الإسلام ، وآن لي أن أقوم بواجبي ، وتكليفي الشرعي ، والإلهي ، الذي يفرض عليّ القيام والثورة .

من هنا يمكن القول إنّ الإمام الحسين في سياق العامل الأول : يُعتبر في موقف دفاعي ، فهم يطلبون منه البيعة ، فيرد عليهم بالممانعة ، دفاعاً عن النفس .

وأما في سياق العامل الثاني : فالإمام الحسين يقف موقف المتعاون ، فهو مدعو للمشاركة والإسناد ، وهو يرد على من دعوه بالإيجاب .

وفي سياق العامل الثالث : يقف الإمام الحسين موقف المهاجم ، فهو الذي يُقرر التصدي لحكام الزمان ، وهنا يصبح الإمام رجل الثورة ، ورمز الثائر الذي يُعد للانتفاضة الثورية .

إنّ كل عامل من تلك العوامل ، كان في الواقع يُحمّل الإمام مسؤولية محددة وتكليفاً نوعياً مختلفاً ، وهذا هو ما قصدته بقولي إنّ النهضة الحسينية نهضة متعددة الماهيّات .

فمن زاوية عامل البيعة ليس للحسين تكليف أبعد من رفض البيعة ، ولو أنّه عمل باقتراح ابن عباس ، واختار جبال اليمن مكاناً للهجرة ، لكان قد عمل بذلك التكليف الإلهي من زاوية تطبيق الواجب الشرعي ، لكن الإمام لم يكن عنده واجب دعوة شخص آخر للتعاون معه ، بل إنّ المسألة تتلخص في مطالبتهم له بالبيعة ، والتكليف المقابل واضح لا لبس فيه وهو الرفض .

أمّا من ناحية دعوة أهل الكوفة ، فإن التكليف الشرعي كان يقتضي تلبية الدعوة ، ذلك أنّ الحجة هنا قد تمّت عليه .

قد يسأل أحدهم هنا : وماذا يعني إتمام الحجة التاريخية على الإمام ؟ وماذا سيكون مصير مفهوم الإمامة هنا ؟

والجواب هنا : إنّ الإمامة لا تلغي الواجب ، والتكليف الشرعي ، المُلقى

على عاتق الإمام ، كما أنها لا تتناقض مع مفهوم إتمام الحجة على الإمام .

فها هو الإمام علي(ع) في خطبته الشهيرة المعروفة بالشقشقية يقول: « لولا حُضور الحاضر ، وقيام الحُجّة بوجود الناصر ، وما أخذ الله على العُلماء ، أن لا يُقارُّوا على كِظَّةِ ظالِم ، ولا سَغَب مظلوم ، لألقيتُ حبلها على غاربها ، ولسقيتُ آخرها بكأس أوّلها »[1] .

الأمر نفسه ينطبق على الإمام الحسين ، ومضى الإمام نفسه يحمل مفهوم النموذج ، والمثل الأعلى ، والطليعة ، ونحن إذ نفهم وظائفنا ، وتكاليفنا ، إنما نفهمها في الواقع من خلال عمل الإمام ، وعمله هو الذي يجعلنا نُشخّص الوظائف والأحكام .

ومرة أخرى نقول : إنّ واجب الإمام تجاه الدعوة الكوفية ، هو التوجه نحو الكوفة ، ما دام أهل الكوفة متمسكين بدعوتهم وبيعتهم ، ولكن منذ اللحظة التي يتخاذلون فيها عن الدعوة وينقضون العهد ، أو يتراجعون عنه ، فإن الواجب المُحدّد تجاهها ، يسقط عن كاهل الإمام .

ففي اللحظة التي يتخلى فيها أهل الكوفة عن مطالبهم بالاستيلاء على السلطة ، والحكم ، لا يبقى هناك معنىً لتكليف الإمام تجاه الدعوة الكوفية .

لكن عمل الإمام الحسين وتحركه ، لم يكونا يقتصران على تلبية الدعوة الكوفية ، وعامل دعوة أهل الكوفة له ، لم يكن سوى عامل وقت ، أي إنه كان عاملاً متأخراً على قيامه ، ابتدأ منذ الخامس عشر من شهر رمضان ، وظل مستمراً من خلال الرسائل المتبادلة إلى أن اقترب الإمام من الحدود العراقية ـ السعودية .

وهو منذ أن التقى بالحُر بن يزيد الرياحي ، وتأكدت لديه أخبار مقتل مسلم ، وسائر أخبار الوضع الكوفي ، فإنّ موضوع الدعوة الكوفية أصبح منتفياً ، ولم يَعُد يفرض على الإمام أي واجب معيّن تجاهه .

ولهذا ترى الإمام بعدما تغيّر الحال لدى أهل الكوفة ، يوجه خطابه إليهم ،

---

(١) نهج البلاغة الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشقية .

وليس إلى يزيد وحكومته ، ويقول لهم والحديث إلى شيعة أهل الكوفة المترددين والضعفاء :

إنكم دعوتموني فأجبتكم ، ولبيت دعوتكم ، وإذا ترون أنكم ندمتم على دعوتكم ،فإني عائدٌ من حيث أتيت .

ولكن هل يعني هذا أنه أصبح مستعداً لمبايعة يزيد ؟ أبداً ، فهذا أمرٌ آخر ، وعامل آخر ، وكما يقول عليه السلام لو أنّ المنافذ كلها قد سُدَّت بوجهي ولم أجدُ مأوىً ، أو ملجأ لي ، في أقطار الأرض كافة لما بايعتُ يزيد .

ثم إنّ هناك عامل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، الذي ينبغي لنا أن لا ننساه والإمام الحسين هنا ليس مدافعاً ، ولا متعاوناً ، بل هو مهاجم ثائر وداعية للثورة ، وهذا حسابٌ آخر لا بد من أخذه بعين الاعتبار .

وأرى أنه لا بدّ هنا من الإشارة إلى أنّ أحد أخطاء مؤلف كتاب « الشهيد الخالد »[1] هو إيلاؤه لعامل دعوة أهل الكوفة أهمية فوق العادة ، وربما تصور أنه العامل الأساسي والأصلي للنهضة .

بالطبع كان هذا استنباطه واجتهاده الشخصي ، ومن الطبيعي أن تحصل أخطاء في حقل الاستنباط والاجتهاد .

وأقول إنه أخطأ ، ولا أُريد أن أزيد على ذلك شيئاً أكثر من نعته بالاجتهاد الخاطيء ، ولكنني أُشدد هنا بأنّ هذا العامل ـ عامل دعوة أهل الكوفة ـ لم يكن أساسياً أبداً ، بل بالعكس كان العامل الأقل أهمية في تأثيره على أصل التحرك الحسيني .

وإلّا لو كان الأمر غير ذلك ، فإنّ تبدُّل وضع الكوفيين ، كان كفيلاً بأنْ

---

(١) وهو كتاب يتناول ثورة الإمام الحسين(ع) لمؤلفه الشيخ نعمة الله نجف أبادي وهو الكتاب الذي أثيرت حوله ضجة كبيرة في وقته والكاتب يُعتبر من الباحثين الذين أثار بحثه المتعلق بثورة الحسين زوبعة كبيرة أيام حكم الشاه استغلها نظام الشاه في حينها لتفريق صفوف الوحدة بين المسلمين ولا سيما العلماء والروحانيون كما يقول الإمام الخميني ـ وهو على كل حال كتاب تقدمي للنظرة التقليدية المعروفة حول واقعة الطف ـ المترجم ـ .

يدفع الإمام للتخلي عن سائر أهدافه الأخرى ، ويتجه نحو المصالحة مع النظام ، ويوافق على المبايعة ، ويتخلى عن طرح موضوعة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

بينما تطورات القضية لاحقاً أثبتت العكس ، إذ إنّ أكثر خطب الإمام الحسين حماساً ، ولهيباً ، واشتعالاً ، هي خطبه التي جاءت بعد تراجع أهل الكوفة وانكسارهم .

وهنا بالذات يتبين كم كان الإمام الحُسين يعوّل على عامل الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وأنه هو الذي كان صاحب المبادرة في الهجوم والتمرد ، ضد الدولة والحكومة الفاسدة .

وفي سياق هذا العامل ، كان الإمام الحسين رجل الثورة ، والنضال ، والهجوم .

يقول الراوي : إنه وبينما كان عليه السلام في الطريق ، سائراً نحو الكوفة ، فإذا به يلتقي برجل من أهل الكوفة ، فيقف ليكلّمه لكنّ الرجل يعدل عن الطريق ، وبذلك يفهم الإمام بأنّه لا يريد الحديث معه فيتركه ويمضي .

ولكن في هذه الأثناء كان اثنان من أصحابه عليه السلام قد لحقا به مُسرعين من مكة ، وقد رأيا ما حصل بين الحسين وذلك الرجل ، فيذهبان إليه ، لظنهما أنّه يحمل أخبار الكوفة ، وهكذا كان بالفعل ، ولمّا انتسبا له ، وظهر أنه من بني أسد ، وهما أسديان فقد أخبرهما بأنباء الكوفة السيّئة ، وذهبا بعد ذلك إلى الإمام يسايرانه حتى نزل (الثعلبية) ، فنزلا عليه ، وسلّما عليه ، وقالا له :

يرحمك الله ! إنّ عندنا خبراً ، إن شئت حدثناك به علانيةً ، وإن شئت سراً .

فما كان منه إلاّ أن نظرا إليهما ،وإلى أصحابه ، ثم قال : ما دون هؤلاء سر .

فقالا له : رأيت الراكب الذي استقبلته عشيّ أمس ؟

فقال : نعم قد أردت مساءلته .

فقالا له : قد والله استبـرأنا لك خبره ، وكفيناك مسألته ، وهو امرؤ منّا ، ذو رأي ، وصدق ، وعقل ، وانه حدّثنا أنّه لم يخرج من الكوفة حتىٰ قتل مسلم ، وهانيء ، ورآهما يُجرّان في السـوق بأرجلهما .

وما أنْ سمع عليه السلام هذه الجملة ، حتىٰ سالت الدموع من عينيه أولاً ، لكنه سرعان ما قرأ الآية الكريمة : ﴿مِنَ المؤمنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا ما عَاهَدُوا الله عَلَيْه ، فَمِنْهُم مَنْ قَضىٰ نَحْبَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِر ، وما بَدَّلُوا تَبْديلاً﴾[1] . و[أنتم في الواقع لا تجدون آيةً في القرآن الكريم انسب من هذه الآية لمثل هذا الموقع] أيْ إنّنا لم نتحرك بهدف الوصول إلى الكوفة فحسب .

وإذا كانت الكوفة قد سقطت ، فإنّ حركتنا لم تكن قائمة على عامل دعوة أهل الكوفة لنا فحسب ، حتىٰ تتوقف بعد هذا الحدث .

فالكوفة كانت محطتنا المؤقتة ونحن قد خرجنا من مكة إليها بسبب الدعوة ، لكننا نحمل واجباً أكبر ومسؤولية أعظم ، ومُسلم بن عقيل قد أوفىٰ بعهده ، واستشهد ، وما علينا سوىٰ السير على خطىٰ مسلم .

فعندما يكون الإمام مهاجماً ، وثائراً ، وداعية للثورة ، يكون منطقه مختلفاً عن منطقه ، وهو في حالة الدفاع ، والتعاون .

فمنطق المدافع يشبه منطق الشخص الذي يتعرض لهجوم قاطع طريق ، يُريد سلبه جوهرةً ثمينة ، وهو يحاول بكل الوسائل والحيل ، الاحتفاظ بتلك الجوهرة ، ومنع السارق من الاستيلاء على تلك الجوهرة ، وقد يتطور الأمر بينهما إلى نزاع ، وشجار ، ومصارعة ، لكن الهدف بالنسبة للمدافع يبقىٰ هو الاحتفاظ بتلك الجوهرة ، ومنع السارق من المساس بها أو نهبها .

وفي هذه الحالة لا يُفكّر المدافع كثيراً بحجم قوة العدو ، وقوته ، والمقارنة بينهما ، بينما وضع الشخص المهاجم يختلف إذ يصبح همه وحسابه ، يتركزان ،

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٢٣ .



ليس فقط في الدفاع عن نفسه وحفظها ، بل والسعي في سبيل القضاء على العدو ، وحتى وإنْ أدى الأمر إلى استشهاده في سبيل تحقيق ذلك الهدف .

ومنطق الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، هو الذي جعل الحسين يُقاتل حتىٰ الاستشهاد ، ومنطق الشهيد هو المنطق الذي يعلو على ما سواه من منطق .

إنّ منطق الشهيد هو منطق ذلك الشخص الذي يحمل رسالةً معينة إلى مجتمعه وأمته، ولا يُريد أن يكتبها إلاّ بدمه، وكثيرون في الدنيا هم أولئك الذين يحملون كلاماً، أو رسالة ما، إلى العالم، وما أكثرها تلك الآثار التي يتمّ اكتشافها بين الحين والآخر بين الحفريات في أطراف العالم وأكنافه، وفيها كتابات منقبة من هذا الرئيس ، أو ذلك الزعيم ، أو الملك الفلاني ، وقد نحت مثلاً على صخرة ، كلاماً يقول فيه : أنا الملك الفلاني ، ابن الملك الفلاني ، الذي فتح المنطقة الفلانية في العالم ، وقد عشت كذا من العمر ، وتزوجت كذا عدداً من النساء ، وحكمتُ بالظلم والاستبداد ، كذا حولاً من الزمان . . . إلى غير ذلك مما نحتوه على الصخر ، حتىٰ يخلد على تلك الصخور ، ولا يُمحىٰ بسهولة منها .

لكنه بالرغم من بقائه خالداً فوق تلك الصخرة ، إلاّ أنّ الناس تنساه ، وتدفنه تحت التراب لآلاف السنين ، حتى يأتي يوم قد يتم اكتشافه ، ثم يوضع في المتحف .

في حين إنّ الإمام الحسين (ع) ، قد ثبت رسالته الدموية على صفحة الهواء ، والأفق المهتز ، غير أنّ كونها جاءت متماثلةً مع الدم واللون الأحمر القاني ، فقد نُقشت عملياً في القلوب .

ولهذا نرى الملايين اليوم من العرب ، والعجم ، لم ينسوا ، ولا يزالون يحفظون شعار الحسين ، ويُرددونه : « إني لا أرى الموت إلاّ سعادةً ، ولا الحياة مع الظالمين إلاّ برما » .

نعم هذه هي رسالة الشهيد ، والإمام الحسين (ع) الذي كان يُمثل حالة الهجوم ، وكان منطقه منطق الشهادة ، ويوم أراد كتابة رسالته ، وإيصال ندائه إلى

العالمين ، وهو في صحراء كربلاء ، لم يكن هناك قلم ، ولا ورقة ، فسطر الرسالة على صفحات الهواء المهتز .

لكن تلك الرسالة التي سُطرت فوق صفحات الهواء المرتجف ، والمهتز ، هي التي خُلدت . لماذا ؟ لأنها انتقلت على الفور إلى صفحات القلوب ، ونُقشت بشكل لم يَعُد ممكناً محوها إلى الأبد .

ومع مطلع كل محرّم جديد ، نرى أنّ الإمام الحُسين يطلع على العالمين من جديد ، يخرج إليهم حياً خالداً ، ويُسمع في الآفاق وهو يُنادي : « خُطّ الموتُ على ولد آدم ، مخطّ القلادة على جيد الفتاة ، وما أولهني إلى أسلافي كاشتياق يعقوب إلى يوسف »[1] كما يُسمع من جديد نداء الحسين حيث يقول :

« ألا وإنّ الدعي ابن الدعي ، قد ركّز بين اثنتين : بين السلّة والذلّة ، وهيهات منّا الذلّة ، يأبىٰ الله ذلك لنا ، ورسولُهُ ، والمؤمنون ، وحُجور طابت وطَهُرت » .

نعم كانت هذه هي رسالته التي واجه فيها ثلاثين ألفاً من الرجال ، كانوا قد أحاطوا به من كل جانب ، وهم يموجون حوله كموج البحر ، مدججين بالسيوف والنبال ، وقد قُتِل أصحابه كافة ، ولم يبق أحد في الميدان إلاّ هو وهؤلاء العساكر من جيش عمر بن سعد .

لكنه رغم ذلك يُسفّه أميرهم ، وحاكمهم ، ويُذكّرهم بحسبه ونسبه ، وأنه ابن بنت نبيهم ، وابن علي بن أبي طالب ، وابن الزهراء التي شرب منها ذلك الحليب الطاهر ، الذي يأبىٰ أن يركع لغير الله ، وسيظل يُنادي حتىٰ آخر لحظة من الحياة « هيهات مِنّا الذلّة » .

وهكذا يصبح هذا الخطاب التاريخي الأبدي ، خطاباً يتناقله الناس حتى يوم القيامة .

إنّ منطق الحسين (ع) ، ومنذ أنْ غادر المدينة هو منطق المهاجم ، ففي

---

(١) مقتل الخوارزمي ج ٢ ص ٥ .

وصيته المعروفة التي كتبها لأخيه محمد بن الحنفية يقول :

« إني لم أخرُج أشراً ، ولا بَطِراً ، ولا مُفسداً ، ولا ظالماً ، إنما خرجتُ لِطَلب الإصلاح في امة جدي ، أريد أن آمر بالمعروف ، وأنهى عن المنكر ، وأسير بسيرة جدي وابي » .

ويُلاحظ بوضوح هنا أنه عليه السلام لم يتطرق لا إلى البيعة ، ولا إلى دعوة أهل الكوفة التي لم تكن مطروحةً أساساً في ذلك الحين .

ومن خلال هذا المنطق الذي هو منطق الهجوم ، ومنطق الشهيد ، ومنطق توسيع رقعة الثورة ، فإنّ الإمام الحسين (ع) قام بأعمال لا يمكن أن تتماثل ، أو تُدرك ، مع أي منطق آخر ، فكيف ذلك ؟ لأنه لو كان منطقه منطق الدفاع فقط ، لَما أجاز لأصحابه أن يبقوا معه بعد ليلة العاشر من محرّم ، من بعد أن برأ ذمتهم من بيعته ، ولكان من المفروض أن يقول لهم بأنه لم يَعُد جائزاً شرعاً أن تبقوا معي ، وتُقتلوا إذ إنهم يُريدونني شخصياً ، ويطلبون البيعة مني ، ولمّا كنتُ أرفض البيعة وأُصرُّ على رفضها ، فأهلاً وسهلاً بالموت لي ، ولكن لا مُبرر لذلكم أنتم لتعريض أنفسكم للقتل .

لكن مثل هذا لم يحدث ، ولا يمكن له أن يحدث ، فمنطق الثائر والداعية للثورة، ومنطق المهاجم الذي يُريد أن يُسطِّر رسالته بالدم ، يتطلب توسيع رقعة الثورة ، وتعميم حركة الثوار ، لتشمل أكبر عدد ممكن من الناس ، ولذلك تراهُ يستبشر خيراً بأصحابه عندما يُقررون البقاء معه ، ويدعو لهم ، ولأهل بيته برضا الله ورضوانه .

ولماذا تراهُ يُرسل (حبيب بن مظاهر الأسدي) في ليلة عاشوراء إلى بني أسد ليأتي بعددٍ من قبيلة بني أسد بمثابة إسناد وإمداد للحركة الحسينية !

وكم كان عدد أفراد قبيلة بني أسد ؟

ولنفرض أنّ حبيباً تمكن من إقناع مئة شخص من قبيلته للحاق بقافلة الحسين (ع) ، فماذا كان سيكون دورهم وتأثيرهم مقابل الألوف الثلاثين من معسكر العدو ؟

وهل كان بإمكانهم مثلاً أن يُغيّروا من ميزان القوى لمصلحة الحُسين-؟!
أبداً!

فالإمام الحسين الذي كان يتحرك بمنطق الهجوم، ومنطق الشهيد، ومنطق الثورة، كان يُريد للرقعة أن تتسع، وللثورة أن تأخذ مساحة أوسع، وهو نفس المنطق الذي جعله يجلب عياله معه ذلك أنّ جزءاً من مهمة نشر الرسالة وتبليغها، كان مطلوباً من أهل بيته أنْ يؤدوه.

والإمام الحسين (ع) بعد أن رأى أنّ الحالة قد وصلت إلى أوجها، صار يسعىٰ إلى إشعال لهيب المعركة ورفع حدتها إلى أعلى درجة ممكنة، لأنه كان يُريد زرع البذور التي بإمكانها أن تُثمر باستمرار، ولهذا ترى كربلاء قد امتلأت، وتلألأت، بمشاهد ومناظر عجيبة، ومُحيِّرة حقاً!

والآن دعونا نرى أي واحد من هذه العوامل الثلاثة كان له القيمة الأكبر في سياق النهضة، هل هو عامل دعوة أهل الكوفة الذي كان يُعطي النهضة مفهوماً تعاونياً، أم هو عامل البيعة، الذي كان يُعطي النهضة ماهية دفاعية، أم هو عامل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، الذي كان يُعطي النهضة ماهيةً هجومية؟

ومن الطبيعي القول بأنّ قيمة هذه العوامل، لم تكن متساوية. فكل عامل منها كان له قيمة مُعيّنة يؤثر من خلالها على النهضة، بقدر تلك القيمة.

فعامل دعوة أهل الكوفة، وهم يُعلنون استعدادهم لدعم ونصرة من تصدىٰ لتلك المهمة التاريخية، والذي لبّى دعوتهم من دون لحظة تردد، لا شك عامل مؤثّر جداً، وذا قيمة بالغة، إلاّ أن عامل طلب أهل الحكم المبايعة ليزيد، وهذا الرفض من الإمام الحُسين بن علي (ع) بإعطائها لهم، واستعداده لتحمل القتل من أجل ذلك الموقف، لا شك أكثرُ قيمة، وأبلغ أثراً.

وأمّا العامل الثالث الذي هو عامل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فهو العامل الأكثر قيمة من بين تلك العوامل، وبالتالي فهو العامل الذي يمنح القيمة الأكبر للنهضة الحسينية.

وهنا أجدُ من الضروري التطرق إلى الأثر المتبادل، الذي يتركه العامل المؤثر في النهضة على صاحب تلك النهضة ، والعكس أيضاً عندما يترك صاحب النهضة بدوره الأثر على ذلك العامل ، ويزيده بالتالي قيمة وأهميةً فوق أهميته الذاتية .

أقول : إنّ كثيراً من الأشياء ، سواء منها المعنوية ، أو المادية ، تُعتبر ذات قيمة للإنسان ، قيمة يفتخر بها ، ويعتبرها زينةً وفخاراً له .

فمما لا شك فيه مثلاً أنّ العلم زينة للإنسان وكذلك الموقع والمقام ، لا سيما إذا كان موقعاً ، ومقاماً ربانياً ، فإنه لا شك من مفاخر الإنسان ومحاسنه ، حتىٰ الأشياء الظاهرية ، أي المظاهر الخارجية لهذه الأشياء ، تصبح ذات قيمة وتأثير لدىٰ الإنسان ، كلباس العُلماء والروحانيين مثلاً .

بالطبع ليس لباس الروحانية لوحده بكافٍ على أن يكون دليلاً على كون لابسه من الروحانيين العارفين بمعارف الإسلام ، والمتحلين بتقوىٰ الإسلام ، غير أنّ الروحاني يعني العالم بمعارف الإسلام ، والعامل بدستوره وتعاليمه السماوية .

واللباس علامة ومظهراً ينبغي أن يدل على وجود تلك الصفة عند لابسه ، فإنْ كان صاحب اللباس قد لبس ذلك الملبس عن حقيقة ، فهو يُمثّل ذلك اللباس عن حقٍ وحقيقةٍ ، وأمّا إنْ كان غير ذلك ، فهو لا يُمثّل اللباس .

على كل حال بما أنّ أغلب الذين لبسوا هذا اللباس ، كانوا أُناساً يمثلون عن حق وحقيقة المعنوية ، والحقيقة الروحانية ، فقد أصبح هذا اللباس بالضرورة فخاراً لمن يلبسه .

فأنت اليوم عندما ترتادُ مجلساً ، وترى أحدهم ، وقد ارتدى هذا اللباس الروحاني ، فإنك بالضرورة ستُقدّره وتحترمه ، بالرغم من جهلك لحقيقته .

إذن فهذا اللباس فخارٌ لمن يلبسه ، كذلك هو الأمر بالنسبة إلى لباس (البروفسور) الجامعي ، حيث ترى أستاذ الجامعة يفتخر بلباسه الجامعي ، والحال نفسها بالنسبة إلى الزينة التي تُعتبر من محاسن المرأة التي تفتخر بها .

والحال نفسه ينطبق على حركات التحرر ، حيث توجد كثير من العوامل التي تُعطي قيمةً وفخاراً للنهضة ، وكل نهضةٍ تختلف بالطبع عن سائر النهضات

الأخرى ، فقد تكون نهضة ما تحمل طابع الروح العرقية ، والقومية ، أو كما يُطلق عليها بنهضة الأرض والتراب ، فتكون العوامل التي تُعطيها قيمتها غير العوامل المؤثّرة في نهضة يكون طابعها وجوهرها طابع نهضة روحية ، ومعنوية ، وإنسانية ، أو إلهية .

وفيما يتعلق بالنهضة الحسينية ، فإن العوامل الثلاثة المذكورة آنفاً كونها العوامل المؤثرة في النهضة فإنها جميعاً تمنح قيمتها للنهضة الحسينية ، وتطبعها بطابعها الخاص ، لا سيما العامل الثالث .

ولكن قد يحصل أحياناً أنّ صاحب النهضة نفسه يحمل من الخصوصية ما يجعلهُ بدوره أيضاً يؤثّر في ذلك العامل المؤثر فيه ،ويزيده قيمةً فوق قيمته .

تماماً كما أنّ الروحاني يفتخر بلباس الروحانية، ويرتفع مقامه وتقديره لدى الروحانيين الحقيقيين بارتدائه ذلك اللباس ، لكنه قد يحصل أيضاً أنْ يقوم أحد الروحانيين بواجباته ، وتكاليفه الروحانية ، في علمه ، وتقواه ، وعمله على أحسن وجه ممكن ، ويصل إلى درجة من التمثيل الحقيقي لذلك اللباس ، بحيث يصبح هو ذاته مفخرةً لذلك اللباس ، فنقول عندئذٍ إنّ لباس الروحانية ، هو ذلك اللباس الذي يرتديه فلان .

ونحن هنا نستطيع على الأقل التحدث عن بعض الأمثلة التاريخية بهذا الخصوص ، فلو سُئلنا ما هي قيمة العمامة ، والرداء الروحاني ؟

فإنّ باستطاعتنا القول : تفضلوا وارجعوا إلى التاريخ ، وطالعوا شخصية (ابن سينا) التاريخية ، فها هي أقطار البلاد الإسلامية كلها تفتخر به : فالعرب يقولون إنه منهم لأنه حرّر كتبه باللغة العربية ، والإيرانيون يقولون إنه منهم لأن أصوله ترجع إلى مدينة (بلخ) ، وبلخ كانت قديماً جزءاً من المملكة الإيرانية ، والروس بدورهم يقولون إنه منهم لأن بلخ الآن منطقة روسية ، فكل جماعةٍ تدّعي الوصل به ، وهو فخار لكل الشعوب والأمم ، وهو من أصحاب اللباس الروحاني .

والأمر نفسه ينطبق على (أبو ريحان البيروني) : يمكن القول إذاً : إنّ (أبو



ريحان) و(ابن سينا) أصبحا مفخرةً وعزاً لذلك اللباس . الشيخ (الأنصاري) والخواجة (نصير الدين الطوسي) ، وغيرهم ، كانوا في الواقع يفتخرون بلباس الروحانية ، كما أنهم صاروا كذلك سبباً في منح ذلك اللباس العز والفخار .

كذلك الحال مع أستاذ الجامعة ، ولباسه الذي عادةً ما يفتخر به أي أستاذ جامعة ، لكنه قد يحصل أن يتصدى أحد الأساتذة الجامعيين لعمله الجامعي ، ويقوم بوظائفه المتعلقة به ، على أحسن وجه ممكن ، فيبرز كأحد المكتشفين ، أو المخترعين ، والمحققين الكبار ، فيكون بذلك هو الذي يمنح العزة والفخار للباس الجامعي ، ولكرسي الجامعة .

والمرأة بدورها أيضاً قد تكون هي التي تُضفي بجمالها وحُسنها زينةً على الزينة .

وفي هذا المجال ، لا بد من الإشارة إلى ذلك الرجل العظيم من أصحاب أمير المؤمنين علي (ع) وهو (صعصعة بن صوحان العبدي) الذي ربّاه علي ، ورعاه ، وأخرج منه خطيباً مفوّهاً ممتازاً ، يعترف له (الجاحظ) بامتياز خاص عندما يذكره بقوله : إنّ صعصعة لرجل خطيب ، وأكبر دليل على امتيازه في الخطابة هو دعوة علي بن أبي طالب(ع)من ليخطب في القوم ، كلّما كان الأمر بحاجةٍ إلى خطيب مفوّه . وصعصعة هذا هو نفسه صاحب الخطبة التاريخية المؤثرة فوق قبر علي (ع) .

ولمّا ارتقى علي (ع) سدة الخلافة توافد إليه المهنئون يهنئونه بتوليه منصب الخلافة ، وكان من بين المهنئين صعصعة بن صوحان ، فانظر ماذا قال صعصعة في هذا الشأن وهو يخاطب أمير المؤمنين (ع) :

« زيّنْتَ الخلافةَ وما زانتكَ ، ورفَعْتَها وما رفعَتْك . وهي إليك أحوجُ منكَ إليها »[1]

أي إنني أباركُ للخلافة لأنها اكتسبت رفعةً ومقاماً عندما حلّت بين يديك ، فأنت التي تُزيّن الخلافة وتُعطيها القيمة والأهمية ، وليست هي التي تُعطيك ،

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٧٩ .

وهي بحاجة إليك أكثر مما أنت بحاجةٍ إليها ، وهو قولٌ يُعادل عشر مقالات تكتب بحق القضية أو يزيد .

نعود ونقول هنا إنه لصحيح أنّ عنصر الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، قد منح قيمةً خاصةً ، ورفع من مقام النهضة الحسينية ، لكنه صحيحٌ أيضاً أنّ الحسين بدوره أيضاً قد رفع من قيمة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وزاده درجةً .

نعم فالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، قد رفع من أهمية النهضة الحسينية ، وزادها شأناً ، لكن الحسين بدوره أيضاً قد نفذ ، وطبق وترجم هذا الأصل الإلهي ، بشكل أضفى معه تاجاً ، وعزة ، وجلالاً ، على رأس ذلك المبدأ العظيم .

فكثيرون هم من يقولون بأنهم يُريدون أن يأمروا بالمعروف ، وينهوا عن المنكر ، والحسين أيضاً في البداية لم يقُل سوى : « أُريد أن آمر بالمعروف ، وأنهى عن المنكر ، وأسير بسيرة جدي وأبي » .

ووضع الإسلام نفسه أيضاً لا يختلف عن ذلك . فالإسلام دين يفتخر به كل مسلم ، إلّا أنه يوجد هناك بين المُسلمين ، من هُم حقيقة وحقاً ، يلعبون دور فخر الإسلام ، وعز الدين ، وشرف الدين ، وشرف الإسلام ، بالمعنىٰ الواقعي للكلمة .

صحيح أننا اليوم نمنح هذه الألقاب لكثير من الناس ، مجاملةً وتكريماً ، إلّا أنها لا تنطبق بسهولةٍ على أيٍّ كان ، فلو قيلت بشأني مثلاً لكانت كذباً محضاً ، فلو قيل إنني فخر الإسلام ، فأين أنا من فخر الإسلام ! ومن أنا حتىٰ أكون فخراً للإسلام ؟!

إنني أتذكرُ أنني دُعيت إلى إلقاء خطاب في جامعة (شيراز) قبل حوالي سبع أو ثمان سنوات[1] وكان الجميع هناك حاضراً في الجامعة ، الأساتذة وعميد

---

(١) جمعية الطلبة المسلمين للجامعة هي التي دعته .

الجامعة أيضـاً، ومن بينهم كان لي صديق سبق أن كان زميلاً لنا في (حوزة قم) ثم انتقل بعد ذلك للدراسة في الولايات المتحدة ، وتخرج بدرجة دكتوراه ، وهو من الفضلاء حقاً ، وقد تصدىٰ هو للتعريف عني، حيث صعد منصة الخطابة (وكانت القاعة مكتظة بالحضور مثل جلستنا الراهنة)، فعرّف عني أولاً بأول وأنّه كان يعرفني منذ أيام الدراسة في قم ، وبعد أن تحدّث عن قم ، وحوزة قم وصل إلى خاتمة الحديث ليقول :

« إنني أقـول لكم بنص العبـارة ، وبكـل جـرأة ، إنـه إذا كـان لبـاس الروحانية ، يُشكّل فخراً للآخرين ، فإن الاستاذ مُطهري يُعدّ بحق مفخرة لباس الروحانية » .

فـما كان مني إلاّ أنْ اشتعلتُ غيظاً من كـلامـه ذاك وما أنْ جاء دوري في الحديث الذي كان عليّ أنْ ألقيه واقفاً بعد أن أضع عبـاءتي على المنصـة ، وبعد التحية والسلام قلتُ لذلك الرجل العريف ، مخاطباً إياهُ بلهجة قاسية :

مـا هذا الكـلام الـذي تفـوهت بـه عن هـذه المنصـة ؟! أتـدري معنى ما تقول ؟! فمن أكون أنا حتىٰ تنعتني بتلك الصفات ، وتقول عني بأنني فخر للباس الروحانية .

وبالرغم من أنني كُنت من أولئك الذين يحملون صفتي الجامعي والروحاني المُعمم فقد قُلت له :

اعـلم أيها السيد بأنني لا أملك في حيـاتي كلها سـوى فخر واحـد ، وامتياز واحد ، الا وهو هذه العباءة وهذه العمامة .

ومن أنا حتىٰ أكون مادةً للفخر ؟! وما هذه المجـاملات الفـارغة التي نقـولها لبعضنا البعض ؟! فهذه الألقـاب يجب أن نُطلقهـا على أبي ذر الغفـاري ، وعمار بن ياسر ، وأمثالهما ، فهؤلاء هم فخر الإسلام الذي خلق أمثالهم مثل (ابن سينـا) الذي هو الآخر فخر الإسلام بنبوغه وعبقريته .

ومفـاخر الإسـلام الأخرون منهم الخـواجة نصـير الدين الـطوسي ، وصدر المتألهين الشيرازي ، والشيخ مرتضى الأنصاري ، وميرداماد ، والشيخ البهائي .

نعم فهؤلاء أبناء الإسلام ، ولا بد أن يكونوا من مفاخره الذين ينبغي للعالم أن يعتزّ بهم ، ذلك أنهم قد تركوا أثرهم البالغ في ثقافة الأجيال وتراثهم .

والدنيا لا يمكنها إلّا أن تقتطع جزءاً من كوكب القمر ، وتخصُّ به الخواجة نصير الدين ، وتُطلق اسمه عليها ، حيث إن هذا العالم قد ساهم بشكل جدي في الاكتشافات القمرية .

فلمثل هذا يمكن إطلاق لقب فخر الإسلام ، وليس لمثل أمثالي !! وما قيمة مَنْ هم على شاكلتي ؟!

وما علينا نحن إلّا أن نشكر الإسلام لو أنّه فقط رضي بنا أبناء له ، ونفتخر به ، ونضعه تاجاً ، وعزاً ، وفخراً ، لنا ، نحملهُ في صدورنا وقلوبنا .

أما أن نكون نحن رمزاً لفخر الإسلام !! فهذا ما لا نقبله أبداً ، فنحن لسنا سوىٰ عالةٍ وعارٍ في عالم الإسلام ، وهذا هو حال الأكثرية منّا في عالم الإسلام ، ولهذا دعونا نضع المجاملات جانباً . انها مجاملات وليس أكثر .

أما فيما يخص الحسين بن علي (ع) ، فإنه يمكن القول إنه قد منح بحق قيمة ودرجة لمبدأ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وزاده اعتباراً ، وتقديراً ، وهو ذلك الأصل الذي يُعتبر بحقٍ فخر المُسلمين ، وزينتهم ، وخيرهم .

وهذا التعبير الأخير الذي أستخدمه هنا بحق هذا الأصل ، هو في الواقع عين التعبير القرآني ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ كُنتم خير أُمةٍ أُخرجَتْ للنّاس تأمرُونَ بالمعروفِ وتنهونَ عن المنكر ﴾ .

نعم هذا هو التعبير القرآني بشأننا نحن أُمة الإسلام ، حيث يصفنا سبحانه وتعالى بأننا : « خير أمةٍ أُخرجتْ للناس » ، ولكن بماذا أصبحنا « خير أُمةٍ » وما هي ميزتنا التي تجعلنا « خير أمةٍ » ؟ ولماذا نحن « خير أمةٍ » ؟ .

نعم بشرط واحد وهو تمسكنا بهذا الأصل : « تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر » وهذا هو حال الأمة في صدر الإسلام .

نعم وفي حال غياب دور هذا المبدأ من بيننا فهل سنبقىٰ رغم ذلك خير

أمة ؟ أبداً ، ليس كذلك لكن الحسين عليه السلام رفع هذا المبدأ ، وهذا الأصل القرآني ، وردّ له اعتباره .

أحياناً نقوم نحن بأداء فريضة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، لكننا لسنا فقط لا نضيف قيمة على قيمة هذه الفريضة ، بل إننا حتى نُحطّ من قيمتها الأصلية ، فما هي صورة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، في أذهان عامة الناس الآن ؟

إنها بعض القضايا الجزئية ، والفرعية ، ولا أقول إنها أعمال صحيحة (بالرغم من أن بعضها غير صحيح ،) لكنها إنما تكون صحيحة عندما تأتي في السياق العام ، والشامل ، لأداء الفريضة .

فمثلاً لو أننا أخذنا فريضة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ولخصناها في مسألة لبس خاتم الذهب ، من قبل الرجال ، وضرورة منعهم من ذلك .

إنه عمل صحيح بحد ذاته أن تنبه من يهمه الأمر بهذا الخصوص ، ولكن شرط أن لا يقتصر المنكر على هذا الموضوع ، ويتم تجاهل سائر المنكرات الأخرى ، لا سيما الكبرى منها . وتبقى منكراتنا تتراوح بين قضية حلق اللحية ، ولباس الأفندية ، وما شابهها فقط .

ينقل أحد السادة : أنه مرةً تواجه مع أحدهم ، فرآه عصبي المزاج للغاية ، وقد أخذ يلعنُ شخصاً آخر ، ويتهمه أسوأ الاتهامات من التكفير والتفسيق ، ولما سألته ما الذي عمله فلان حتى جعلك تفقد أعصابك وتلعنه بهذا الشكل ؟ فردَّ عليّ أن هذا الملعون الجهنمي ، يلبس قميصاً ذا ياقة ! (تسمع قهقهة من الحضور) .

فتصوروا الأمر في حال نحن أنزلنا مستوى الأداء في هذه الفريضة إلى هذا الحد المتدني ، ألا نكون قد حقّرنا هذا المبدأ وحجّمنا قيمته ؟ .

لكنك ترى الحسين (ع) في المقابل صورةً مجسّمة للأمر بالمعروف ، والناهي عن المنكر ، فهو قد أخذ على عاتقه القيام بالأمر بالمعروف الشامل ، وهو يرسم لك لوحة شاملة لقائمة المعروف ، ثم يكشف لك منكرات عالم الإسلام كافة.

ويقول لك إنّ أول منكر ، وأكبر منكر لذلك العالم آنذاك ، هو شخص الحاكم يزيد :

«فلعمري ما الإمام إلاّ العامِلُ بالكتاب ، القائم بالقسط والدائنُ بدين الله »[1] .

نعم هذا هو الإمام ، وهذه هي صورته وفعاله ، فهو الذي زيّن صورة الموت على طريق أداء فريضة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وبالتالي أعطىٰ للموت عزةً ، وعظمةً ، وجلالاً .

فما أجمله من تعبير ذلك الذي جاء على لسان الحسين (ع) حول الموت ، وهو يغادر المدينة المنورة ، فهو يصف الموت كأنه الزينة والجمال ، ولكن أي موت ؟ إنه ليس أي موت كان ، بل الموت في سبيل الحق والحقيقة .

نعم فهو القائل عليه السلام : « خُطَّ الموتُ على ولد آدم مَخَطَّ القلادة على جيد الفتاة » وتعبيره الذي يتسم بصراحة أكثر هو قوله لتلك الأبيات من الشعر ، وهو في الطريق إلى كربلاء ، والذي ينسبه البعض إليه ، والبعض الآخر إلى أمير المؤمنين علي (ع) حيث يقول فيه :

وإنْ تكن الدُنيا تُعدّ نفيسةً ... فدارُ ثواب الله أعلى وأنبلُ
وإنْ تكُن الأموال للترك جمعُها ... فما بالُ متروك به المرءُ يبخلُ
وإن تكن الأبدان للموت أُنشئت ... فقتل امرىءٍ بالسيف في الله أفضل

وهنا أكتفي بهذا المقدار ، وأختتم حديثي بالدُعاء لكم ، والتوفيق ، وأقول :

اللهم ! اشرح صدورنا لفهم حقيقة الإسلام .

---

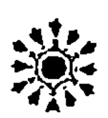
(١) إرشاد الشيخ المفيد . ص ٢٠٤ . وقد ورد كذلك . (الدائن بدين الحق) .

اللهم ! وفقنا لأداء الواجبات ، والفرائض ، والمسؤوليات ، التي في أعناقنا .

اللهم ! اهزم أعداء الإسلام ، وارزقنا خير الدنيا والآخرة ، وارحمنا واغفر لنا جميعاً إنك أنت الغفّار .

رَحِم الله من قرأ الفاتحة مع الصلوات

إلى هنا ينتهي القسم السابع ومعه يكتمل الجزء الثاني من الكتاب .



محتويات الجزء الثاني
من كتاب الملحمة الحسينيّة